نداء المؤمنين في القرآن المبين

لسيدي الشيخ أحمد فتح الله الجامي حفظه الله

موقع الطريقة الشاذلية الدرقاوية
http://www.shazly.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة الناشـــر:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن مما يزيد من شرف المؤمن وكرامته عند ربه أن يتوجه الخطاب الإلهي إليه بنداء خاص من بين آيات الذكر الحكيم، فيهديه إلى التي هي أقوم ويرشده إلى خيري الدنيا والآخرة، وفي هذا النداء أسرار وحكم تظهر للمتدبر لكتاب الله عز وجل.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في معالجته للآيات التي تتضمن ذلك النداء الخاص بالمؤمنين إذ يتناولها بالشرح والتفسير ثم يستخرج منها الأحكام العملية كما يُلْمِحُ إلى إشارات أهل الذوق والعرفان فجمع بهذا بين العلم والعمل.

ومما زاد في أهمية الكتاب كونه من عمل عارفٍ بالله تعالى خبير بتزكية النفس وتهذيبـــها بصـــير بإرشاد السالكين وترقيتهم في مدارج الكمال، فجاء هذا العمل ــ على حسب إطلاعنا ــ جديداً في موضوعه فريداً في بابه مكللاً بتوفيق الله عز وجل، والحمد لله أولاً وآخراً.

النـــاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خص المؤمنين بالنّداء في القرآن المبين، تشريفاً لهم بين العباد وتنبيهاً لهم عن نومة الغافلين، وأمرهم بالدخول في الإسلام بالكلّية تبعيداً لهم عن مشابهة الكافرين، وأمرهم بإطاعة الله ورسوله، وحضَّهم على صحبة المتَّقين الصادقين، ونهاهم عن بطانة المسـيئين ومـوالاة الكفـار والمنافقين، وأمرهم بالصبر والمصابرة عند اللقاء، ونهاهم عن إتِّباع خطوات الشـيطان اللعـين، وأمرهم بكثرة الذِّكر، ووعدهم النصر لمن ينصر الدين المبين، ودعـاهم للاسـتجابة لله تعـالى ولرسوله صلى الله عليه وسلّم، وأمرهم بالصَّلاة على النَّبيِّ المختار الأمين.

أحمده حمد الحامدين، وأشكره شكر الذَّاكرين، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، شهادةً أدَّخرها عنده ليوم الجزاء، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم عبده ورسـوله خـاتم الأنبياء وإمام الأولياء والأصفياء، اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله أهـل الصـدق والوفاء، وأصحابه نجوم الاهتداء، والتابعين وتابعيهم إلى يوم اللقاء، صـلاة وسـلاماً دائمـين متلازمين ما تبسَّمَ الفجر فأضاء الأرض والسَّماء.

وبعد: فإن أفضل العلوم وأنفعها ما يُفسِّر القرآن المجيد وكلام الله العزيز الحميد، والأنفع الأهم ما خاطب به المؤمنين، لأنهم المنتفعون به لقوله عزَّ وجل {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }، وإنَّ مولانا وسـيدنا وسندنا بقية السلف، وإمام الخلف، منبع العلمين الوهبيِّ والكسبيّ، الذي رفع لواء الشريعة الغرَّاء عالياً، ووهب نفسه وماله ووقته لتطبيقها ظاهراً وباطناً، حتى صار حجَّة على كل من يفرِّق بـين الشريعة والطريقة، أو يجعل الطريقة غير الشريعة، أو يجعل الطريقة أو غيرها أعلى من الشريعة،

ويشهد بذلك كلٌّ من جالسه أو قرأ الدُّرر البهية في الوصايا الجاميَّة، والواصل إلى أوج الكمال الموصل إلى عين اليقين بل حقِّ اليقين، شيخ الطريقة الشاذلية الدّرقاوية بالسَّند المتَّصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بلا ميْن، أبو الفاروق الشيخ أحمد فتح الله جـــامي، الموشـــيُّ مولـــداً، المرعشيُّ مسكناً، الشافعيُّ مذهباً، الخالديُّ نسباً، متَّعَنَا الله بطول حياته، وحماه مـــن موجبـــات التَّلهف والتأسُّفِ، ووفقه لما يحبُّه ويرضاه، وأرضاه في الدَّارين، وجعله قدوة لنـــا وللمســـلمين، وجزاه عنَّا خير جزاءٍ، آمين.

آمين ربِّي بألف فيه آمينا من قال آمين عمَّا يُكره صِينَا فسَّر الآيات المبتدآت في القرآن الحكيم بـــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } بما فسره المفسرون في أمهات كتب التفسير، كتفسير الفخر الرازي، وروح البيان، وروح المعاني، وتفسير القرطبي، وابن كثير، وتفسير البيضاوي، ولطائف الإشارات، وصفوة التفاسير، وإشارة الإعجاز للإمام المجدِّد بديع الزمان سعيد النورسي وغيرها، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، روايةً مع ما ضمَّه إليها دراية، إفادة للمؤمنين، فصار مجلداً كاملاً وسمَّاه: « نداء المؤمنين في القرآن المبين »، وجواب تلك النداءات إمَّا أمر، أو نهي، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: (إذا سمعت الله يقول { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِـــن قَـــبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } فأرعها سمعك فإنَّه خير يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه). فطوبى لمن ائتمر بما به الله أمر، وانتهى عمَّا نهى عنه وانزجر.

فأراه مؤلفاً قد أتى بما يشفي الصدور، ويجلب السرور، حقيقاً بالاعتناء به والاطلاع عليه، وافياً بالمقصود فيما يُرجَعُ فيه إليه. كيف لا؟! فإن المؤلف ـــ أطال الله تعالى عمره ورفع قدره ورضي الله عنه وأرضاه ـــ قد صرف أوقاتاً نفيسة في اصطفاء ما نقله عن المفسرين الَّذين بذلوا جهدهم في حلِّ كلام الله المبين، أعلى الله درجاتهم في أعلى علِّيين آمين. وبالجملة فأقول: هو مؤلَّفٌ نـــافع حقيق بأن ينشر بين المؤمنين، ولم يسبق إلى مِنْوَالِه أحد من المؤلفين، وحيد في بابه، ولم يَنْسِجْ على نسجه في ظنِّي أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين.

فجزى الله عن المسلمين المؤلف خير الجزاء، وأدام به النفع إلى يوم اللقاء، وجمعه وإيَّانا بنبيِّنـــا محمد صلى الله عليه وسلّم في دار النعيم، مع الصدِّيقين والشهداء والصالحين، وصلى الله تعـــالى على سيدنا محمد إمام المرسلين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الطيبين، والتابعين لهـــم إلى يـــوم الدين، وسلِّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربِّ العالمين.

وأقدم زيادة شكري وتقديري وجلَّ احترامي لكلِّ من كان ويكون وسيلة ومعيناً لطبع ونشـــر هذا التأليف البديع الغريب بين المسلمين، وأرجو من الله تعالى أن يفتح عليه فتـــوح العـــارفين، فيجعله من الذين لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله المبين، آمين اللهمَّ آمين.

كتبه الفقير إلى رحمة ربِّه القدير

أبو البشير أحمد عمر البهطي

٢٢ شوال ١٤١٧ هـــ

١ آذار ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مَقَدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أحمده على تواتر إنعامه حمداً كثيراً، فقد أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وأتوكل عليه مفوضاً أمري مستجيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً يغدو قلب قائلها مطمئناً مستنيراً، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي كساه من فضله عزاً ومهابةً وتوقيراً. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سيدنا محمد الأمين صلى الله عليه وسلّم الذي فتح به قلوباً غلفاً وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الهادين الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد...

عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاء بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ، وذكر، ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور،

فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهـــل بـــيتي، أُذكِّرُكُم الله في أهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي » رواه مسلم.

خمّاء: الوادي الذي فيه الماء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « تركت فيكم أمـــرين لـــن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم » رواه الإمام مالك.

أقول: إن أعظم العلوم وأشرفها علم التفسير، ولما كان القرآن جامعاً لأشتات العلوم، وخطاباً لعامة الطبقات في كل الأعصار، لا يتحصل له تفسير لائق من فهم الفرد، فمن الواجب أن يخلص المفسر من التعصب لمسلكه ومشربه، إذ فهمه يخصه، ليس له دعوة الغير إليه؛ إلا أن يكون مقبولاً عند الجمهور، وكذلك استنباط ما فيه لا بالتشهي له، لذا لا بد من وجود العلماء المحققين الذين بمظهريتهم لأمنية العموم، واعتماد الجمهور، يتقلدون كفالة ضمنية للأمة المحمديـــة، فيصـــيرون مظهر سرِّ حجية الإجماع الذي لا يصير نتيجة الاجتهاد شرعاً ودستوراً إلا بتصديقه وسكّته، لأنهم لا يجتمعون على الباطل وهم أمناء الأمة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله بغير علم.

ولذا فإني ما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير مع التحري الدقيق بقدر الوسع والإمكان لأصح الأقوال وأرجحها ولم أجعل لنفسي تصرفاً ســوى النقــل والانتخاب إلا أني علقت بنهاية النداءات ما يناسب الموضوع بــ (أقول) فائدة للمؤمنين.

وإنني أشكر المولى جلَّ وعلا أن سهل لي هذا العمل، إذ كنت كلما أقرأ القرآن يقع في قلــبي صوت النداء من ربي بقوله تعالى { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } وأجد فيه خصوصية الخطاب للمؤمن مملوءة بالعناية.

وأجد خطابه للنبي المشرف صلى الله عليه وســلّم: { يــا أَيُّهَــا النَّبِــيُّ } كقولــه تعــالى: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً } .

وأجد خطابه للعامة في قوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّاسُ } كقوله تعالى: { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَــاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }.

كنت أقف عند كل آية نداء وأتفكر بمراد الله فيَّ من هذا النداء، ووقع في قلــبي أن أجمعهــا وأكتبها ولكني ما عزمت على الجمع والكتابة حتى سنح لي ذلك بتوفيق الله، حين جرى بيني وبين شيخي - (الشيخ عبد القادر عيسى) رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه - كلام فيما يتعلق بالنداء في القرآن، وما فيه من أمر، أو نهي، أثناء إحدى زياراته - رحمه الله تعالى - لنا في مرعش ثم بعد مدة ذهبت لزيارته في عمان الأردن فقال رحمه الله تعالى: (اكتب واجمع وترجم باللغة التركية لاستفادة المؤمنين).

وبعدما رجعت من ذلك السفر كتبت هذه النداءات بعون الله تعالى وكـــان علمـــاء مـــرعش يسألونني عن تسميتها فأجبتهم: إني أمرت بكتابة النداءات وجمعها وترجمتها وما أمرت بتسميتها.

وعندما كان في آخر زيارة لنا - رحمه الله تعالى - قبل وفاته بخمسة وعشرين يوماً تقريباً أخبرته بذلك فقال رحمه الله: (سمه نداء المؤمنين، وأنواعه أمر، ونهي، وإخبار) فقلت له نداء المـــؤمنين في القرآن المبين، والحمد لله.

ولقد منَّ الله عليَّ بجمع هذه النداءات، وهي تسعة وثمانون نداءً في القرآن الكريم، رتبتها حسب ما وردت في السور الكريمة ابتداءً من سورة البقرة وختماً في سورة التحريم.

فما عملت إلا آملاً بنيل رضاه، راجياً أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين، وأرجو من الله أن ينتفع المؤمنون به، ويخصني من قرأ فيه بدعوة صالحة تنفعني يوم المعـــاد وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه الفقير إلى ربِّه

أحمد فتح الله جامي

الثلاثاء الموافق ٨ رجب ١٤١٧ هـــ

١٩ تشرين الثاني ١٩٩٦ م

النداء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَـافِرِينَ عَـذَابٌ أَلِـيمٌ } [البقرة: ١٠٤].

قال عبد الله بن مسعود وغيره من السلف رضي الله عنهم: إذا سمعت الله يقول { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } فأرْعِها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

وقد خاطب الله المؤمنين بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } في تسعة وثمانين موضعاً من القرآن وهذا أول خطاب خاطب به المؤمنين في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال.

فإن اسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات.

اعلم أن الله تعالى لما شرح قبائح أفعال اليهود قبل مبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أراد من هاهنا أن يشرح قبائح أفعالهم عند مبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وجِدَّهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه وهذا هو النوع الأول من هذا الباب.

والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من تشبه بقوم فهو منهم »، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما. ففيه دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أفعالهم وأقوالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نُقِر عليها.

وكان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمة يَتَسابُّون بها عبرانية أو سريانية وهي راعنا، فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلّم وهم يعنون به تلك المسبّة، فنهي المؤمنون عنها لأن معناها في لغتهم (يا أحمق) ، وأمروا بما هو في معناها؛ وهو انظرنا مِنْ نَظَرَهُ إذا انتظره.

وسبب نزول الآية كما أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود كانوا يقولون ذلك سراً لرسول صلى الله عليه وسلّم وهو سب قبيح بلسانهم، فلما سمعوا أصحابه عليه الصلاة والسلام يقولون أعلنوا بها، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، وروي أن سعد بن عبادة رضي الله عنه سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم لأضربنَّ عنقه فقالوا: أولستم تقولونها فنزلت الآية. قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا } أي: راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا { وَقُولُواْ انظُرْنَا } أي: انتظرنا وارتقبنا. { وَاسْمَعُواْ } أي: أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا

{ وَلِلكَـــفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي ولليهود الذين نالوا من الرسول صلى الله عليه وسلّم وسبوه، عذاب أليم موجع.

في الآية دليل التمسك بسد الذرائع وحمايتها، وقد دلَّ على هذا الأصـــل الكتـــاب والســـنة، والذريعة: عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه، يخاف من ارتكابه الوقوع في الممنوع، كما مرَّ في الآية الكريمة بها، ووجه التمسك بسد الذرائع: أن اليهود كانوا يقولون ذلك، وهي سب بلغتهم؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ، لأنه ذريعة للسب، ومنع مـــن الإقـــدام علـــى الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وذلك سداً للذريعة وقال رسول الله صلى الله عليه وســـلّم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس ».

أقول:

هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله، فاسمع ما وعد ربك على إيمانك من الفلاح والنجاة والفوز العظيم بقوله: { الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُـــدًى لِّلْمُـــتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـــهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنـــزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالأْخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَـــئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة: ١ - ٥] .

وَوَعْدُه سبحانه وتعالى لا خُلْفَ فيه، ناداك في القرآن بالإيمان ورتب علـــى إيمانـــك الفـــلاح والهداية.

فلا بد أيها الأخ المؤمن أن تعمل بمقتضى إيمانك، ولا تتبع خطوات الشـيطان، ولا يركبنَّـك الهوى، واتبع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى تكون من الفائزين.

اللهم أتمم تقصيراتنا؛ وتقبل منا إنك ذو فضل ورحمة، آمين وسلام على المرسلين، والحمـد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلـى آلـه وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـبِرِينَ } [البقرة: ١٥٣] .

نادى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان، ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة.

فقال تعالى: { اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ } أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصـبر والصلاة، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنهون عن كل رذيلة.

وهذه الآية حَضٌّ (حثّ) من الله تعالى ذِكْرُه على طاعته واحتمال مكروهاتها علـــى الأبـــدان والأموال فقال: {{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ } على القيام بطـــاعتي وأداء فرائضي والتسليم لأمري فيما آمركم به في حين إلزامكم حكمه، والتحول عنه بعد تحويلي إياكم عنه، وإن لحقكم في ذلك مكروه من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم بالباطل، أو مشـــقة على أبدانكم في قيامكم به، أو نقص في أموالكم، وعلى جهاد أعدائكم وحربهم في سبيلي بالصبر والصلاة.

والصبر: هو الحبس. وأَمَرَ تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة وإذا صبر عن المعاصي فقـــد صبر على الطاعة، والصبر على الأذى والطاعات من باب الجهاد للنفس، وقمعها عن شـــهواتها، ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين.

فالصبر هو قهر النفس على احتمال المكارة في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات.

والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص لـــه، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد والترغيـــب والترهيب ولذلك قال تعالى: { إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت: ٤٥] .

ولذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقين على الفزع إلى الصلاة. وروي أنه عليه الصـــلاة والسلام إذا حَزَبَهُ (اشتد عليه) أمر فزع إلى الصلاة. فهي الأصل الموجب لكمال التقرب إليه.

وروي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نُعي له أخوه وقيل بنت له وهو في سفر، فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر ساقه الله ثم تنحى عن الطريق وصلى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ قوله تعالى: { اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ }. وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه، لأنها مجمع أنواع الطاعات من الأركان والسنن والآداب والحضور والخضوع والتوجه والسكون وغير ذلك مما لا يتيسر حفظه إلا بتوفيق الله تعالى. والصبر على أقسام:

أولاً: صبر على ترك المحارم والمآثم.

ثانياً: صبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود.

ثالثاً: الصبر على المصائب والنوائب فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب، والتوبة والإنابة إلى الله.

قال زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما: (إذا جمع الله الأولين والآخرين، ينادي منادٍ: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُنقٌ (جماعة متقدمة) من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا ابن آدم؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون قالوا: وما صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله، قالوا: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) قلت ويشهد لهذا قوله تعالى : { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: ١٠] .

فبالصبر منكم لي على مكروه ذلك ومشقته عليكم، واحتمال عنائه وثقله، ثم بالفزع منكم فيما ينوبكم من مفظعات الأمور إلى الصلاة لي، فإنكم بالصبر على المكاره تدركون مرضاتي، وبالصلاة لي تستنجعون (تنتفعون بالإنعام) طلباتكم قِبَلي، وتدركون حاجاتكم عندي.

ثم قال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـــبِرِينَ } أي إن الله مع الصابرين بالنصر والمعونة والحفظ والتأييـــد. وكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقاً وتســـديداً وألطافاً {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَواْ }. [مريم: ٧٦] وفي الآية إني مع الصابرين على القيام بـــأداء فرائضي وترك معاصيّ أنصرهم وأرعاهم وأكلؤهم حتى يظفروا بما طلبوا.

وفي قوله: إن الله مع الصابرين بالعون لأن المعية على قسمين:

أحدهما: معية عامة وهي بالعلم والقدرة. وهذه عامة في حق كل أحد.

ثانيهما: معية خاصة وهي المعية بالعون والنصر وهذه خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } [النحل: ١٢٨] وقال هنا: إن الله مع الصابرين، فافهم أنه مع المصلين بالأولى(١) ولم يقل مع المصلين لأنه تعالى إذا كان مع الصابرين كان مع المصلين من باب أولى لاشتمال الصلاة على الصبر.

ولذا فإنه تعالى بَعْدَ قوله {وَبَشِّرِ الصَّـــبِرِينَ }، يقول: {أُولَـــئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَتٌ مِّن رَّبْهِمْ } .

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر وعلو القدر حيث نالوا معية الله قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـــبِرِينَ }.

أقول:

هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله فاسمع واحفظ وعد الله في كتابه الكريم، الذي بلّغك إياه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم قال سبحانه وتعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ } وفي آخر الآيات من الأوصاف الجليلة قال سبحانه وتعالى: { أُوْلَـئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون: ١١] .

محال عندك أن تنفي صفة الإيمان من نفسك، فأنت مؤمن البتة، وعلى هذا فأنت داخل في جملة المشمولين بهذا النداء الإلهي، لا بد لك أن تجتهد لنيل هذا الربح العظيم، ولا تضيعه بمتابعة النفس وإغواء الشيطان، وبالحرص على الدنيا الدنيئة؛ فالله يهديك الصراط المستقيم آمين.

فاستعن على أمورك في دنياك بالصلاة، وكذلك على أمور آخرتك؛ فقد روى الإمام مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه أنه قال: كنت أبيت عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: « سَلْ » فقلت: يارسول الله أسألك مرافقتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلّم: « أو غير ذلك » فقلت هو ذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

اللهم وفقنا لذلك. آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [البقرة: ١٧٢] .

إن الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى هَاهُنا في دلائل التوحيد والنبوة؛ واستقصى الرد على اليهود والنصارى، ومن هنا شرع في بيان الأحكام. فقال جل وعلا: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } فقد جرت عادة الله في كتابه غالباً مناداة أهل مكة يا أيها الناس؛ ومناداة أهل المدينة يا أيها الذين آمنوا. أقول لأن الآيات المكية متعلقة بالاعتقاد فالخطاب بها للعموم كما في الآية: { يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلَـلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } والآيات المدنية متعلقة بالتشريع فالخطاب بها للخصوص كما في الآية: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } وفائدة تخصيصهم بعد التعميم تشريفهم بالخطاب وتمهيد لطلب الشكر. فقال: { كُلُواْ } خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية. والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه.

واعلم أن الأكل قد يكون:

أولاً: واجباً وذلك عند دفع الضرر عن النفس.

ثانياً: مندوباً وذلك أن الضيف قد يمتنع من الأكل إذا انفرد وينبسط في ذلك إذا سوعد.

ثالثاً: مباحاً إذا خلا عن هذه العوارض ، والأصل في الشيء أن يكون خالياً عن العوارض فلا جرم كان مسمى الأكل مباحاً. وإذا كان الأمر كذلك كان قوله:{ كُلُواْ } في هذا الموضع لا يفيد الإيجاب والندب بل الإباحة.

ثم قال تعالى: {مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } أي كلوا من طيبات ما رزقناكم يعني أطعموا من حلال الرزق الذي أحللنا لكم فطاب لكم بتحليلي إياه لكم مما كنتم تحرِّمون أنتم، ولم أكن حرمته عليكم من المطاعم والمشارب.

والأمر بأكل الطيبات لفائدتين:

إحداهما: أن يكون أكلهم بالأمر لا بالطبع فيمتازون عن الحيوانات، ويخرجون من حجاب الظلمة بنور الشرع.

والثانية: ليثيبهم بائتمار أمر الأكل.

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة؛ كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به

المرسلين فقال: { يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } وقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب؛ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك » رواه أحمد ومسلم والترمذي.

ثم قال: { وَاشْكُرُواْ للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه. والشكر صرف العبد جميع أعضائه الظاهرة والباطنة إلى ما خلقت لأجله؛ وهذا الأمر ليس أمر إباحة، بل هو للإيجاب إذ لا شك في أنه يجب على العاقل أن يعتقد بقلبه أن من أوجده وأنعم عليه بما لا يحصى من النعم الجليلة مستحق لغاية التعظيم، وأن يظهر ذلك بلسانه وبسائر جوارحه.

وفي الآية إشارة: أي اعتقدوا أن النعم صادرة لكم من الله؛ وهو بذلك المعنى واجب، وإنكاره كُفْرٌ. أو المعنى راقبوا الله في كل لحظة أن كل نعمة من الله، وهو بهذا المعنى مندوب لأن هذا مقام الخواص ، وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاء الحق، ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام.

وقوله: { إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } كأنه قيل: واشكروا له لأنكم تخصونه في العبادة؛ وتخصيصكم إياه بالعبادة يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه؛ وهي لا تتم إلا بالشكر لأنه من أجلِّ العبادات ولذا جُعل نصف الإيمان. ولذا فإن كنتم عارفين بالله وبنعمه فاشكروه عليها. وورد في الحديث عن أبي الدرداء يقول الله تعالى: « إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري ».

ولك أن تقول: العبادة نفس الشكر، لأنه فعل ينبيء عن تعظيم المنعم لكونه منعماً، ويمكـــن أن يقال: قد تكون العبادة بدون الشكر بأن يعبد الله لاستحقاقه لها؛ لا لكونه منعماً على الشـــاكر. قلت: وهذا مقام العبودية لأن العبادة للعوام والعبودية للخواص والعبودة لخواص الخواص.

أقول:

والحكمة في تكرر الأكل لتكرر الطاعات، فلا بد لمن يأكل تكراراً أن يجاهد في العبادة تكـــراراً حتى يمتاز عن الحيوانات؛ فكما أن الطعام غذاء للجسد؛ فكذلك العبادات غذاء للروح؛ والأكل بلا طاعات يقوي الجسد ولا يقوي الروح؛ وهو مصيبة على المؤمن من جانب وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوى به على معصية الله فهو مصيبة في حقه، وإن كان يتقوى به على طاعة الله فهو طاعة.

وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان بعد تحريه عن الحـــلال، وزهده بما في أيدي الناس؛ فقد قال الإمام القشيري رضي الله عنه: إن الحلال ما لا تبعة عليـــه، والطيب الذي ليس لمخلوق فيه منّة، وإذا وجد العبد طعاماً يجتمع فيه الوصفان فهـــو الحـــلال الطيب. ولا بد للإنسان من أن يتفكر أن ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه. فإذاً لا بد للمؤمنين العقلاء أن يعلموا أهم مخاطبون بالتوجيهات الإلهية، وأن يتمسكوا بالأحكام القرآنية والسنة النبوية حتى يكونوا من المتقين قال تعالى: { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّـــهَ مَـــعَ الْمُـــتَّقِينَ } [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [المائدة: ٢٧] وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ٤]، فمرجع الأمر كله إلى التقوى. قال بعض الصالحين لبعض أشياخه: أوصـــــني فقــــال: أوصـــــيك بوصـــــية رب العـــــالمين للأولـــــين والآخـــــرين

قوله تعالى : {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـــبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّـــكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ وَإِن تَكْفُـــرُواْ فَإِنَّ للَّهِ مَا فِى السَّمَـــوَتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً } [النساء: ١٣١] .

نسأل الله التقوى والعمل الصالح آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـــنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّـــن رَّبِّكُـــمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يأُولِي الأَلْبَـــابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : ١٧٨-١٧٩] .

قبل الشروع في التفسير لا بد من ذكر سبب الترول؛ وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن سبب نزوله إزالة الأحكام التي كانت ثابتة قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليـــه وسلّم، لأن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل، وأخرى يوجبون الدِّية لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل واحد من

هذين الحكمين، أما في القتل فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم، وربما زادوا على ذلك؛ على ما يروى أن واحداً قتل إنساناً من الأشراف؛ فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول وقالوا: ماذا تريد؟ فقال: إحدى ثلاث قالوا: وما هي؟! قال إما تحيون ولدي، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعون إلي جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً، وأما الظلم في أمر الدِّية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم أوجب رعاية العدل وسوّى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية.

والثاني: أنها نزلت في واقعة قتل حمزة رضي الله عنه.

والثالث: قول السُّدي: أن قريظة والنضير كانوا مع تدينهم بالكتاب سلكوا طريقة العرب في التعدي.

فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى } أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان.

{ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى } أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قَتَلَ الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قَتَل العبدُ العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى مثلاً بمثل؛ ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني؛ فإنَّ أخذ غير الجاني ليس بالقصاص، بل هو ظلم واعتداء.

اتفقوا على أن القاتل:

١ ــ إذا لم يتب وأصرَّ على ترك التوبة، فإن القصاص مشروع في حقه عقوبة من الله تعالى.

٢ ــ وإذا كان تائباً فقد اتفقوا على أنه لا يجوز أن يكون عقوبة وذلك لأن الدلائل، دلت على أن التوبة مقبولة قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ } [الشورى: ٢٥] .

وإذا صارت التوبة مقبولة امتنع أن يبقى التائب مستحقاً للعقاب، ولأنه عليه الصلاة والسلام قال: « التوبة تمحو الحَوْبَة » فثبت أن شرع القصاص في حق التائب لا يمكن أن يكون عقوبة. ثم عند هذا اختلفوا؛ فقال أصحابنا: يفعل الله ما يشاء، ولا اعتراض عليه في شيء.

{ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ }أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء بأن تَرَك وليُّه القَوَد وأسقط القصاص راضياً بقبول الدِّية.

والعفو ضد العقوبة يقال عفوتَ عن فلان إذا صفحتَ عنه وأعرضتَ عن أن تعاقبه ومنه الحديث: « عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق ». قال الزجاج: { فَمَنْ عُفِىَ لَهُ } أي من ترك له القتل بالدِّية (١)، { مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ } أي من دم أخيه؛ وأراد بالأخ ولي المقتول وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام.

{ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ } أي فعلى العافي إتباع للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدِّية بلا عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداء للدِّية إلى العافي وليِّ المقتول بلا مطل ولا بخسٍ ،

وأيضاً { فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } أي فليتبع الولي القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً وأن الفاسق مؤمن ووجه ذلك من وجوه:

الأول: أن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمناً بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ } فسماه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه؛ وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدلّ على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمن.

الثاني: أنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم بقوله: { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } وأراد بالأخوة أخوة الإيمان، فلولا أن الإيمان باقٍ على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الثالث: أنه تعالى ندب إلى العفو عن القاتل والعفو لا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

قوله تعالى: { ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل؛ ونفع لأولياء القتيل، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة؛ فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ، وفي الآية وجوه:

أحدها: أن المراد بقوله { ذَلِكَ } أي الحكم بشرع القصاص والدية تخفيف في حقكم ، لأن العفو وأخذ الدية محرمان على أهل التوراة؛ والقصاص مكتوب عليهم البتة، والقصاص والدية محرمان على أهل الإنجيل؛ والعفو مكتوب عليهم، وهذه الأمة مخيرة بين القصاصِ والديةِ والعفوِ توسعةً عليهم وتيسيراً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ثانيها: أن قوله: { ذلك } راجع إلى قوله: { فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـــنٍ }.

قوله تعالى: { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبـــول الدية فله عذاب أليم في الآخرة. ومن حديث سمرة مرفوعاً: « لا أعافي أحداً قتل بعد أخذ الدية » أخرجه أبو داود.

وإن الله سبحانه وتعالى لما أوجب في الآية المتقدمة القصاص وكان القصاص من باب الإيـــلام توجه فيه سؤال وهو أن يقال: كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف؟، فلأجل دفع هـــذا السؤال ذكر عقيبه حكمة شرع القصاص فقال تعالى: { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياة؛ لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع عن القتل فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله؛ وبذلك تصان الـــدماء وتحفظ حياة الناس.

ثم المراد بالحياة:

١ــ إما دنيوية وهو الظاهر لأن في شَرْعِ القصاصِ والعلمِ به يُرَوَّعُ القاتل عن القتل فيكـــون سبب حياة نفسين في هذه النشأة ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل؛ والجماعة بالواحد؛ فتثور الفتنة بينهم؛ وتقوم حرب البسوس على ساق؛ فإذا اقتُصَّ من القاتل سلم الباقون؛ ويصير ذلك ســـبباً لحياتهم.

٢ ــ وأما الحياة الأخروية بناءً على أن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخذ بحق المقتـــول في الآخرة.

والمراد من قوله: { يأُولِي الأَلْبَابِ } يا ذوي العقول الخالصة عن شوب الهوى؛ وإنما خصهم بالنداء مع أن الخطاب السابق عام لأنهم أهل التأمل في حكمة القصاص، من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، وقيل للإشارة إلى أن الحكم مخصوص بالبالغين دون الصبيان.

والمراد من قوله: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه(١)، وفيه وجوه:

الأول: قول الحسن والأصم: أن المراد لعلكم تتقون نفس القتل بخوف القصاص.

الثاني: أن المراد هو التقوى من كل الوجوه؛ وليس في الآية تخصيص للتقوى فحمله على الكل أولى. ومعلوم أن الله تعالى إنما كتب على العباد الأمور الشاقة من القصاص وغيره لأجل أن يتقوا النار باجتناب المعاصي ويكفوا عنها؛ فإذا كان هذا هو المقصود الأصلي وجب حمل الكلام عليه. والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

واعلم أن الذنوب على ثلاثة أوجه:

الأول: فيما بين العبد وبين الله تعالى بارتكاب المنهيات، كالزنى واللواطة والغيبة والبهتان ما لم يبلغ إلى من بهته واغتابه، فإذا بلغه وجعله في حلٍ وتاب المذنب فنرجو أن الله يغفر له، وكذلك إذا زنى بامرأة ولها زوج فلم يجعله ذلك الرجل في حلٍ لا يغفر له، لأن خصمه الآدمي؛ فإذا تاب وجعله في حلٍ فإنه يغفر له ويكتفي بحل منه ولا يذكر الزنى بأن قال: كل حق لي عليك فقد جعلتك في حل منه ومن كل خصومة بيني وبينك وهذا صلح بالمعلوم على المجهول، وذلك جائز كرامة لهذه الأمة، لأن الأمم السالفة ما لم يذكر الذنب لا يغفر لهم.

الثاني: فيما بينه وبين أعمال الله، (أي الفروضات الإلهية) بترك المأمورات وهو أن يترك الصلاة والصوم والحج والزكاة فإن التوبة لا تكفيه ما لم يقضِ الصلاة وغيرها، لأن شرط التوبة، أن يؤدي ما ترك فإذا لم يؤَدِّ فكأنه لم يتب.

الثالث: فيما بينه وبين عباد الله، وهو أن يغصب أموالهم أو يضربهم أو يشتمهم أو يقتلهم فإن التوبة لا تكفيه إلا أن يرضى عنه خصمه؛ أو يجتهد في الأعمال الصالحة حتى يوفق الله بينهما يوم القيامة، فإنه إذا تاب العبد وكان عليه حقوق للعباد فعليه أن يردها إلى أربابها؛ وإن عجز عن إيصالها وأراد الله مغفرته يقول لخصمه يوم القيامة: « ارفع رأسك فيرفع فيرى قصوراً عالية فيقول: يا رب لمن هذه فيقول الله تعالى: أنت قادر عليها، فإن ثمنها عفوك عن أخيك، فيقول قد عفوت؛ فيقول الله تعالى: خذ بيد أخيك واذهبا إلى الجنة ». فعلى العاقل أن يقتل نفسه بالرياضات الشديدة؛ ويحيي قلبه بالحياة الطيبة الباقية اللهم وفقنا لمداواة هذه القلوب المرضى آمين.

فحق القصاص مشروع، والعفو خير، فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسَلَّم له، ومن نَـزَلَ عن ابتغاء حقه فمحسن، فالأول صاحب عبادة بل عبودية، والثاني صاحب فتوة بل حرية.

أقول:

جِرْمُ (جسم) الإنسان صغير، ولكن جُرمه كبير، والعقاب على قدر الجُرمِ لا على قدر الجِـرم، لذا صاحب الجِرم الصغير، إذا أنكر شرع الله عزّ وجل لا يليق له إلا نار جهنم، والعياذ بالله

تعالى، وما أكثر التهديد في القرآن لهذا الإنسان وهو في غفلته مستغرق، ولا يرجع إلى رشـــده { يا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }[الإنفطار: ٦].

ولو هددك إنسان أن تفعل شيئاً وهو قادر على إنفاذ تهديده، فهل تخالفه؟ لا. فكيف بعد تهديد الله ووعيده تتعدى حدود الله عزّ وجل؟ هذا لا يليق بإنسان عاقل، وهو يرى نعم الله عز وجـــل تتوالى عليه، علينا أن نستحي من الله عز وجل، الذي أعد الجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى. وكن على حذر من الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، والظالم يخسر آخرته كما يخسر دنياه، لأن من ظلم الآخرين وكان عنده شيء من الحسنات، فإن المظلوم يأخذها، وأما من ظلم نفسه بارتكاب المخالفات الشرعية فإنه يخسر دنياه وآخرته، وكذلك يعض أصابع الندم يوم القيامـــة، ولكـــن هيهات أن ينفعه الندم قال تعالى: { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يا وَيْلَتَا لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنَاً خَلِيلاً (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً } [الفرقان: ٢٩] .

فاتخذ أيها المؤمن الصادق سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلّم تسعد في الدارين وتكن من أهل العدل، وألا تكون ظالماً، لأن كل سبيل غير سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلّم ظلم وعدوان.

نسأل الله أن يجعلنا من المتمسكين بهديه صلى الله عليه وسلّم، ويمن علينا بتوبة صادقة، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: ١٨٣ ــ ١٨٤] .

قوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } هذا الخطاب منه تعالى جلّ وعلا فيه نداء { يا } وتنبيه { أيها } وشهادة { آمنوا } من الحبيب إلى الحبيب. وقال جعفر الصادق: لذة في النداء أزال بها تعب العبادة والعناء. يشير إلى أن المحب يبادر إلى امتثال أمر محبوبه حتى لو أمره بإلقاء نفسه في النار. فلقد ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكي فيهم جذوة الإيمان.

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } أي فرض عليكم صيام شهر رمضان { كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } أي كما فرض على الأمم قبلكم.

يعني أن هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم، ما أخلى الله أمة من إيجابها عليهم، لا يفرضها عليكم وحدكم. وفائدة هذا الكلام أن الصوم عبادة شاقة، والشيء الشاق إذا عمّ سهل تحمله.

والصوم في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومعناه لغة: الإمساك.

وكماله باجتناب المحظورات؛ وعدم الوقوع في المحرمات، لقوله عليه السلام: « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ».

قوله تعالى: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه(١) واعلم أنّ « لعل » فيه وجوه:

الأول: أنه سبحانه بيّن بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين، فمن أكثر الصوم هان عليه هذان وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومُهَوِّناً عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى؛ فيكون معنى الآية: فرضتُ عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي، وأعلمت أن هذا الكتاب هدىً لهم، ولما اختُصَّ الصوم بهذه الخاصية حسن منه تعالى أن يقول عند إيجابها { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } منها بذلك على وجه وجوبه لأن ما يمنع النفس عن المعاصي لا بد وأن يكون واجباً.

الثاني: والمعنى ينبغي لكم بالصوم أن يَقْوى رجاؤُكم في التقوى.

الثالث: لعلكم تتقون بصومكم وترككم للشهوات؛ فإن الشيء كلما كانت الرغبة فيه أكثر كان الاتقاء عنه أشق، والرغبة في المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة في سائر الأشياء، فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح، كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف.

الرابع: لعلكم تنتظمون بسبب هذه العبادة في زمرة المتقين لأن الصوم شعارهم والله أعلم.

والصائمون على أنواع:

أولاً: صوم عوام المؤمنين: فصيامهم الإمساك نهاراً مع النية عن المفطرات المعهودة التي هي مُعظم ما تشتهيه الأنفس.

ثانياً: صوم الخواص: فالإمساك عن المنهيات.

ثالثاً: صوم خواص الخواص، فالإمساك عما سوى الله تعالى.

والصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها (المعاصي) كما قال عليه الصلاة والسلام: « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » والباءة: النكاح والتزوج: وهو المباءة في المنزل. والوجاء: نوع من الإخصاء أي قاطع الشهوة.

قوله تعالى: { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ } أي والصيام أيامه قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم { فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } أي من كان به مرض أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف؛ إذا أفطروا عليهم

فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم { فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا } أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية { فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ } ثم قال تعالى: { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة.

أما قوله: { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي إن الصوم عليكم فاعلموا صدق قولنا { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ } .

الثاني: أن آخر الآية متعلق بأولها والتقدير كتب عليكم الصيام، { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي إنكم إذا تدبرتم علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للتقوى وغيرها مما ذكرناه في صدر هذه الآية.

الثالث: أن العالم بالله لا بد وأن يكون في قلبه خشية الله على ما قال تعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: ٢٨] فذكر العلم والمراد الخشية وصاحب الخشية يراعي الاحتياط، والاحتياط في فعل الصوم فكأنه قيل: إن كنتم تعلمون الله حتى تخشونه كان الصوم خيراً لكم.

ثم بين تعالى وقت الصيام فقال: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } فكان قوله تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ } و الشهر مأخوذ من الشهرة، والشهرة: ظهور الشيء وسمي الهلال شهراً لشهرته وبيانه، وسمي الشهر شهراً باسم الهلال.

ورمضان: ما نقل عن الخليل أنه من الرمْضاء بسكون الميم، وهو مطر يأتي قبل الخريف يطهر به وجه الأرض عن الغبار، والمعنى فيه أنه كما يغسل ذلك المطر وجه الأرض ويطهرهـــا، فكـــذلك شهر رمضان يغسل أبدان هذه الأمة من الذنوب ويطهر قلوبهم.

والمعنى في الآية أن الأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الـــذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } أي من حضر منكم الشهر فليصمه { وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر وكرر لئلا يُتَوهَّمَ نسخهُ بعموم لفظ شهود الشهر { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير. { وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } أي ولتكملوا عدة الشهر بقضاء ما أفطرتم.

{ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } أي ولتحمدوا الله على ما هداكم وأرشدكم إليه من معالم الدين. وأيضاً ولتكبروا الله عند انقضائه على ما هداكم إلى هذه الطاعة، والمراد منه التعظيم لله شكراً على ما وفق على هذه الطاعة، واعلم أن تمام هذا التكبير إنما يكـــون بـــالقول والاعتقاد والعمل.

أما القول: فالإقرار بصفاته العُلَى، وأسمائه الحسنى، وتتريهه عما لا يليق به من ندٍّ، وصـــاحبة، وولد، وشبه بالخلق. وكل ذلك لا يصح إلا بعد صحة الاعتقاد بالقلب.

وأما العمل: فالتعبد بالطاعات من الصلاة والصيام والحج. أقول: محلـــه اخـــتلاف المســـائل الاجتهادية فليرجع إلى الفقه.

قوله تعالى: { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } إن الله تعالى لما أمر بالتكبير وهو لا يتم إلا بأن يعلم العبـــد جلال الله ، وكبرياءه ، وعزته ، وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليـــه عقـــول العقـــلاء ، وأوصاف الواصفين ، وذكر الذاكرين ، ثم يعلم أنه سبحانه مع جلاله وعزته واستغنائه عن جميع المخلوقات، فضلاً عن هذا المسكين ، خصه الله بهذه الهداية العظيمة ؛ لا بد وأن يصير ذلك داعياً للعبد إلى الاشتغال بشكره والمواظبة على الثناء عليه بمقـــدار طاقتـــه وقدرتـــه فلهـــذا قـــال: { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }.

وفي الأشباه: الصوم في السفر أفضل إلا إذا خاف على نفسه أو كان له رفقة اشتركوا معـــه في الزاد واختاروا الفطر.

أو راكب سفر فيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر.

والإشارة في قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } أن الصوم كما يكون للظاهر يكون للباطن، وباطن الخطاب يشير إلى أن صوم القلب والروح والسر الذين آمنوا، شهودُ أنوارِ الحضور مع الله، فصوم القلب: صومه عن مشارب المعقولات، وصوم الروح: عـــن ملاحظـــة الروحانيات، وصوم السر: صونه عن شهود غير الله فمن أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق.

قوله: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } على كل عضو في الظاهر، وعلى كل صفة في الباطن، فصوم اللسان عن الكذب والفحش والغيبة، وصوم العين عن النظر في الغفلة والريبة، وصوم السمع عن استماع المناهي والملاهي، وعلى هذا قِس الباقي، وصوم النفس: عن التمني والحرص والشهوات، وصوم القلب: عن حب الدنيا وزخارفها، وصوم الروح: عن نعيم الآخرة ولذاتها، وصوم السر: عن رؤية وجود غير الله وإثباته.

{ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } هي إشارة إلى أن أجزاء وجود الإنسان من الجسمانية والروحانية قبل التركيب كانت صائمة عن المشارب كلها؛ فلما تعلق الروح بالقالب صارت أجزاء القالب مستدعية للحظوظ الحيوانية والروحانية بقوة إمداد الروح؛ وصار الروح بقوة حواس القالب متمتعاً من المشارب الروحانية والحيوانية فالآن كتب عليهم الصيام وهم مركبون كما كتب على الذين من قبلكم من المفردات. والأحكام الأخرى للصوم في كتب الفقه مفصلة فلتراجع.

والصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السر عن الملاحظات.

ويقال صوم العابدين شرطُه حتى يكمل صون اللسان عن الغيبة، وصون الطرف عن النظر بالريبة، كما في الخبر « من صام فليصم سمعه وبصره » إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك، معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه (رواه البخاري وأصحاب السنن).

أقول:

أيامك معدودة في الحياة الدنيا، وكل معدود له نهاية، فاغتنم فرصة حياتك بحسن الإقبال على الله، من خلال إتباعك للنبي صلى الله عليه وسلّم؛ انظر كيف كان صيامه صلى الله عليه وسلّم وحاول أن تتابعه في ذلك حتى تدخل في مقام الإحسان؛ عندها تكون عبادتك لربك عز وجل بين مقامي المراقبة والمشاهدة؛ ومن دخل في هذا المقام لا يعصي مولاه، فإن زلت قدمه فإنه لا يصر على المعصية بل يترع ويستغفر، وهذا لا يسقط من عناية الله عز وجل .

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا سير الواصلين، ببركة سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم. آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة: ٢٠٨ ــ ٢٠٩] .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافق أنه يسعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، أمر المسلمين بما يضاد ذلك، وهو الموافقة في الإسلام وفي شرائعه فقال : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً }(١) أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً، ولا تتركوا التستر والحدود...إلخ فالإسلام كل لا يتجزأ.

والسلم المذكور في الآية معناه الصلح وترك المحاربة والمنازعة، والتقدير { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً } أي كونوا موافقين ومجتمعين في نصرة الدين واحتمال البلوى فيه، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن يحملكم على طلب الدنيا والمنازعة مع الناس. وهو كقوله: {وَلاَ تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ } [آل عمران: ٢٠٠] . وقال تعالى: { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ } [آل عمران: ١٠٣] وقال عليه الصلاة والسلام: « المؤمن يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه » .

وهذه الوجوه في التأويل ذكرها جمهور المفسرين وعندي فيه وجوه أخر:

أحدها: أن قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } إشارة إلى المعرفة والتصديق بالقلب.

ثانيها: قوله تعالى: { ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً } إشارة إلى ترك الذنوب والمعاصي وذلك لأن المعصية مخالفة لله ولرسوله، فيصح أن يسمى تركها بالسلم. أو أن يكون المراد منه:

أولاً: كونوا منقادين لله في الإتيان بالطاعات، وترك المحظورات، وذلك لأن مذهبنا أن الإيمان باقٍ مع الاشتغال بالمعاصي وهذا تأويل ظاهر.

ثانياً: أن يكون المراد من السلم كون العبد راضياً ولم يضطرب قلبه على ما روي في الحديث: « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم » .

ثالثاً: أن يكون المراد ترك الانتقام كما في قوله تعالى: { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً } [الفرقان: ٧٢] وفي قوله تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعــراف: ١٩٩] فهذا هو الكلام في وجوه تأويلات هذه الآية.

وأما سبب نزول هذه الآية فقد أخرج غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلــت في عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلّم وآمنوا بشــرائعه، وشرائع سيدنا موسى عليه السلام فعظموا السبت، وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا، فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا إنا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلّم إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها، فأنزل الله هذه الآية. فالخطاب لمؤمني أهل الكتاب، وقيل الخطاب للمسلمين الخلص والمراد من { السِّلْمِ } شعب الإسلام { كَآفَّةً } حال منــه والمعــنى { ادْخُلُواْ } أيها المسلمون المؤمنون بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم { فِي } شعب الإيمان كلها ولا تُخِلُّو بشيء من أحكامه.

قوله تعالى: { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } أي لا تتبعوا طرق الشــيطان وإغواءه فإنه عدو لكم ظاهر العداوة.

أما من حيث إنه يحاول إيصال الضرر إلينا فهو كذلك؛ إلا أن الله تعالى منعه عن ذلك ولــيس يلزم من كونه مريداً لإيصال الضرر إلينا أن يكون قادراً عليها.

وأما من حيث إنه يقدم على الوسوسة فمعلوم أن تزيين المعاصي وإلقاء الشبهات كـــل ذلـــك سبب لوقوع الإنسان في الباطل، وبه يصير محروماً عن الثواب، فكان ذلك من أعظـــم جهـــات العداوة ، والمعنى أن عداوته بَـــيِّنَـــةٌ وظاهرة لمن نوّر الله بصيرته وأراد به خـــيراً قـــال تعـــالى: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } [الأعراف: ٢٠١].

قوله تعالى: { فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ }، { فَإِن زَلَلْتُمْ } أي إن انحـــرفتم عـــن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حـــق. وأيضـــاً إن انحرفتم عن الطريق الذي أمرتم به، وعلى هذا التقدير يدخل في هذا الكبائر والصـــغائر، فـــإن الانحراف كما يحصل بالكثير يحصل بالقليل فتوعد تعالى على كل ذلك زجراً لهم عن الزوال عن المنهاج لكي يتحرز المؤمن عن قليل ذلك وكثيره، لأن ما كان من جملة الكبائر فـــلا شـــك في وجوب الاحتراز عنه، وما لم يعلم كونه من الكبائر فإنه لا يؤمن كون العقاب مستحقاً به وحينئذ يجب الاحتراز عنه.

قوله: { مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ } يتناول جميع الدلائل العقلية والسمعية.

أما الدلائل العقلية فهي الدلائل على الأمور التي لا تثبت صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم إلا بعد ثبوتها؛ نحو العلم بحدوث العالم وافتقاره إلى صانع يكون عالماً بالمعلومات كلـــها، قادراً على الممكنات كلها، غنياً عن الحاجات كلها، ومثل العلم بالفرق بين المعجزة والســـحر، والعلم بدلالة المعجزة على الصدق فكل ذلك من البينات العقلية. وأما البينات السمعية فهـــي البيان الحاصل بالقرآن، والبيان الحاصل بالسنة، فكل هذه البينات داخلة في الآية من حيـــث إن عذر المكلف لا يزول عند حصول كل هذه البينات منه .

{ فَإِن زَلَلْتُمْ } أي تنحيتم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القَدم ثم يستعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك.

وفي الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به ؛ ومن لم تبلغـه دعـوة الإسلام لا يكون كافراً بترك الشرائع. وحكى النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كـان يـتعلم القرآن، فأقرأه الذي كان يعلمه فاعلموا أن الله غفور رحيم فقال كعب إني لأستنكر أن يكـون هذا، ومر بهما رجل فقال كعب: كيف تقرأ هذه الآية؟ فقال الرجل: { فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ } فقال كعب هكذا ينبغي. أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه، حكيم في خلقه وصنعه. وقد ثبت أنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات فكان عزيزاً على الإطلاق. فصار تقدير الآية فاعلموا أن الله مقتدر عليكم لا يمنعه مانع عنكم، فلا يفوته ما يريده مـنكم، وهذا نهاية في الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر العقاب.

{ حَكِيمٌ } فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكـيم إيصـال العذاب إلى المسيء، فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة.

وفي الآية إشارة: كُلِّفَ المؤمنُ بأن يسالم كل أحد إلا نفسَه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده، فإن من سالم نفسه فتر عن مجاهداته وذلك سببُ انقطاعِ كل قاصد، وموجبُ فترةِ كل مريد، ومـن عُرِف بالخيانة لا يعتمد عليه في الأمانة.

أقول:

أمرنا الله جل وعلا بالدخول في الإسلام في جميع أحكامه كافة صغيرها وكبيرها، وأولها الإيمـــان بأركانه الستة، وكذلك الشهادة، والصلاة والزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام ولكن هذه الأمور كلها بدون الإيمان لا يكون المؤمن مؤمناً ولا يكون المسلم متصفاً بالإسلام ما لم يَبْنِ أركان الإسلام على الإيمان.

وعلى هذا في آية أخرى أمرنا الله { وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } علينا معاشـــر المســـلمين أن نتمسك بالأخلاق التي أمر الله بها عباده في القرآن الكريم، وهي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ ما دمنا تمسكنا بأخلاق القرآن؛ كما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلقه صلى الله عليه وسلّم فقالت خُلقه القرآن، وعلى كُلٍّ رأس كل الأخلاق الحسنة التقوى والصدق، لأن الله تعالى أوصى رسوله ليبلغ المؤمنين { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّـــادِقِينَ } الصدق كمال الإخلاص؛ والإخلاص ثمرة النية الصالحة، ورتب رضاه جل وعلا على الصـــدق فقال في آية أخرى { هَـــذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } ولم يكتفِ بالجنة فقال جـــل وعـــلا: { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ } ما دام أمرنا بالمعية مع الصادقين أولاً، لا بد أن نكـــون مـــن الصادقين، وإن لم نقدر على الصدق لضعفنا من طبيعة البشرية؛ علينا أن نكون مـــع الصـــادقين لنكتسب الصدق منهم.

نسأل الله جلَّ وعلا الصدق والتقوى والأخلاق الحسنة من فضله ورحمته، والصادقون لم ولـــن ينتفوا من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم في أي مكان وفي أي زمان إلى قيام الساعة، علينا ألا نخدع بالهواجس النفسية والنزغات الشيطانية؛ أن تقول لا يوجد في هذا العصر، وحـــديث

رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى قيام الساعة » هذا شاهد على عدم نفي وجود الصادقين، نسأل الله أن يحشرنا معهم آمين. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة: ٢٥٤]

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم } أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات.

قوله: { مِمَّا رَزَقْنَاكُم } قال ابن جريج وسعيد بن جبير: هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع. قال ابن عطية: وهذا صحيح ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك في آخر الآية قوله: { وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } أي: فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال (أي

لاقوهم مواجهة ويقال: كافح القوم أعداءهم: استقبلوهم في الحرب بوجوههم ليس دونها تـــرس ولا غيره) .

وعلى هذا التأويل يكون إنفاق الأموال مرة واجباً، ومرة ندباً بحسب تعيين الجهاد وعدم تعيينه. وأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم الله؛ وأنعم به عليهم؛ وحذرهم من الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك نفقة، كما قال: { فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلآ أَخَّرْتَنِي إِلَـى أَجَـلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ }. فكأنه قيل: حصّلوا منافع الآخرة حين تكونون في الدنيا؛ فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة.

والمعتزلة احتجوا على أن الرزق لا يكون إلا حلالاً بقوله: { أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم } فنقول: الله تعالى أمر بالإنفاق من كل ما كان رزقاً بالإجماع، أما ما كان حراماً فإنه لا يجوز إنفاقه، وهذا يفيد القطع بأن الرزق لا يكون حراماً، والأصحاب قالوا: ظاهر الآية وإن كان يدل على الأمر بإنفاق كل ما كان رزقاً إلا أنَّا نخصص هذا الأمر بإنفاق كل ما كان رزقاً حلالاً.

قوله:{ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ } أي من قبل مجيء ذلـك اليـوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه؛ فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين.

{ لاَّ بَيْعٌ } والمعنى قدموا لأنفسكم من المال الذي هو في ملككم قبل أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه تجارة، ولا مبايعة حتى يُكتسب شيء من المال { وَلاَ خُلَّةٌ } المراد: المودة ونظيره قوله تعالى : { الأَخِـلاَءُ يَوْمَئِـذٍ بَعْضُـهُمْ لِـبَعْضٍ عَـدُوٌّ إِلاَّ الْمُـتَّقِينَ } [الزخـرف: ٦٧]

وقوله تعالى: { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ } [البقرة: ١٦٦] وقال: { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [العنكبوت: ٢٥] وقال حكاية عن الكفار: { فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ } [الشعراء: ١٠١]، وقال: { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [آل عمران: ١٩٢]، قوله تعالى: { وَلاَ شَفَاعَةٌ } نفي الشفاعات.

واعلم أن السبب في عدم الخلة والشفاعة يوم القيامة أمور:

أولها: أن كل أحد يكون مشغولاً بنفسه { لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس: ٣٧] .

ثانيها: أن الخوف الشديد غالب على كل أحد { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ } [الحج: ٢٠].

ثالثها: إذا نزل العذاب بسبب الكفر والفسق، صار مبغضاً لهذين الأمرين، وإذا صار مبغضاً لهما صار مبغضاً لمن كان موصوفاً بهما.

والخلة: خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين فأخبر الله تعالى ألاَّ خلة في الآخرة، ولا شفاعة إلا بإذن الله، وحقيقتها رحمة منه، شرّف بها الذي أذن له في أن يشفع.

فالخطاب: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا أنتم مما رزقناكم في طاعتي، إذا كان أهل الكفر بي ينفقون في معصيتي، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه، فيدرك أهل الكفر فيه ابتياع ما فرطوا في ابتياعه في دنياهم، ولا خلة لهم يومئذ تنصرهم مني، ولا شافع لهم يشفع عندي فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي. أي لاأحد إلا من بعد أن يأذن الرحمن لمن يشاء ويرضى، وأراد بذلك الإشارة إلى أنه لا قدرة لأحد فيه على تحصيل ما ينتفع به بوجه من الوجوه؛ لأن من في ذمته حق مثلاً، إما أن يأخذ

بالبيع ما يؤديه به؛ وإما أن يعينه أصدقاؤه، وإما أن يلتجىء إلى من يشفع له في حَطِّه والكلُّ منتفٍ؛ ولا مستعان إلا بالله.

{ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب. وروي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال : { وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ولم يقل: والظالمون هم الكافرون ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله.

تنبيه: يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون؛ وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج { وَمَن كَفَرَ } مكان ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } .

قال الراغب: حث المؤمنين على الإنفاق مما رزقهم من النعماء النفسية والبدنية الجارحية، وإن كان الظاهر في التعارف إنفاق المال، ولكن قد يراد به بذل النفس والبدن في مجاهدة العدو والهوى وسائر العبادات ولما كانت الدنيا دار اكتساب وابتلاء، والآخرة دار ثواب وجزاء، بيّن أن لا سبيل للإنسان إلى تحصيل ما ينتفع به في الآخرة؛ فابتلي بذكر هذه الثلاثة لأنها أسباب اجتلاب المنافع المفضية إليها.

أولها: المعاوضة وأعظمها المبايعة.

ثانيها: ما تناوله بالمودة وهو المسمى بالصلات والهدايا.

ثالثها: ما يصل إليه بمعاونة الغير وذلك هو الشفاعة.

والمعنى في الآية اغتنموا مساعدة الإمكان في تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَدِ وانقضاء الأمل.

أقول:

ستة تمنع عذاب الله والوعيد للمؤمنين:

١ ــ التوبة. ٢ ــ الاستغفار. ٣ ــ الأعمال الحسنة الماحية للسيئات.

٤ ــ الصبر على المصائب الدنيوية. ٥ ــ شفاعة الشفيع المطاع.

٦ ــ رحمة أرحم الراحمين، وإذا كانت هذه الأسباب تمنع العذاب والموجب للوعيد نرجو الله جلَّ وعلا أن نكون من التوابين والمستغفرين والصابرين، والذين يُتْبِعون السيئات الحسنات، ونطلب منه برحمته أن يُشفِّع فينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم الأكرم ويرحمنا، وهو أرحم الراحمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأْذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآْخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٢٦٤].

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَـتِكُم بِالْمَنِّ وَالأْذَى } أي لا تحبطوا أجرها بالمن والأذى.

{ بِالْمَنِّ } المن: هو أن يعتدّ على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقاً، أي لا يمنون عليهم بما تصدقوا بأن يقول المتصدق المانّ اصطنعتك كذا خيراً، وأحسنت إليك كثيراً.

{ وَالأْذَى } وهو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه؛ أي لا يؤذيه بأن يقول المتصدق المؤذي: إني قد أعطيتك فما شكرت، أو إلى كم تأتيني وتؤذيني أو كم تسأل، ألا تستحي؟ فإن من فعل ذلك لا أجر له في صدقته وعليه وزر منّه على الفقير، ووزر إيذائه ، والمراد بإبطال الصدقة: إحباط أجرها؛ لأن الصدقة لما وقعت وتقدمت، لم يمكن أن يراد بإبطالها نفسها، بل المراد إحباط أجرها وثوابها؛ لأن الأجر لم يحصل بعد، فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى.

{ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ } أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء. فالمراد المنـــافق؛ لأن الكافر معلن كفره غير مراء، أي لا تبطلوها إبطالاً كإبطال المنافق أي الذي { يُنفِقُ مَالَهُ رِئَـــآءَ النَّاسِ } أي لأجل ريائهم يعني ليقال إنه كريم.

{ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاْخِرِ } أي لا يصدق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً. فهـــو لا يريد بإنفاقه رضى الله ولا ثواب الآخرة فهو المرائي، والمرائي في الإنفاق يراعي أن يراه النـــاس فيحمدوه.

وعبّر تعالى عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال والمراد الصدقة التي يمن بهـــا ويـــؤذي لا غيرها، والعقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا تحبطها فالمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقةً غَيْرها.

قال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله مِنْ صاحبها أنه يمن أو يؤذي بها فإنها لا تقبل، وقيل: بل قد جعل الله للمَلَكِ عليها أمارة فهو لا يكتبها، وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل: فعلتُ إليك وفعلت! فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصي.

وروي أنه صلى الله عليه وسلّم قال: « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشـــكر ويمحـــق الأجر ثم تلا: { لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَـــتِكُم بِالْمَنِّ وَالاْذَى } ».

{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ} أي مَثَلُ المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب، يظنه الظانّ أرضاً طيبة منبتة { فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا } فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب، فيبقى صلداً أملسَ

ليس عليه شيء من الغبار أصلاً، كذلك هذا المنافق عملياً يظن أن له أعمالاً صالحة، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت. فالمن والأذى والرياء تكشف عن النية في الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان.

{ لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ } أي لا يجدون له ثواباً فلا ينتفع بشيء منها. { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد. أي لا ينتفعون بما فعلوا رئاء، ولا يجدون له ثواباً قطعاً كقوله تعالى: { فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } ولما ذكر تعالى بطلان أمر الصدقة بالمن والأذى ذكر لكيفية إبطال أجرها بهما مَثَلَيْن فمثله:

أولاً: بمن ينفق ماله رئاء الناس؛ وهو مع ذلك كافر بالله واليوم الآخر، فإن بطلان أجر ما أنفقه هذا الكافر أظهر من بطلان أجر من يتبعها بالمن والأذى.

ثانياً: الصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار؛ ثم أصابه المطر فأزال ذلك الغبار عنه حتى صار كأنه ما كان عليه تراب وغبار أصلاً.

فالكافر كالصفوان، والتراب مثل ذلك الإنفاق، والوابل كالكفر الذي يحبط عمل الكافر، وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق، فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان، فكذا المن والأذى يجب أن يكونا مبطلين لأجر الإنفاق بعد حصوله، وذلك صريح في القول بالإحباط والتكفير.

وبيانه: أن المن والأذى يخرجانه من أن يترتب عليه الأجر الموعود، لأن العمل إنما يؤدي إلى الأجر الموعود إذا أتى به العامل تعبداً وطاعةً وابتغاءً لما عند الله من الأجر وَالرضوان وعملاً بقوله تعالى: { وَمَا تُقَدِّمُواْ لاَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً }، وبقوله: { إِنَّ اللَّـهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الّجَنَّةَ } فمن كان حامله على العمل ابتغاء ما عند الله مما وعده للمخلصين، فقد جرى على سنن المبادلة التي وقعت بين العمل والثواب الذي وعده الله تعالى لمن أخلص عمله لله تعالى، فلما كانت معاملته في الحقيقة مع الله تعالى، لم يبق وجـه لأن يمن على الفقير الذي تصدق عليه، ولا لأن يؤذيه، بأن يقول له مثلاً خذه بارك الله لك فيه، ومن منّ عليه أو آذاه فقد أعرض عن جهة المبادلة مع الله، ومال إلى جهة التبرع على الفقير من غـير ابتغاء وجه الله، وأتى بعمله من الابتداء على نعت البطلان، فيكون محروماً من البدل الذي وعده الله لمن أقرض الله قرضاً حسناً، إذ لم يقع عمله على وجه الإقراض، وفيه تعريض بأن كـلاً مـن الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها، روي عن بعض العلماء أنه قال: مثل من يعمل الطاعة الرياء والسمعة؛ كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصـى، فيقول الناس: ما أملأ كيس هذا الرجل؟! ولا منفعة له سوى مقالة الناس، فلو أراد أن يشتري به شيئاً لا يُعطَى به شيئاً.

قال النبي صلى الله عليه وسلّم: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: « الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذي كنتم تراؤون لهم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » وقال صلى الله عليه وسلّم: « إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة يترل (يتجلى) إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية فأول ما يدعى به رجل

جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي، قال: بلى يا ربِّ، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار، فيقول تعالى: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان قارىء فقد قيل... ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله تعالى له: ألم أُوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، فقال: فماذا عملت فيما آتيتك من المال؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك... ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول له: فيماذا قتلت؟ فيقول: يا رب أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة ».

والإشارة في الآية أن المعاملات إذا كانت مشوبة بالأغراض ففيها نوع من الإعراض، ومن أعرض عن الحق فقد أقبل على الباطل، ومن أقبل على الباطل فقد أبطل حقوقه في الأعمال، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وقد نهينا عن إبطال أعمال البر بالإعراض عن طلب الحق، والإقبال على الباطل بقوله تعالى: { لاَ تُبْطِلُواْ صَدَاَقَـتِكُم } . ثم ضرب الله تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال: { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَلَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَأَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

أما قوله: { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَلَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ } أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصـــديقاً بلقائه تحقيقاً للثواب.

{ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } أي جعل بعض أنفسهم ثابتاً على الإيمان والطاعة ليزول عنـــها رذيلـــة البخل وحب المال وإمساكه والامتناع عن إنفاقه، فإن النفس وإن تكن مجبولة على حب المـــال واستثقال الطاعات البدنية إلا أنها ما عوّدتها تتعود، قال صاحب البردة:

والنفس كالطفلِ إنْ تُهملـــهُ شـــبَّ علـــى   حُـــبِّ الرَضـــاعِ وإنْ تَـــــفطمهُ يَـــنْفطمِ

فمتى أهملتها فقد تمرنت، واعتادت الكسل والبطالة والبخل وإمساك المال عن صرفه إلى وجوه الطاعات ومقتضيات الإيمان، وحيث كلَّفْتَها وحَمَلْتها على مشاق العبادات البدنية والمالية تنقاد لك، وتتزكى عن عاداتها الجِبلِّيَّـــة.

{ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } أي: كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض، وخصت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها. قال الفراء: إذا كان في البستان نخل فهو جنة، وإن كان فيه كرم فهو فردوس.

{ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَأَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } أي: فأعطت ثمرتها مثلين، قيل: إنها حملت في سنة من الريع ما يحمله غيرها في سنتين، وقيل: أضعفت فحملت في السنة مرتين. أي: أصـــابها مطـــر غزيـــر فأخرجت ثمارها جنية مضاعفة ضعفي ثمر غيرها من الأرض.

{ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } أي: فإن لم يترل عليها المطر الغزير فيكفيها المطــر الخفيــف، أو يكفيها الندى لجودتها، وكرم منبتها، ولطافة هوائها، فهي تنتج على كل حال. وهذا مثل يضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص في إنفاقه وسائر أعماله، يقول تعالى: كما أن هذه الجنة تريع وتزكو في كل حال ولا تخلف، سواء كان المطر قليلاً أو كثيراً فكذلك يضعّف الله صدقة المؤمن المخلص في صدقته وإنفاقه، الذي لا يمن ولا يؤذي سواء قلّت نفقته أو كثرت.

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد. يرى أعمالكم على إكثار وإقلال، ويعلم نياتكم فيهما من رياء وإخلاص.

اعلم أن الله تعالى لما ذكر مثل المنفق الذي يكون مانًّا ومؤذياً، ذكر مثل المنفق الذي لا يكــون كذلك، وهو هذه الآية وبين فيها تعالى أن غرض هؤلاء المنفقين من هذا الإنفاق أمران: أحــدهما طلب مرضاة الله تعالى، والغرض الثاني هو تثبيت النفس، وفيه وجوه:

أحدها: أنهم يوطِّنون أنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها، ومن جملة ذلك تــرك إتباعها من المن والأذى وهذا قول القاضي.

وثانيها: ويعضده قراءة مجاهد { وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } عند المؤمنين أنها صادقة في الإيمان مخلصة فيه.

وثالثها: أن النفس لا ثَبات لها في موقف العبودية إلا إذا صارت مقهورة بالمجاهدة؛ ومعشــوقها أمران: الحياة العاجلة والمال.

فإذا كلفت بإنفاق المال فقد صارت مقهورة من بعض الوجوه، وإذا كلفت ببذل الروح فقد صارت مقهورة من بعض الوجوه، فلا جرم حصل بعض التثبيت، فلهذا دخل فيه { من } التي هي للتبعيض. { وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } والمعنى أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثَبَّتَ بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها، وهو المراد من قوله: { وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ } [الصف: ١١] ، وهذا الوجه ذكره صاحب الكشاف وهو كلام حسن وتفسير لطيف.

ورابعها: وهو الذي خطر ببالي وقت كتابة هذا الموضع أن ثبات القلب لا يحصل إلا بذكر الله على ما قال تعالى: { أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: ٢٨] فمن أنفق ماله في سبيل الله لم يحصل له اطمئنان القلب في مقام التجلي، إلا إذا كان إنفاقه لمحض غرض العبودية.

ولهذا السبب حكي عن علي رضي الله عنه أنه قال في إنفاقه: { إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً }[الإنسان: ٩] وَوَصَف إنفاق أبي بكر رضي الله عنه فقال تعالى: { وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ٢١] فإذا كان إنفاق العبد لأجل عبودية الحق لا لأجل غرض النفس وطلب الحظ؛ فهناك اطمأن قلبه، واستقرت نفسه؛ ولم يحصل لنفسه منازعة مع قلبه.

أقول: لأن بين النفس والقلب مصادمة ومحاربة عند من فهم من الله وفهم عداوة النفس لصاحبها ولهذا قال أولاً في هذا الإنفاق إنه لطلب مرضاة الله ثم أتبع ذلك بقوله: { وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ }

وخامسها: أنه ثبت في العلوم العقلية، أن تكرير الأفعال سبب لحصول الملكات (أقول: هذا أمر مستقر عند من صاحب أهل الله من المحققين) إذا عرفت هذا فنقول: إنه من يواظب على الإنفاق مرة بعد أخرى لابتغاء مرضاة الله حصل له من تلك المواظبة أمران:

أحدهما: حصول هذا المعنى، والثاني: صيرورة هذا الابتغاء والطلب ملكة مستقرة في الـــنفس، حتى يصير القلب بحيث لو صدر عنه فعل على سبيل الغفلة والاتفاق ــ مع الغفلة ــ رجع القلب في الحال إلى جناب القدس، وذلك بسبب أن تلك العبادة صارت كالعادة والخُلُق للروح، فإتيان العبد بالطاعة لله ولابتغاء مرضاة الله، يفيد هذه الملكة المستقرة، التي وقع التعبير عنها في القرآن بتثبيت النفس، وهو المراد بقوله تعالى: { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ } وعند حصول هذا التثبيـــت تصير الروح في هذا العالم من جوهر الملائكة الروحانية، والجواهر القدسية، فصار العبد كما قاله بعض المحققين غائباً حاضراً ظاعناً مقيماً.

وسادسها: قال الزجَّاج: المراد من التثبيت أنهم ينفقونها جازمين بأن الله تعالى لا يضيع عملهم، ولا يخيب رجاءهم، لأنه مقرون بالثواب والعقاب والنشور بخلاف المنافق.

وسابعها: قال الحسن ومجاهد وعطاء: المراد أن المنفق يتثبت في إعطاء الصدقة؛ فيضعها في أهـــل الصلاح والعفاف، قال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة تَثبَّت، فإذا كان لله أعطى، وإن خالطه أمسك.

{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـــرُ لَهُ فِيهَا مِن كُـــلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَـــتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } .

ففي قوله: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } أي: أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } أي: تمر الأنهار من تحت أشجارها { لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ } أي: أصابته الشيخوخة فضعف عن الكســـب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب { فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـــهُ لَكُمُ الآيَـــتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } أي: أصابت تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها.

{ فَاحْتَرَقَتْ } فصارت نعمها إلى الذهاب، وأصلها إلى الخراب، فبقي الرجل متحيراً لا يجد ما يعود به عليها، ولا قوة له أن يغرس مثلها، ولا خير في ذريته من الإعانة لكونهم ضعفاء عاجزين عن أن يعينوه، وهذا كما ترى تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة، ويضم إليها ما يحبطها كرياءٍ وإيذاءٍ في الحسرة والندامة، إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها ووجدها محبطة بحال مـــن هذا شأنه؛ وأشبههم به من جال بسره في عالم الملكوت وترقى بفكره إلى جنـــات الجـــبروت، ثم نكص على عقبيه في عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق، وجعل سعيه هباءً منثوراً.

{ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَـــتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } أي: مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم، يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم، ولكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها مـــن العـــبر والعظات.

فلا بد من إخلاص الأعمال فإن الثمرات تبنى على الأصل. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال حين بُعِثَ إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: « أخلص دينك يَكْفِك العمل القليل ».

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لأصحاب الـــنبي صلى الله عليه وسلّم: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيـــلٍ وَأَعْنَابٍ }، قالوا: الله أعلم، فغضب عمر رضي الله عنه فقال:

قولوا نعلم، أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المـــؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقِّر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر رضي الله عنه: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله لـــه الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله، وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات، عياذاً بالله من ذلك.

هذه آياتٌ كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق لمن أنفق في ســـبيل الله، ولمن أنفق ماله في الباطل، فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف، وهؤلاء لا يحصل لهم في الحال إلا الرد وفي المآل إلا التلف.

وهؤلاء ظل سعيهم مشكوراً، وهؤلاء يدعون ثبوراً؛ ويصلون سعيراً، وهؤلاء تزكو أعمـــالهم، وتنمو أموالهم؛ وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم، وهؤلاء حبطت أعمالهم؛ وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم، ويضاعف عليهم وبالهم، ويقال: مثل هؤلاء كالذي أنبت زرعـــاً فزكا أصله، ونما فصله، وعلا فرعه، وكثر نفعه. ومثل هؤلاء كالذي خسرت صفقته، وســـرقت بضاعته، وضاعت ـــ على كبره ـــ حيلته، وتوافرت من كل وجه وفي كل وقت محنتـــه، هـــل يستويان مثلاً؟! وهل يتقاربان شبهاً؟!.

أقول:

لا بد أن تَقْطَعَ أصولَ عرقِ الرياء بالكلية وأصوله ثلاثة أمور:

أولاً: حب الدنيا والتعلق بشهواتها الظاهرة والباطنة.

ثانياً: اللذة العاجلة وترجيحها على الآخرة.

ثالثاً: الالتفات إلى الخلق في مدحهم أو ذمهم.

فَرَضَاً لو سجدت الكائنات لمخلوق، ومدحوه، فلا بد للساجد والمسجود لـــه مـــن المـــوت، والرجوع إلى الله عز وجل، فلا بد أن نتعظ بموعظة الله عز وجل ونتفكر، اللهم وفِّقنا لـــذلك. آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلـــي العظـــيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } [البقرة: ٢٦٧ ــ ٢٦٩]

الحمد لله الذي أمر المؤمنين بالإنفاق، ليزكي به نفوسهم عن سفساف الأخلاق، وهدى العارفين إلى بذل المال والأرواح ليفتح لهم أبواب الفتوح.

قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ } أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه؛ يعني من الجيد لا من الرديء { وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ } أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار.

{ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ } أي: ولا تقصدوا الردىء الخسيس فتتصدقوا منه. ذكر بعض الأفاضل أنه إنما فسر الطيب بالجيد دون الحلال، لأن الحلَّ استفيد من الأمر فإن الإنفاق من الحرام لا يؤمر به، والمعنى أنفقوا مما يستطاب من أكسابكم.

{ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ } أي لستم تقبلونه لو أُعطيتموه إلا إذا تساهلتم، وأغمضتم عيونكم، فكيف تؤدون منه حق الله لقوله تعالى: { لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ }.

واختلف العلماء في المراد بالإنفاق هنا، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبيدة السلماني، وابن سيرين: هي الزكاة المفروضة؛ نهى الناس عن إنفاق الرديء منها بدل الجيد. قال ابن عطية: والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية في التطوع ندبوا إلى ألاَّ يتطوعوا إلا بمختار جيد والآية تعم الوجهين.

روى البراء أن رجلاً علّق قِنْوَ (عنقود النّخلة) حشفٍ (التمر يجف قبل النضج فيكون رديئاً) فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: « بئسما علّق » فنزلت الآية. والأمر على هذا القول على الندب.

قال سهل بن عبد الله: وسئل ابن المبارك عن الرجل يريد أن يكتسب؛ وينوي باكتسابه أن يصل الرحم؛ وأن يجاهد ويعمل الخيرات، ويدخل في آفات (المشقة) الكسب لهذا الشأن. قال: إن كان معه قوام من العيش بمقدار ما يكف نفسه عن الناس فترك هذا أفضل، لأنه إذا طلب حلالاً وأنفق في حلال، سئل عنه وعن كسبه وعن إنفاقه وترك ذلك زهد فإن الزهد في ترك الحلال.

قال ابن خُوَيزِ منداد: ولهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسب ولده، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « أولادكم من طيّب أكسابكم فكلوا من أموال أولادكم هنيئاً ».

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } أي سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء. وهنا نبه سبحانه وتعالى على صفة الغني، أي لا حاجة به إلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليفعل ذلك بما له قدرٌ وبالٌ فإنما يقدم لنفسه، وحَميدٌ معناه محمود في كلّ حال.

واعلموا أيها الناس، أن الله عز وجل غني عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم، ليغنى بها عائلكم، ويقوى بها ضعيفكم؛ ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم.

{ حَمِيدٌ }: محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله.

{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ } أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم؛ ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة.

{ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً } أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرة للذنوب، وخلفاً لما أنفقتموه زائداً على الأصل.

{ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ } أي واسع الفضل والعطاء، عليم بمن يستحق الثناء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: في هذه الآية اثنتان من الله واثنتان من الشيطان، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إن للشيطان لّمة بابن آدم، وللملك لّمة؛ فأما لّمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لّمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ قوله تعالى : { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ } ». قال هذا حديث حسن صحيح.

{ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً } المغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل هو الرزق والنعيم في الآخرة؛ وبكلٍ قد وعد الله تعالى. ذكر النقّاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية في أن الفقر أفضل من الغنى لأن الشيطان إنما يبعد العبد عن الخير وهو بتخويفه الفقر يبعد منه.

اعلم أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه، حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان فقال: { الشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } أي إن أنفقت الأجود صرت فقيراً فلا تبال بقوله فإن الرحمن { يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً }.

اختلفوا في الشيطان فقيل: إبليس وقيل: سائر الشياطين وقيل شياطين الإنس والجن، وقيل: النفس الأمارة بالسوء، أقول: وهو أوفق بالصواب لأن الشيطان يتقوى من أوصاف النفس.

أما الكلام في حقيقة الوسوسة فقد نبه الله تعالى في هذه الآية على لطيفة، وهي أن الشيطان يخوفه أولاً بالفقر، ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، ويُغْرِيه بالبخل التي هي صفة النفس، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد، فالشيطان لا يمكنه تحسين البخل في عينه إلا بتقديم تلك المقدمة، وهي التخويف من الفقر، وأما في تفسير { بِالْفَحْشَآءِ } وهو أنه يقول لا تنفق الجيد من مالك في طاعة الله لئلا تصير فقيراً، فإذا أطاع الرجل الشيطان في ذلك زاد الشيطان فيمنعه من الإنفاق في الكلية حتى لا يعطي لا الجيد ولا الرديء، وحتى يمنع الحقوق الواجبة فلا يؤدي الزكاة، ولا يصل الرحم، ولا يرد الوديعة، فإذا صار هكذا سقط وَقْعُ الذنوب عن قلبه؛ ويصير غير مبال بارتكابها، وهناك يتسع الخرق، ويصير مقداماً على كلّ الذنوب، وذلك هو الفحشاء. أي ويغريكم على البخل إغراء الآمر للمأمور.

وتحقيقه: أن لكل خلق طرفين ووسطاً، فالطرف الكامل: هو أن يكون بحيث يبذل كل ما يملكه في سبيل الله الجيد والرديء، والطرف الفاحش الناقص: لا ينفق شيئاً في سبيل الله لا الجيد ولا الرديء.

والأمر المتوسط: أن يبخل بالجيد وينفق الرديء، فالشيطان إذا أراد نقله من الطرف الفاضل إلى الطرف الفاحش، لا يمكنه إلا بأن يجره إلى الوسط، فإن عصى الإنسان الشيطان في هذا المقام انقطع طمعه عنه، وإن أطاعه فيه طمع في أن يجره من الوسط إلى الطرف الفاحش فالوسط قوله تعالى: { يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } والطرف الفاحش قوله: { وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ } ثم لما ذكر سبحانه وتعالى درجات وسوسة الشيطان؛ أردفها بذكر إلهامات الرحمن فقال: { وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً } فالمغفرة: إشارة إلى منافع الآخرة. والفضل: إشارة إلى ما يحصل في الدنيا من الخلف، وروي عنه صلى الله عليه وسلّم: « أن الملك ينادي كل ليلة، اللهم أعط كل منفقٍ خلفاً وكل ممسك تلفاً ».

أقول: الملائكة يستغفرون لمن في الأرض ويدعون لهم، ولا يدعون عليهم، فهنا يدعون لهم بالتلف أي بالإنفاق لا بإتلاف المال.

وفي هذه الآية لطيفة: وهي أن الشيطان يعدك الفقر في غد دنياك، والرحمن يعدك المغفرة في غد عقباك، ووعد الرحمن في غد العقبى أولى بالقبول.

قوله: { يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا } أي يؤتي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من يشاء من عباده وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً :

«رأس الحكمة مخافة الله» ،{ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير، لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية.

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل، نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس، من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم، ولا شك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل، وحكم الحس والشهوة والنفس يوقع الإنسان في البلاء والمحنة، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المراد إما العلم وإما فعل الصواب، يروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: مواعظ القرآن كقوله: { وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ } [البقرة: ٢٣١]، وقوله: { وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [النساء: ١١٣] ومثلها في آل عمران.

ثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [مريم: ١٢]، { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ } [لقمان: ١٢] .

ثالثها: النبوة قوله: { أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَـهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ } [الأنعام: ٨٩]، { وَءَاتَيْنَـهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } [ص: ٢٠]، يعني النبوة.

رابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [النحل: ١٢٥] وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم ثم تأمَّل أيها المسكين فإنه تعالى مـا أعطـى إلا القليل من العلم قال تعالى: { وَمَآ أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } وأما الحكمة بمعنى فعل الصـواب فقيل في إحداها:

الأول: أنها التلخق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية، ومدار هذا المعنى على قولـه: «تخلقـوا بأخلاق الله تعالى» واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين، وذلـك لأن كمـال الإنسان في شيئين:

أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به. فحكي عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قولـه: { رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً } وهي الحكمة النظرية { وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـلِحِينَ } الحكمة العملية.

قوله: { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى. (أي النفس الظلمانية).

والمراد أن الإنسان إذا رأى الحكم والمعارف حاصلة في قلبه، ثم تأمل وتدبر؛ وعرف أنها لم تحصل إلا بإيتاء الله وتيسيره، كان من أولي الألباب، لأنه لم يقف عند المسببات، بل ترقـى منـها إلى أسبابها، فهذا الانتقال من المسبب إلى السبب، هو التذكر الذي لا يحصل إلا لأولي الألباب، وأما من أضاف هذه الأحوال إلى نفسه، واعتقد أنه هو السبب في حصولها وتحصيلها، كان من الظاهر بين الذين عجزوا عن الانتقال من المسببات إلى الأسباب.

وعن سعيد بن جبير: أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا تتصدقوا إلاّ على أهل دينكم » فنزلت الآية: { لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَآءَ وَجْهِ اللَّهِ } مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » رواه البخاري ومسلم، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

« إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يُسْلِمُ عبد حتى يُسلِمَ قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث ».

أقول: على العاقل أن يواظب على الأذكار في الليل والنهار ويتصدق على الفقراء والمساكين بخلوص النية واليقين في كل حين.

قال الغزّالي: إن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وإن كان موجــوداً فالإيثار والسخاء والتباعد عن البخل، قال عليه الصلاة والسلام: « السخاء شجرة من أشــجار الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيحاً أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار ».

أقول:

لا أحد أصدق من الله تعالى وهو القائل جل شأنه: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَــدُوّاً } [فاطر: ٦]، أخبرك ربك تبارك وتعالى: إن الشيطان لك عدو، وأمرك أن تعاديه، ومعاداتــه في مخالفته، وعدم الإصغاء لوسوسته، قال تعالى: { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً } [النساء: ١٢٠] كن على حذر منه فإذا هجم عليك فاستعذ بالله تعالى فإنه تعالى يــراك ويــراه وكن مخلصاً لله عز وجل، عسى أن يصطفيك ويجعلك من المخلصين فإن أصبحت منهم كنت عند الله عبداً محبوباً، وهو القائل تبارك وتعالى: { إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَــنٌ وَكَفَى بِرَبِّــكَ وَكِيلاً } [الإسراء: ٦٥] ، فلا يغوينك الشيطان كما قال تعالى حاكياً عن إبليس { وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [الحجر: ٤٠]، فلا سبيل عليهم.

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين، بحرمة سيد المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليــه وســلّم برحمتك يا أرحم الراحمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قــوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاْ لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَاْ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاْ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّـهُ الْرِّبَاْ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـلِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَلِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [البقرة: ٢٧٥ ــ ٢٨١] .

قوله: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاْ لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } اعلم أن بين الربا وبين الصدقة مناسبة من جهة التضاد؛ وذلك لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك.

والربا: عبارة عن طلب الزيادة في المال مع نهي الله عنه فكانا متضادين، ولهذا قال تعالى: { يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَاْ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ } فلما حصل بين هذين الحكمين هذا النوع من المناسبة، لا جَرم ذكر عقيب حكم الصدقات حكم الربا.

وفي قوله تعالى: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاْ }: أي الذين يتعاملون بالربا، ويمتصون دماء الناس، عبر بقوله: { يَأْكُلُونَ الرِّبَواْ } عن الانتفاع به، لأن الأكل هو الغالب في المنافع، وسواء في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر: « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال هم سواء » .

{ لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـنُ مِنَ الْمَسِّ } لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم، يُعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة، قال سعيد بن جبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَاْ } ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرمه الله، وقولهم: الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً؟ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح؛ فاستحلوه استحلالاً له، قالوا: يجوز بيع درهم بدرهمين، كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين. وحق الكلام أن يقال: إنما الربا مثل البيع.

روي أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه به يقول الغريم لصاحب الأجل: زدني شيئاً في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك ويقولان: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير(١) فكذبهم الله بقوله: { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاْ } أي: أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، لأن فيه زيادة مقتطعة من جهد المدين ولحمه. { فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ } أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم { وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ } أي أمره موكول إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه.

{ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } أي ومن عاد إلى التعامل بالربا، واستحله بعد تحريم الله له، فهو من المخلدين في نار جهنم.

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في قصة الإسراء قال: « فانطلق بي جبريل إلى رجال كثير كل رجل بطنه مثل البيت الضخم منضدين (جعل بعضه فوق بعض) على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون، فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون؛ ثم يقوم أحدهم، فيميل به بطنه، فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا، حتى يغشاهم آل فرعون، فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة قال: وآل فرعون يقولون اللهم لا تقم الساعة أبداً قال: { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } قلت: يا جبريل من هؤلاء قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ». قوله:

بطنه مثل البيت الضخم: أي العظيم الكبير الغليظ. منضدين: أي موضوعين بعضهم على بعض. والسابلة: الطريق. مثل الإبل المنهومة: النهم بالتحريك إفراط في الشهوة بالطعام من الجوع.

{ يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَاْ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } .

{ يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَاْ } أي: يذهب ريعه ويمحو خيره، وإن كان زيادة في الظاهر. أي ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يقبل الله منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة.

{ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ } ويكثر الصدقات، وينميها، وإن كانت نقصاً في الشاهد. أي يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة؛ ويبارك فيه؛ وفي الحديث: « ما نقصت زكاة من مال قط ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ـــ ولا يقبل الله إلا الطيب ـــ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله ».

أقول: أي: يكبر ثوابه عند الله، يكون ثوابه في عناية الله.

{ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } أي: لا يحب كل كفور القلب أثيم القول والفعل، وفي الآية تغليظ في أمر الربا، وإيذان بأنه من فعل الكفار. لأن الحب من الله مختص بالتوابين.

{ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَـــتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ } قال الله مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أي إن الذين صدقوا الله، وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة { لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُـــونَ } أي: لهم ثواهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما فاقم في الدنيا.

أقول: ولما كانت الآيات المتقدمة متعلقة بالآتية، كتبتها أولاً لما فيها من الشنيعة والتحذير لمـــن تعامل بالربا، والتمدح والثناء لمن انتهى وائتمر وامتثل لأمر الله جل وعلا. يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ناهياً لهم عما يقربهم من سخطه ويبعدهم عن رضاه.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَواْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } أي: اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً.

وأما سبب نزول هذه الآية فقد قيل: إنها نزلت بسبب ثقيف، وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلّم على أن ما لهم من الربا على الناس فهو لهم، وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم، فلما أن جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء، وكانت الديون لبني عبدة وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت على بني المغيرة المخزوميِّن فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً فإن الربا قد رُفـــع؛ ورفعوا أمرهم إلى عتاب بن أسيد، فكتب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى عتاب، فعلمت بها ثقيف فكفّت.

هذا سبب الآية على اختصار مجموع ما روى ابن إسحاق وابن جريج والسدّي وغيرهم. والمعنى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترككم ما بقي لكم من الربا وصفحكم عنه.

اعلم أنه تعالى لما بين في هذه الآية المتقدمة أن من انتهى عن الربا فله ما سلف، فقد كان يجوز أن يظن أنه لا فرق بين المقبوض منه وبين الباقي في ذمة القوم فقال: { وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَاْ } وبين به أن ذلك إذا كان عليهم ولم يقبض فالزيادة تحرم، وليس لهم أن يأخذوا إلا رؤوس أموالهم، وإنما شدد تعالى في ذلك، لأن من انتظر مدة طويلة في حلول الأجل، ثم حضر الوقت، وظن نفسه على أن تلك الزيادة قد حصلت له فيحتاج في منعه عنه إلى تشديد عظيم فقال:

{ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَاْ } واتقاؤه ما نهى عنه يعني إن كنتم قبضتم شيئاً فيعفو عنه وإن لم تقبضوه أو لم تقبضوا بعضه، فذلك الذي لم تقبضوه كلاً كان أو بعضاً، فإنه يحرم قبضه.

{ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } قال القاضي: كونه إن كنتم مؤمنين كالدلالة على أن الإيمان لا يتكامل إذا أصر الإنسان على كبيرة، وإنما يصير مؤمناً بالإطلاق إذا اجتنب كل الكبائر، الجواب: لما دلت الدلائل الكثيرة المذكورة في تفسير قوله: { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }على أن العمل خارج عن مسمى الإيمان، كانت هذه الآية محمولة على كمال الإيمان وشرائعه، فكان التقدير إن كنتم عاملين بمقتضى شرائع الإيمان. وقيل لأنه كان في أول دخولهم الإسلام. فقد كان الربا يتبايعون فيه في الجاهلية، فلما أسلموا أمروا أن يأخذوا رؤوس أموالهم.

{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } أي: وإن لم تتركوا التعامل بالربا؛ فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: « الرّبا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه » رواه الحاكم، وفي حديث آخر: « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ست وثلاثين زنية » رواه أحمد. وحديث مسلم: « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم آكل الربا وموكله » قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب.

وحرب الله ناره وحرب رسوله صلى الله عليه وسلّم حرب السيف واختلفوا في معنى هذه المحاربة فقيل: المراد بها المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب وقيل: بل المراد منه نفس الحرب، وذلك أن من أصر على أكل الربا؛ وعلم به الإمام، قبض عليه، وأجرى فيه حكم الله من التعزير والحبس إلى أن تظهر منه التوبة.

فإن قيل: كيف أمر بالمحاربة مع المسلمين؟ قلنا: هذه اللفظة قد تطلق على من عصى الله غير مستحل، كما جاء في الخبر: « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلّم: « من لم يدع المخابرة (هي أن يعطي المالك الفلاَّحَ أرضاً يزرعها على بعض ما يخرج منها كالثلث والربع وفي الحديث أنه نهى عن المخابرة) فليأذن بحرب من الله ورسوله » وقد جعل كثير من المفسرين والفقهاء قوله تعالى: { إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } أصلاً في قطع الطريق من المسلمين ، فثبت أن ذكر هذا النوع من التهديد مع المسلمين وارد في كتاب الله وفي سنة رسوله.

{ وَإِن تُبتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَلِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ } أي إن رجعتم عن الربا؛ وتركتموه، فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان.

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حجة الوداع فقال: « ألا إن كل ربـــا في الجاهليـــة موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون؛ وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله » رواه ابن أبي حاتم.

أقول: إنما يترتب الربا إذا دفع رأس المال؛ وأخذ الزيادة، وبعد ذلك إن أنفق به يكون إنفاقـــه بالحرام؛ هذا غير جائز قال تعالى: { أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـــتِ مَا كَسَبْتُمْ } والإنفاق بـــالحرام حـــرام، يخشى على صاحبه، إن كان يرجو الثواب. ارجع إلى كتب الفقه فالأحكام مفصلة.

قال علماؤنا: إن سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام، إن كانت ربا فليردها على مـــن أربى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضراً، فإن أيس من وجوده فليتصدق بذلك عنه ،وإن أخـــذه بظلـــم فليفعل كذلك في أمر من ظلمه، فإن التبس عليه الأمر، ولم يدرِ كَمْ الحرام من الحلال مما بيـــده، فإنه يتحرى قدر ما بيده مما يجب عليه رده، حتى لا يشك أن ما يبقى قد خلص له، فيرده من ذلك الذي أزال عن يده إلى من عرف ممن ظلمه أو أربى عليه، فإن أيس من وجوده تصدق به عنه، فإن أحاطت المظالم بذمته، وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق أداءه أبداً لكثرته، فتوبته أن يزيل ما بيده أجمع إما إلى المساكين، وإما إلى ما فيه صلاح المسلمين، حتى لا يبقى في يده إلا أقل مـــا يجزئه في الصلاة من اللباس، وهو ما يستر العورة وهو من سرته إلى ركبتيه وقوت يومه.

أقول: لئلا يرجع إلى الله، وفي ذمته مال حرام يعذب به.

{ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ } أي: إذا كان المستدين معسراً، فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي وإما أن تربي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا يَحِلُّ دَيْنُ (يحين وقته) رَجُلٍ مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة » عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه ». عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري قال أحمد أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منـــه، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه، فقال نعم هو في البيت يأكل فناداه فقال: يا فلان اخرج فقد أُخبرت أنك ها هنا فخرج إليه فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي شـــيء قال: آلله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وســـلّم يقول: « من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » رواه مسلم في صحيحه.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أتى الله بعبد من عبيـــده يوم القيامة قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها قالها ثلاث مرات قال العبد عند آخرها يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مالٍ وكنت رجـــلاً أُبايع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، قال فيقول الله عـــز وجل: أنا أحق من ييسر ادخل الجنة» أخرجه البخاري ومسلم.

{ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: إن تجاوزتم عما لكم عنده فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل، والأجر العظيم، ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليـــوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح.

فقال: { وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم، ثم توفى كل نفس حسابها، وأنتم لا تظلمون، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد.

قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم، وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلّم بعد نزولها تسع ليالٍ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

نزلت الآية وهو واقف بعرفة: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي } [المائدة: ٣] ثم نزلت: { وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } فقال جبريل ضعها على رأس ثمانين آية ومائتي آية من البقرة.

قال القاضي { يَوْمًا } اليوم عبارة عن زمان مخصوص، وذلك لا يُتَّقَى، وإنما يُتَّقَى ما يحدث فيه من الشدة والأهوال، واتقاء تلك الأهوال لا يمكن إلا في دار الدنيا بمجانبة المعاصي الواجبات، فصار قوله: { وَاتَّقُواْ يَوْمًا } يتضمن الأمر بجميع أقسام التكليف { تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } الرجوع إلى الله ليس المراد منه ما يتعلق بالمكان والجهة، فإن ذلك محال على الله تعالى، وليس المراد منه الرجوع إلى علمه وحفظه فإنه معهم أينما كانوا، ولكن كل ما في القرآن من قوله { تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } له معنيان: الأول: إن الإنسان له أحوال ثلاثة على الترتيب:

فالحالة الأولى: كونهم في بطون أمهاتهم ثم لا يملكون نفعهم ولا ضرهم، بل المتصرف فيهم ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

الحالة الثانية: كونه بعد البروز عن بطون أمهاتهم، وهناك يكون المتكفل بإصلاح أحوالهم في أول الأمر الأبوين، ثم بعد ذلك يتصرف بعضهم في البعض في حكم الظاهر.

الحالة الثالثة: بعد الموت وهناك لا يكون المتصرف فيهم ظاهراً في الحقيقة إلا الله سبحانه، فكأنه بعد الخروج عن الدنيا، عاد إلى الحالة التي كان عليها قبل الدخول في الدنيا، فهذا هـو معـنى الرجوع إلى الله.

والمعنى الثاني أن يكون المراد: يرجعون إلى ما أعد الله لهم من ثواب أو عقاب وكلا التـأويلين حسن مطابق للفظ وقد جُعِلَت هذه الآية بين آية الدين وآية الربا تأكيداً للزجر عن الربا.

أقول:

استشعر هول الموقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، عندما تكون على جسر جهنم، فتنظر أيمن منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر أشأم منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر تلقاء وجهـك فلا ترى إلا النار، وأنت بين يدي الملك القهار، الذي يعلم السر وأخفى، فماذا تقول لربك عز وجل يوم القيامة؟ إن سألك عبدي كيف اجترأت على أكل مال الحرام من ربا وغيره؟

لتستح من الله عز وجل، فدائرة الحلال تكفيك أيها المؤمن، ولا تنس أنه ما أعطاك إلا لحكمة، وما منعك إلا لحكمة فمقياس الكرامة ليس المال، قال تعالى: { فَأَمَّا الإِنسَـنُ إِذَا مَا ابْتَلـهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَـهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ } [الفجر: ١٧] بل مقياسها التقـوى قـال تعـالى: { إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عَنـدَ اللَّـهِ أَتْقَـاكُمْ } [الحجرات: ١٣]، ومن التقوى ترك الربا، وترك أخذ أموال الناس بالباطل، وبسيف الحيـاء ،

نسأل الله أن يرزقنا القناعة، وأن يخرجنا من الدنيا على السلامة من وبالها، إنه على كل شـــيء قدير وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلـــي العظـــيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَـــدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّـــهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْـــئَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَـــايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٨٢ ــ ٢٨٣] .

لما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه، وهو كسب خبيث، يمقته الإسلام ويحرمه، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع، وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق؛ مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } أي إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها. أي إذا داين بعضكم بعضاً وعامله نسيئةً معطياً أو آخذاً كما تقول: بايعته إذا بعته أو باعك، وفائدة ذكر الدين، دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة؛ أي من قولهم: (كما تدين تدان). والتنبيه على تنوّعه إلى الحال والمؤجّل، وأنه الباعث على الكَتْبِ.

{ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } بالأيام والأشهر أو السنة وغيرها مما يفيد العلم؛ ويرفع الجهالة {فَاكْتُبُوهُ} أي الدين بأجله لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على استحبابه.

{ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ } أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين(١) وفيه بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، وتعيين لمن يتولاها إثر الأمر بها إجمالاً

وقوله: { بَّيْنَكُم } للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين، ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما وليكن المتصدي للكتابة من شأنه أن يكتب بالتسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين، لا يزيد، ولا ينقص، وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه ديّن، يجيء كتابه موثقاً به معدلاً بالشرع ، لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل.

أقول: وهذا حكم فقهي إذا أدى المدين ما عليه قبل حلول الأجل برضاه، فعلى الدائن أن يسقط عن دينه بقدر بقاء مدة الأجل إذا كان باعه نسيئاً أكثر بنقد). ومَنْ عليه الدين إذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها، واختلفوا في هذه الكتابة فقيل: هي واجبة، وهو مذهب عطاء، وابن جريج، والنخعي، واختاره محمد بن جرير الطبري، وقيل: الأمر محمول على الندب والاستحباب؛ فإن ترك فلا بأس وهو قول جمهور العلماء، وقيل: بل كانت الكتابة والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ بقوله تعالى:

{ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ } وهو قول الحسن والشعبي والحكم بن عيينة.

{ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ } أي ولا يمتنع أحد عن الكتابة بالعدل كما علمه الله. واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب، وتحمل الشهادة على الشاهد، فقيل بوجوبهما، لأن ظاهر الكلام نهي عن الامتناع من الكتابة؛ وإيجابها على كل كاتب، فإذا طولب بالكتابة، وتحمل الشهادة من هو من أهلهما، وجب عليه ذلك، وقيل: هو من فرض الكفاية وهو قول الشعبي فإن

لم يوجد إلا واحد وجب عليه ذلك، وقيل: هو على الندب والاستحباب وذلك لأن الله تعالى لما علمه الكتابة وشرفه بها، استحب له أن يكتب ليقضي حاجة أخيه المسلم، ويشكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه، وقيل كانت الكتابة وتحمل الشهادة واجبتين على الكاتب والشاهد ثم نسخهما الله تعالى بقوله: { وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ }. { كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ } أي كما شرعه الله وأمر به.

{ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ } أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدين، وهو الذي عليه الحق، لأنه المقر المشهود عليه(١)، وذلك أن يكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص، ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة، ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر، وأن يكون كل واحد منهما آمناً من إبطال حقه، وأن يكون ما يكتبه متفقاً عليه عند العلماء، وأن يحترز من الألفاظ التي يقع التراع فيها، وهذه الأمور لا تحصل إلا لمن هو فقيه عالم باللغة ومذاهب العلماء، يعني أن المطلوب الذي عليه الحق يقر على نفسه بلسانه، ليعلم ما عليه من الحق، فيذكر قدره وجنسه وصفة الأجل ونحو ذلك. والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد.

{ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } أي وليخش الله رب العالمين، ولا ينقص من الحق شيئاً ، وليتق المملي دون الكاتب كما قيل: لقوله تعالى: { وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } أي من الحق الذي يمليه على الكاتب فإنه هو الذي يتوقع منه البخس خاصة، وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس وإنما شدد في تكليف المملي، حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه، فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه، وتخفيف ما في ذمته.

{ فَإن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا } أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كـان صبياً أو شيخاً هرماً ، وقال الشافعي السفيه هو المبذر المفسد لماله ودينه.

{ أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ } أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرس أو عُجمة، فليملل قيّمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد بالولي صاحب الدين، يعني: إن عجز الذي عليه الحق عن الإملاء فليملل صاحب الحق لأنه أعلم بحقه. وإدخال حرف { أَوْ } بين هذه الألفاظ الثلاثة أعني: السفيه والضعيف ومن لا يستطيع أن يمل يقتضي كونها أموراً متغايرة، لأن معناه أن الذي عليه الحق إذا كـان موصوفاً بإحدى هذه الصفات الثلاث فليملل وليه بالعدل، فيجب في الثلاثة أن تكون متغايرة، وإذا ثبت هذا وجب حمل السفيه على الضعيف الرأي ناقص العقل من البالغين، والضعيف على الصغير والمجنون والشيخ الخرف وهم الذين فقدوا العقل بالكلية، والذي لا يستطيع أن يمل من يضعف لسانه عن الإملاء لخرسٍ أو جهله بمالَهُ وما عليه، فكل هؤلاء لا يصح منهم الإقرار والإملاء، فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم.

{ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ } أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة(١)، { مِّن رِّجَالِكُمْ } فيه وجوه:

الأول: من أهل ملتكم، وهم المسلمون. الثاني: الأحرار.

الثالث: الذين تعتدونهم للشهادة بسبب العدالة.

{ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ } أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين فليشهد رجل وامرأتان، ممن يوثق بدينهم وعدالتهم. أي فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال في الأموال جائزة بالإجماع ، دون الحدود والقصاص ، فلا بد فيهما من الرجال ، واعلم أن هذه الآية تدل على أنه ليس كل أحد صالحاً للشهادة.

والفقهاء قالوا: شرائط قبول الشهادة عشرة:

١ ــ أن يكون حراً ٢ ــ أن يكون بالغاً. ٣ ــ أن يكون مسلماً. ٤ ــ أن يكون عدلاً.

٥ ــ عالماً بما شهد به. ٦ ــ ولم يَجُرَّ بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه.

٧ ــ ولا يدفع بها م ة عن نفسه. ٨ ــ ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط.

٩ ــ ولا بترك المروءة ١٠ ــ ولا يكون بينه وبين من يشهد عليه عداوة.

قوله تعالى: { فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ } أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم { أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى } أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى وهذا علة وجوب الاثنتين لنقص الضبط فيهن ، والمعنى أن النسيان غالب على طبع النساء لكثرة البرد والرطوبة في أمزجتهن. واجتماع المرأتين على النسيان أبعد في العقل من صدور النسيان على المرأة الواحدة، فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد، حتى إن إحداهما لو نسيت ذكرتها الأخرى فهذا هو المقصود من الآية.

قال مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة: (جزل: رأيٍ جيّدٍ قويّ كم، وا زلة: العاقلة الأصيلة الرأي) وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: « تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: « أما نقصان عقلها: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي؛ وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين ».

قال تعالى: { وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ } أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك. ومن هنا استفيد أنَّ تحمل الشهادة فرض كفاية فيها وهو مذهب الجمهور. المراد بقوله: { وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ } للأداء حقيقة قوله: { الشُّــهَدَآءُ } والشــاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم، وقال مجاهد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب.

وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن من طريق مالك بن عبد الله عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها ».

وقد دل في الآية على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم، وهذا أمر بنى عليه الشرع وعُمِلَ به في كل زمان وفَهمتْه كل أمة. واعلم أن الشاهد:

١ ـــ إما متعيناً وجب عليه أداء الشهادة.

٢ ـ وإما أن يكون فيهم كثرة صار ذلك فرضاً على الكفاية.

{ وَلاَ تَسْــئَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ } أي لا تملوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده.

{ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَــدَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ } أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة، لئلا تنسى وأقرب ألا تشكُّوا في قدر الدين والأجل(١)، واعلم أن الكتابة إنما كانت { أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ } أي أعدل عند الله، لأنه إذا كان مكتوباً كان إلى اليقين والصدق أقرب، وعن الجهل والكذب أبعد، فكان أعدل عند الله . وقوله تعالى: { ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ } [الأحزاب: ٥] أي هو أعدل عند الله، وأقرب إلى الحقيقة من أن تنسبوهم إلى غير آبائهم.

{ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ } لأنها سبب الحفظ والذكر، فكانت أقرب إلى الاستقامة. والفرق بين الفائدة الأولى والثانية.

أن الأولى: تتعلق بتحصيل مرضاة الله تعالى.

والثانية: بتحصيل مصلحة الدنيا.

وإنما قدمت الأولى على الثانية إشعاراً بأن الدِّين يجب تقديمه على الدنيا.

والفائدة الثالثة { وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ } أي أقرب إلى زوال الشك والارتياب عن قلوب المتداينين، والفرق بين الوجهين الأولين وهذا الثالث: أن الوجهين الأولين يشيران إلى تحصيل المصلحة:

فالأول تحصيل مصلحة الدِّين.

والثاني تحصيل مصلحة الدنيا.

والثالث: إشارة إلى دفع الضرر عن النفس وعن الغير.

أما عن النفس فإنه لا يبقى في الفكر أن هذا الأمر كيف كان، وهذا الذي قلت هل كان صدقاً أو كذباً، وأما دفع الضرر عن الغير فلأن ذلك الغير ربما نسبه إلى الكذب والتقصير فيقع في عقاب الغيبة والبهتان فما أحسن هذه الفوائد وما أدخلها في القسط وما أحسن ما فيها من الترتيب.

{ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَـرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ } أي إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوض.

{ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا } أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور، { وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ } أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ، وأكثر المفسرين قالوا: المراد أن الكتابة وإن رفعت عنهم في التجارة إلا أن الإشهاد ما رفع عنهم لأن الإشهاد بلا كتابة أخف مؤونة ولأن الحاجة إذا وقعت إليها لا يخاف فيها النسيان. واعلم أنه لا شك أن المقصود من هذا الأمر الإرشاد إلى طريق الاحتياط. والأوامر الواردة في الآية الكريمة للندب عند الجمهور.

{ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ } أي ولا يضر صاحب الحق الكتَّابَ والشهود ، ويحتمل البنـــائين (بناء الفاعل أو المفعول) ويدل عليه أنه قرىء ولا يضار بالكسر والفتح؛ وهو نهيهما عن تـــرك الإجابة والتحريف والتغيير في الكتبة والشهادة والنهي عن الضرار بهما مثل أن يُعَجَّلا عن مُهمّ، ويكلفا الخروج عما حدَّ لهما، ولا يُعطى الكاتبُ جُعْلَةً (أجرة) والشهيدُ مُؤونةَ مجيئه حيث كان.

وأحسن ما جاء من صريح السنة في ترك الإشهاد وهو ما خرجه الدارقطنيّ: عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: أقبلنا في ركب من الرَّبذة وجنوب الرَّبذة (وهي من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) حتى نزلنا قريباً من المدينة، ومعنا ظعينة لنا، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان، فسلّم، فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ فقلنا: من الرَّبذة وجنوب الربذة، قال: ومعنا جمل أحمر، فقال: تبيعوني جملكم هذا؟ فقلنا: نعم، فقال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر، فقال: فما استَوْضَعَنا شيئاً وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة، فتوارى عنا فتلاومنا بيننا وقلنـــا: أعطيتم جملكم مَنْ لا تعرفونه! فقالت الظعينة: لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه. فلما كان العشاء أتانا رجل فقال: السلام عليكم، أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم إليكم وإنه أمركم أن تأكلوا من هـــذا حـــتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا » .

وذكر الحديث الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب الـــنبي صـــلى الله عليه وسلّم أن النبي صلى الله عليه وسلّم « ابتاع فرساً من أعرابي ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شاهداً يشـــهد أني بعتـــك قـــال : خزيمـــة بـــن ثابـــت أنـــا أشـــهد أنـــك قـــد بعتـــه ،

فأقبل النبي صلى الله عليه وسلّم على خزيمة فقال: بم تشهد فقال: بتصديقك يا رسول الله قال: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم شهادة خزيمة بشهادة رجلين » أخرجه النسائي وغيره.

{ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ } أي إن فعلتم ما نهيتكم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ، والمعنى: أنه يعلمكم ما يكون إرشاداً واحتياطاً في أمر الدنيا كما يعلمكم إرشاداً في أمر الدين.

{ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

كرر لفظ الله في الجمل الثلاثة { وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } لاستقلالها، فإن الأولى: حث على التقوى والثانية: وعد بإنعامه والثالثة: تعظيم لشأنه.

{ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة. يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه.

اعلم أنه تعالى جعل البياعات في هذه الآية على ثلاثة أقسام:

١ ــ بيع بكتاب وشهود. ٢ ــ بيع برهان مقبوضة. ٣ ــ بيع الأمانة.

ولما أمر في آخر الآية المتقدمة بالكتبة والإشهاد، وأَعْلَمَ أنه ربما تعذر ذلك في السفر إما بــأن لا يوجد الكاتب؛ أو إن وجد لكنه لا توجد آلات الكتابة، ذكر نوعاً آخر من الاستيثاق وهو أخذ الرهن، فهذا وجه النظم، وهذا أبلغ في الاحتياط من الكتبة والإشهاد.

واتفقت الفقهاء اليوم على أن الرهن في السفر والحضر سواء في حال وجود الكاتب وعدمــه، وكان مجاهد يذهب إلى أن الرهن لا يجوز إلا في السفر أخذاً بظاهر الآية، ولا يُعمل بقوله اليوم، وإنما تقيدت الآية بذكر السفر على سبيل الغالب كقوله: { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلوةِ إِنْ خِفْتُمْ }، وليس الخوف من شرط جواز القصر ، ولأنه عليه الصلاة والسلام رهــن درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير، أخذه لأهله، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر، الذي هو مظنة إعوازها والجمهور على اعتبار القبض فيه، غــير مالك.

{ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } أي فإن أمن الدائن المــدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذلك المؤتمن الدين الذي عليه، وليتــق الله ربــه في رعاية حقوق الأمانة. وسمي الدين أمانة ــ وإن كان مضموناً ــ لائتمانه عليه حيث أمــن مــن جحوده فلم يكتب، ولم يشهد عليه، ولم يأخذ منه رهناً. حث المديون على أن يكون عند ظــن الدائن الذي ائتمنه؛ وأن يؤدي إليه حقه الذي ائتمنه عليه ولم يرتهن منه عليه شيئاً ثم زاد ذلــك تأكيداً.

{ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } أي المديون في أداء الحق عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا جحــود بــل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه ثم رجع إلى خطاب الشهود.

فقال: { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ } أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فــلا تكتموها، فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً؛ وخص القلب بالــذكر، لأنــه سلطان الأعضاء إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله. « إن الله لا ينظر إلى صوركم، وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم.

والمراد من كتمان الشهادة: أن ينكر العلم بتلك الواقعة، ونظيره قوله تعالى:

{ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَهِيمَ وَإِسْمَـــعِيلَ وَإِسْحَــــقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَــدَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ }[البقرة: ١٤٠] والمراد: الجحود وإنكار العلم.

وأضيف الإثم إلى القلب لأن الأفعال من الدواعي والصوارف إنما تحدث في القلب فلما كــان الأمر كذلك أضيف الإثم إلى القلب. والآثم: الفاجر.

روي أن عمر كان يُعَلِّمُ أعرابياً { إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ } [الدخان: ٤٤]، فكان يقول: طعام اليتيم، فقال له عمر: طعام الفاجر. فهذا يدل على أن الإثم بمعنى الفجور .

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد. العلم نوعان كسبي ووهبي.

أما الأول: فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة.

والثاني فطريقه تقوى الله، والعمل الصالح، كما قال تعالى: { وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } وهذا العلم يسمى العلم اللدني { وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا } وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله:

شَكوتُ إلى وَكيعٍ سوءَ حِفظي فَأرشَدني إلى تَركِ المعاصي

وأَخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ونورُ اللهِ لا يُهدى لعاصي(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداءَ أُشهدُهُم، قال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت؛ فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج (أصلحه وسواه) موضعها ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضيَ بذلك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضيَ بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركباً، أبعث بها إليه بالذي أعطاني، فلم أجد مركباً وإني استَوْدَعْتُكَهَا، فرمى بها في البحر، حتى وَلَجَتْ فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً؛ فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي

جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشداً. وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري في سبعة مواضع.

أمر الله سبحانه الخلق بالقيام بالصدق، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يُجريَ بعضهم على بعض حَيْفَاً (ظلماً)، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم، ومُوجِبِ رفقه بهم كيلا يتخاصموا، فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة.

ومن شرع اليوم ما يقطع الخصومة بينهم، فبالحريِّ أن يجري ما يرفع في الآخرة آثار الخصومة بينهم، وفي الخبر المنقول: تواهبوا فيما بينكم، فقد وهبت منكم ما لي عليكم، فإن الكريم إذا قدر غفر.

وفيما شرع من الدين رِفق بأرباب الحاجات، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتيال، ويضيق به الصدر عن الاحتمال، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال، فأذن له في الاستدانة ليجبر أمره في الحال، وينتظر فضل الله في المآل، وقد وعد على الإدانة الثواب الكثير وذلك من لطفه تعالى.

أقول:

كن حريصاً على مطعمك ومشربك وملبسك أن يكون حلالاً فمن أكل الحلال تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. قال تعالى: { وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } وهذا هو العلم اللدني الذي

لا يمنحه الله تعالى إلا لمن ارتقى سلم التقوى، فَشَمِّرْ عن ساعد الجد؛ وتابع النبي صلى الله عليه وسلّم في أقوالك وأفعالك وأحوالك كلها تسعد في الدارين بإذن الله.

وكن حافظاً ألا تَخدع ولا تُخدع وإذا تَخدع الآخرين ينتقل إليك مال الغير مع وزره، وإذا تُخدع يبقى الهم معك، تقول: هذا خدعني! يمكن أن تُحِلَّ هذا، ولكن ليس قطعياً أن الآخَرَ يُحِلُّكَ ويبقى الوبال عليك إلى يوم القيامة يقضي منك ما أكلت من ماله نسأل الله العظيم أن يحفظنا من ذلك آمين.

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ } [آل عمران: ١٠٠ ــ ١٠١] .

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ } أي إن تطيعوا طائفة من أهـــل الكتاب { يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } أي يصيروكم كافرين بعد أن هـــداكم الله للإيمـــان. والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم؛ كما في سبب الترول، واللفظ في الآية عام، واعلم أنه تعالى لما حذر الفريق من أهل الكتاب عن الإغواء والإضلال في الآية الأولى { قُلْ يأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوائهم وإضلالهم وَمَنَعَهُم عن الالتفات إلى قولهم، روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد، فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج، فرآهم في مجلس يتحدثون، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي فجلس إليهم وذَكَّرهُم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك؛وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار،فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فوصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار وقال:

أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم، وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلـــوبكم! فعرف القوم أن ذلك من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي؛ فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم فأنزل الله تعالى هذه الآية فقوله:

{ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ } يحمل أن يكون المراد هذه الواقعة، ويحتمل أن يكون المراد جميع ما يحاولونه من أنواع الإضلال، فبين تعالى أن المؤمنين إن لانوا، وقبلوا منهم قولهم أدى

ذلك حالاً بعد حال إلى أن يعودوا كفاراً، والكفر يوجب الهلاك في الدنيا والدين؛ أما في الـــدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة وثوران المحاربة المؤدية إلى سفك الدماء، وأما في الدين فظاهر { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } إنكـــار واســـتبعاد؛ أي كيف يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله لا تزال تتنزل عليكم، والوحي لم ينقطع، ورسول الله حي بين أظهركم ، وإنما خاطبهم الله بنفسه جل وعلا بعد ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلّم بأن يخاطب أهل الكتاب { قُلْ يأَهْلَ الْكِتَابِ } إظهاراً لجلالة قدرهم وإشعاراً بأنهم هم الأحقـــاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

وكلمة { وكيف } تعجب؛ والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب وذلك على الله محال، والمراد منه المنع والتغليظ، وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول صلى الله عليه وسلّم فيهم الذي يزيل كل شبهة؛ ويقرر كل حجة؛ كالمانع من وقوعهم في الكفر، فكـــان صدور الكفر على الذين كانوا بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلّم أبعد من هذا الوجه، فقوله: { إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } تنبيه على أن المقصـــد الأقصى لهؤلاء اليهود المنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام؛ ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب ألا يلتفتوا إلى قولهم بل الواجب أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرســـول صلى الله عليه وسلّم حتى يكشف عنها، ويزيل وجه الشبهة فيها. ويدخل في هذه الآية من لم يرَ النبي صلى الله عليه وسلّم، لأن ما فيهم من سنته يقوم مقام رؤيته. قال الزجاج: يجوز أن يكون هـــذا الخطـــاب لأصـــحاب ســـيدنا محمـــد صـــلى الله عليـــه وســـلّم خاصـــة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان فيهم وهم يشاهدونه؛ ويجوز أن يكون هـــذا الخطـــاب

لجميع الأمة، لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أوتي فينا مكان النبي صلى الله عليه وسلّم وإن لم نشاهده.

قال قتادة: في الآية علمان: كتاب الله، ونبي الله، فأما نبي الله فقد مضى ــ أقول: وبقي التمسك بسنته؛ فمن تمسك بسنته يكون من الفائزين بفضل الله ــ. وأما كتاب الله فقد أبقاه بين أظهرهم رحمة منه ونعمة، فيه حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاء بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس وذكّر ثم قال: « أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه؛ ثم قال: وأهل بيتي؛ أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي ».

{ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ } أي من يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم(١)، والمقصود أنه لما ذكر الوعيد أردفه بهذا الوعد، والمعنى: من يتمسّك بدين الله؛ ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار.

{ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ } فقد احتج أصحابنا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا: لأنه جعل اعتصامهم هداية من الله. فلما جعل ذلك الاعتصام فعلاً لهم وهداية من الله ثبت ما قلناه.

اعلم أن ظاهر الخطاب مع أهل الكتاب، وباطنه مع علماء السوء الذين يبيعون الدين بالدنيا؛ ولا يعملون بما يعلمون. منهم الذين يكفرون بما جاء به القرآن من الزهد في الدنيا والورع والتقوى، ونهي النفس عن الهوى، وإيثار ما يفنى على ما يبقى، والإعراض عن الخلق، والتوجه إلى الحـــق، وبذل الوجود لنيل المقصود والله شهيد على ما يعملون، حاضر معهم ناظر إلى نياهم في أعمـــال الخير والشر فيجازيهم بها؛ وهم يصرفون بحرصهم على الدنيا واتباعهم الهوى المـــؤمنين الـــذين يتبعونهم بحسن الظن ويحسبون أن أعمالهم وأحوالهم على قاعدة الشريعة ومنهاج الطريقـــة عـــن سبيل الله وطريق الحق الذي أمر الأنبياء بدعوة الخلق إليه وهم يطلبون اعوجاج طريـــق الحـــق بالسير في طريق الباطل، وقد وصى الله المؤمنين بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } حتى لا يرتدوا عن طريق الهداية بعد الإيمان بالاتباع بسيرهم وهواهم قال تعالى : { وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ } قال بعض المشايخ: خير العلم ما كانت الخشية معه وذلك لأن الخشية إنما تنشأ عن العلم بصفات الحقِّ، فشاهد العلم الذي هـــو مطلـــوب الله الخشية؛ وشاهد الخشية موافقة الأمر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة بأبدانهم، شر من تظل الســـماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود » فمن انقطع إليه بالفناء في الوحدة كان صراطه صراط الله، فإن من كان مع الله كان الله معه، فهو حافظه وناصره، عصمنا الله وإياكم من كيـــد الشيطان ومكر النفس الأمارة بالسوء كلَّ آنٍ آمين يا مستعان.

أقول: أمرنا أن ننظر إلى عباد الله كلهم بعين الرحمة، والنصيحة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلّم بقدر وسعنا، والله هو الهادي إلى الصراط المستقيم قال الله تعالى { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ } وفي هذه الآية تأديب لنا ألا نعاتب المسلمين ولا ننقد عليهم، فمن لم يهده الله فمتى يعتصم بالله، فالهداية منه؛ وما قاله الشيخ رحمه الله لعلماء السوء الذين لا يرجى إصلاحهم بعد ما علموا من العلم ولا يعملون بمقتضاه ولا يصحبون أهل الحق والتحقيق، ولا يصدقونهم، أَمرُهُم موكل إلى الله، ومع ذلك مسلكه ــ رحمه الله ــ الوعظ وهو من أهل الحقيقة.

وحقيقة الاعتصام صدق اللجوء إليه، ودوام الفرار إليه، واستصحاب الاستغاثة إليه، ومن كشف عن سره غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة (لمحة)، فهذا الإنسان يُعْتَصُم به ممن يُعتصم به.

قال: سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلم: « أعوذ بك منك » ومن اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته في اعتصامه فالشرك وطنه وليس يشعر.

أقول:

لا بد لنا مع تقصيرنا اللجوء والتضرع إلى الله؛ لأن الحفظ من مخالفة الهوى والدنيا والخلق والشيطان أصعب على أمثالنا لقلة استقامتنا على منهج الصلحاء والأتقياء وصحبَتِهم ومُلتَقَطِ نفائس كلامهم. ومع هذا ليس لنا قوة يقينية حتى نحفظ قلوبنا من الأغيار، لأن القلب يتقلب في لحظة مئات التقلبات.

من يهد قلبه فهو إلى الحق سائر؛ ولكن نرجو الله أن يرزقنا الإنابة والاستغفار والثبات على الإيمان، وأن يرزقنا محبته وإتباع نبيه الكريم، والتخلق بأخلاق القرآن، وأن يرزقنا حقيقة الاعتصام به وأن لا يجعلنا ممن اعتصموا بأنفسهم، وأن يجعلنا محواً عن حولنا وقوتنا واعتصامنا بأنفسنا.

في الآية إشارة للمؤمنين الصادقين، وذلك تنبيه: بأنه إن تطيعوا نفوسكم تردكم بعد استقامتكم الشرعية إلى حظوظكم النفسانية الأمارة بالسوء، وكيف تنسون بأن الله قال لكم: { إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }، { فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى } هذا وعظ لكم؛ نحن مع الصادقين من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى نهاية السلسلة، نحن لا ننحرف عن الاستقامة التي عليها وُرَّاث رسول الله صلى الله عليه وسلّم أجمع، منه صلى الله عليه وسلّم إلى وقتنا هذا؛ فهم طريقهم متصل برسول الله صلى الله عليه وسلّم بالسند الصحيح ، لا يجتمعون إلا على الحق ومحال أن يجتمع أمثال هذه السلسة على الباطل لأن الله تعالى يقول:{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }.

وهؤلاء الوراث الصادقون جاؤوا يداً بيد لا يجتمعون على الباطل واجتماعهم حجة؛ لأن اجتماعهم طاعة لأمر الله { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } وهم لا يريدون باجتماعهم واجتماع من تبعهم الباطل لأنهم حجة، وهم على الحق، وإني أتيقن هذه الحلقة النورانية من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى آخر الدنيا لا تخلو عن الصادقين، نرجو الله أن نكون معهم، وألا ننحرف بشياطين الإنس والجن، ولا بالدنيا الغرور، وهذا يقيننا واعتقادنا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ووراثه، والحمد لله رب العالمين آمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُم أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران: ١٠٢ ــ ١٠٣] .

اعلم أنه لما حذر المؤمنين من إضلال الكفار ومن تلبيساهم في الآية الأولى؛ أمر المؤمنين في هذه الآيات بمجامع الطاعات، ومعاقد الخيرات، فأمرهم:

أولاً: بتقوى الله وهو قوله: { اتَّقُواْ اللَّهَ } .

ثانياً: بالاعتصام بحبل الله وهو قوله: { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ } .

ثالثاً: بذكر نعم الله وهو قوله: { وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ }.

والسبب في هذا الترتيب أن فعل الإنسان لا بد وأن يكون معللاً إما بالرهبة أو بالرغبة، والرهبة مقدمة على الرغبة، لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع. فقوله: { اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } إشارة إلى التخويف من عقاب الله.

ثم جعله سبباً للأمر بالتمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله، ثم أردفه بالرغبة، وهـــي قولــه: { وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } فكأنه قال: خوف عقاب الله يوجب ذلك، وكثرة نعم الله توجب ذلك، فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيـــادكم لأمـــر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله، فظهر مما ذكرناه أن هذه الأمور الثلاثة المذكورة مرتبة على أحسن الوجوه.

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } أي: اتقوا الله تقوى حقة؛ أو حق تقواه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفـــر. { حَقَّ تُقَاتِهِ } أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه.

وقيل: حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله: { فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } . أي بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئاً.

وقيل: حق تقاته أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته، فكان قوله اتقوا الله ما استطعتم مفسراً لحق تقاته. وحق التقوى: أن لا يزيد من قبل نفسه ولا ينقص. وعن سعيد بن جبير قال: لمـــا نزلـــت اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً علـــى المسلمين{ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم ويقوموا لله سبحانه بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم.

قال بعضهم: نسخت هذه الآية أولها، ولم ينسخ آخرها { وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } وزعم جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتجوا عليه من وجوه:

١ ــ روي عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال له هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: « هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » وهذا لا يجوز أن ينسخ.

٢ ــ إن معنى قوله: { اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } أي كما يحق أن يتقى وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ لأنه إباحة لبعض المعاصي.

٣ ــ إذا كان كذلك صار معنى هذه الآية، ومعنى قوله تعالى: { فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: ١٦]. واحداً لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته ولا يجوز أن يكون المراد بقوله: { حَقَّ تُقَاتِهِ } مالا يستطاع من التقوى لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، والوسع دون الطاقة، ونظير هذه الآية قوله: { وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } [الحج: ٧٨].

قال العلماء منازل التقوى ثلاثة:

١ ــ تقوى عن الشرك.

٢ ــ تقوى عن البدعة.

٣ ــ تقوى عن المعاصي الفرعية.

ولقد ذكرها الله تعالى في آية واحدة وهي قوله: { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَءَامَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [المائدة:٩٣] .

التقوى الأولى: تقوى عن الشرك، والإيمان في مقابلته وهو التوحيد.

التقوى الثانية: عن البدعة والإيمان الذي ذكر معها إقرار بالسنة والجماعة.

التقوى الثالثة: عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المترلة فقابلها بالإحسان، وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون مترلة مستقيمي الطاعة أي تكون التقوى الثالثة مترلة مستقيمي الطاعة.

والآية جمعت ذكر المنازل الثلاثة: مترلة الإيمان، ومترلة السنة ومترلة الاستقامة في الطاعة، وهذا ما قاله العلماء في بيان معنى التقوى. قلت: فيه إشارة إلى الإحسان الذي قاله عليه الصلاة والسلام: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » روي في الخبر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذراً مما به بأس » رواه ابن ماجه في الورع والتقوى ورواه الترمذي ورواه الحاكم في المستدرك قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي على صحته.

قال الغزالي ــ رحمه الله ــ وكم وعد الله عليها من ثواب وأجر، وكم أضاف إليها من سعادة، وأنا أعد لك من جملتها اثنتي عشرة خصلة.

أولها: المدحة والثناء { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ } [آل عمران: ١٨٦] .

الثاني: الحفظ والحراسة من الأعداء { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } [آل عمران: ١٢٠] .

الثالث: التأييد والنصرة { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } [النحل: ١٢٨] ، { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ٣٦] .

الرابع: النجاة من الشدائد والرزق الحلال { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً } [الطلاق: ٤] { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ } [الطلاق: ٣] .

الخامس: إصلاح العمل { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [الأحزاب: ٧٠] .

السادس: غفران الذنوب { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [الأحزاب: ٧١] .

السابع: محبة الله { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ٤] .

الثامن: القبول { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [المائدة: ٢٧] .

التاسع: الإكرام والإعزاز { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣] .

العاشر: البشارة عند الموت { الَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِى الأْخِرَةِ } [يونس: ٦٣] .

الحادي عشر: النجاة من النار { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً } [مريم: ٧٢]، وقال: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى } [الليل: ١٧] .

الثاني عشر: الخلود في الجنة { وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١٣٣] .

فهذا بيان كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التقوى فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها.

قوله تعالى: { وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } أي: تمسكوا بدين الإسلام؛ وعضوا عليه بالنواجذ، حتى يدرككم الموت، وأنتم على تلك الحالة، فتموتون على الإسلام؛ والمقصود: الأمر بالإقامة على الإسلام. لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام؛ حتى إذا أتاهم الموت، أتاهم وهم على الإسلام؛ صار الموت على الإسلام بمترلة ما قد دخل في إمكانهم، ومعنى الكلام في هذا عند قوله: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }.

{ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } أي مخلصون نفوسكم لله عز وجل لا تجعلون فيها شركة لسواه أصلاً.

وذكر بعض المحققين: أن الإسلام في مثل هذا الموضع لا يراد به الأعمال بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأتّى؛ ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة: « اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن أمتَّه منّا فأمِتْهُ على الإيمان، فأخذ الإسلام أولاً، والإيمان ثانياً ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قرأ هذه الآية: { اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } فقال: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن تكون طعامه » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

{ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }، أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا تتفرقوا عنه، ولا تختلفوا في الدين، كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى. وأمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات؛ واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تنزلق رجله، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلقت رجل الكثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدليل الله وبيِّناته فإنه يأمن من ذلك الخوف، فكأن المراد من الحبل ههنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين، وهو أنواع كثيرة، فذكر كل واحد من المفسّرين واحداً من تلك الأشياء:

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالحبل هنا العهد المذكور في قوله : { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } [البقرة: ٤٠]، وقال: { إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ } [آل عمران: ١١٢] أي بعهد، وإنما سمي العهد حبلاً لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أيّ موضع شاء وكان الحبل الذي من تمسّك به زال عنه الخوف.

وقيل: إنه القرآن، روي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال:« أما إنها ستكون فتنة ». قيل: فما المخرج منها؟ قال: « كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حبل الله المتين » وروي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه

قال: « هذا القرآن حبل الله » وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي: أهل بيتي » .

وقيل: إنه دين الله. وقيل: هو طاعة الله. وقيل: هو إخلاص التوبة.

وقيل: الجماعة، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله: { وَلاَ تَفَرَّقُواْ } وهذه الأقوال كلها متقاربة، والتحقيق أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبلٍ تحرزاً من السقوط فيها وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط في قعر جهنم؛ جعل ذلك حبلاً لله؛ وأمروا بالاعتصام به.

{ وَلاَ تَفَرَّقُواْ } يعني كما تفرقت اليهود والنصارى، وقيل: { وَلاَ تَفَرَّقُواْ } يعني كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويقتل بعضكم بعضاً.

وقيل: لا تُحْدِثُوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها؛ ففيه النهي عن التفرق والاختلاف، والأمر بالاتفاق والاجتماع لأن الحق لا يكون إلا واحداً، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً؛ وإذا كان كذلك وجب النهي عن الاختلاف في الدين وعن الفرقة، لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنُهوا عنه.

وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تُناصِحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قِيل وقالْ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال ».

{ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُم أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداء، فألف بين قلوبكم بالإسلام، وجمعكم على الإيمان، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل، صاروا إخواناً متحابين متواصلين في ذات الله متعاونين على البر والتقوى.

واعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أخروية وأنه تعالى ذكرهما في هذه الآية، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى: { إِذْ كُنتُم أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً }، وأما النعمة الأخروية فهي قوله: { وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا }.

قوله: { إِذْ كُنتُم أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } قيل: إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخزرج، وهمَّ كل واحد منهما بمحاربة صاحبه، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلّم ولم يزل يرفق حتى سكنت الفتنة.

كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، فالآية إشارة إليهم وإلى أحوالهم، فإنهم قبل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضاً، ويبغض بعضهم بعضاً، فلما أكرمهم الله بالإسلام صاروا إخواناً متحابين متراحمين متناصحين، وصاروا إخوة في الله، ونظير هذه الآية قوله: { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } [الأنفال: ٦٣] .

واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معادياً لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معادياً لأحد، والسبب فيه: أنه ينظر من الحق إلى الخلق، فيرى الكل أسيراً في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحداً.

ولهذا قيل: إن العارف إذا أمر أمر برفق، ويكون ناصحاً، لا يعنف ويعيّر، فهو مستبصر بسر الله في القدر. { وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا } أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ، لما شرح الله تعالى النعمة الدنيوية ذكر بعدها النعمة الأخروية: أنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار فَمُثِّلتْ حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها، وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء، وبين ذلك الشيء.

{ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } أي مِثْلُ ذلك البيان الواضح، يبين لكم سائر الآيات، لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين(١) لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب، وما ينال به الثواب.

واعلم أنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى أولاً، وبالاعتصام ثانياً وبتذكر النعمة ثالثاً. فعلى العاقل الانقياد لأمر الله والطاعة لحكمه والاعتصام بحبله وعدم التفرق في الدين، قال شعيب أبو مدين الشاذلي رحمه الله: شتان بين من همَّته الحُورُ والقُصور، ومن همَّته رفع الستور ودوام الحضور.

قال سهل رضي الله عنه: ليس للعبد إلا مولاه، وأحسن أحواله أن يرجع إلى مولاه، إذا عصى قال: يا رب استر علي، فإذا ستر عليه، قال: يا رب تب علي، فإذا تاب عليه، قال: يا رب وفقني حتى أعمل، فإذا عمل قال: يا رب وفقني حتى أخلص، فإذا أخلص قال: يا رب تقبل مني. فعلى العاقل أن يتمسك بهذا الحبل المتين، وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أقول:

جدير بك أن يكون أمرك مبدوءاً بالتقوى، ومختوماً بها، ولا سبيل لضمان حسن الخاتمة إلا بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلّم فيما جاء به عن ربه عز وجل.

فكن متمسكاً بالكتاب والسنة مجاهداً لنفسك ولأهوائك، ومحافظاً على سلامة قلبك بكثرة ذكرك لله تعالى بالحضور التام الدائم، وراجياً مولاك أن يتقبل منك هذا، مع اعتقادك بأن عبادتك غير لائقة لربك عز وجل. اللهم اجعلنا من الذين سبقت لهم منك الحسنى برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأْيَاتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران: ١١٨] .

حذر تعالى المؤمنين من اتخاذ المنافقين بطانة، يطلعونهم على أسرارهم فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ } أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين.

{ لاَ تَتَّخِذُواْ } بطانة الرجل: صاحبُ وليجته، مَنْ يعرف أسراره ثقة به، شبه ببطانة الثوب التي تلي بطنه، كما شبه بالشعار، قال عليه الصلاة والسلام: « الأنصار شعار، والناس دثار » والشعار: هو الثوب الداخل، سمي به لأنه يلي شعر الجسد، والدثار: ما يلبس فوقه.

اختلفوا في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ على أقوال:

الأول: هم اليهود، وذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم، ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظناً منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينحصون لهم في أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه.

الثاني: هم المنافقون، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين، ويظنـــون أنهـــم صادقون، فيفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية فالله تعالى منعهم عن ذلك.

الثالث: جميع أصناف الكفار، والدليل عليه قوله تعالى: { بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ }، فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين، فيكون نهياً عن جميع الكفار وقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ } [الممتحنة: ١] .

ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ههنا رجل من أهـــل الحـــيرة نصراني، لا يعرف أقوى حفظاً ولا أحسن خطاً منه، فإن رأيت أن نتخذه كاتباً؟ فامتنع عمر عن ذلك وقال: إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ بطانة. وقال رضي الله عنه استعينوا على أمور رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى.

{ مِّن دُونِكُمْ } أي من دون المسلمين ومن غير أهل ملتكم.

{ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } الخبال الفساد والنقصان، أي لا يقصرون لكم في الفساد ، ولا يَـــدَعُون جُهدهم في مضرتكم وفسادكم.

{ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ } أي تمنوا مشقتكم، وما يوقعكم في الضرر الشديد.

يقال: وددت كذا، أي أحببته، والعنت: شدة الضرر والمشقة. قوله تعالى: { وَلَوْ شَـــآءَ اللَّـــهُ لأَعْنَتَكُمْ } [البقرة: ٢٢٠] والتقدير: أحبوا أن يضروكم في دينكم.

والفرق بين قوله: { لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } وبين قوله: { وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ } في المعنى وجوه:

الأول: لا يقصرون في إفساد دينكم، فإن عجزوا عنه ودوا إلقاءكم في أشد أنواع الضرر.

الثاني: لا يقصرون في إفساد أموركم في الدنيا، فإذا عجزوا عنه لم يزل عن قلوبهم حب إعناتكم.

الثالث: لا يقصرون في إفساد أموركم فإن لم يفعلوا لمانع من خارج فحب ذلك غير زائلٍ عن قلوبهم.

{ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم، فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم، وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه. ففي تفسير الآية وجهان:

الأول: أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقةٍ لطريق المخالصة في الود والنصيحة، ونظيره قوله تعالى { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ } [محمد: ٣٠] .

الثاني: قال قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك، أما إن حملناه على اليهود فتفسير قوله { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } فهو أنهم يظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم، وينسبونكم إلى الجهل والحمق، ومن اعتقد في غيره الإصرار على الجهل والحمق امتنع أن يحبه، بل لا بد وأن يبغضه، فهذا هو المراد بقوله: { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ }.

{ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأيَـــتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } أي أوضحنا لكم الآيات الدالــة علــى وجــوب الإخلاص في الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين إن كنتم عقلاء، وهذا على ســبيل الهــزِّ والتحريك للنفوس كقوله: إن كنت مؤمناً فلا تؤذ الناس.

وقال ابن جرير: المعنى إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضــه عليــه، وبطانة تأمره بالسوء، وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله ».

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الحامل لأسرار الرجل ينبغي أن يكون من جنسه « أي مــن أهــل الإيمان » معتمداً عليه مؤتمناً، وربما يفشي الرجل سره إلى من لم يجربه في كل حالة؛ فيفتضح عند الناس فلا تغتر بظاهر إنسان، حتى تعرف سريرته.

قال الإمام الغزالي ــ رحمه الله :- ولا تعوِّلْ على مودة من لم تختبره حق الخبرة، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد، فتجربه في عزله وولايته، وغناه، وفقره؛ أو تسافر معــه؛ أو تعاملــه في الدينار والدرهم،أو تقع في شدة فتحتاج إليه،فإن رضيته في هذه الأحوال،فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً، أو ابناً إن كان صغيراً، أو أخاً إن كان مثلاً لك.

وإذا بلغك من الإخوان غيبة،أو رأيت منهم شراً،و أصابك منهم ما يسوءك،فوكل أمــرهم إلى الله،ولا تشغل نفسك بالمكافاة،فيزيد الضرر،ويضيع العمر لشغله، ومن بلاغات الزمخشري: مــا قدع (أي كَفَّ ومَنَعَ) السفيه بمثل الإعراض وما أطلق عنانه بمثل العراض (أي المعارضة) .

وقال ذو النون رحمه الله: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة؛ ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة. فليسارع العبد إلى تحصيل حسن الخلق وتوطين النفس على الصبر على المكاره حتى يفوز مع الفائزين.

أقول:

فليكن المؤمن الذي يحب السلامة في دينه وعرضه غير مصاحب من يكون عمله مخالفاً للشريعة، ويشغله عن الذكر والطاعات ويشغله بما لا يعنيه، والإنسان إذا كان مع أهل الصلاة يأنس بما فيه صلاحه، لأن السمع والبصر والفؤاد مسؤول عنه بما سمع ورأى.

اللهم احفظنا جميعاً من المخالفات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إذا عُمِلَت الخطيئةُ في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها ». أخرجه أبو داود. فليس أكثرنا من الذين إذا نرى المنكر نغيّره، بل نسكت، ونكون شركاء فيه، نعوذ بالله من هذه الحالة لضعفنا، من كان إيمانه قويّاً لا يخاف إلا من مولاه لأنّه ناصره، وإذا سكت على ذلك المنكر، وعلى الأقل إذا لم يمنعه بلسانه، يكرهه بقلبه، فذلك أضعف الإيمان.

قال إبراهيم الخواص قُدِّسَ سِرُّه: دواء القلب خمسة:

١ - تلاوة القرآن بالتدبر.

٢ - خلاء البطن.

٣ - قيام الليل.

٤ - التضرع إلى الله.

٥ - مجالسة الصالحين.

فعليك بالمواظبة لهذه الخصال، لعلك تصل إلى التزكية.

اللهم وفقنا لذلك آمين. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِـــى أُعِــدَّتْ لِلْكَـــافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُـــواْ اللَّـــهَ وَالرَّسُـــولَ لَعَلَّكُـــمْ تُرْحَمُـــونَ } [آل عمران: ١٣٠ ــ ١٣٢] .

هذا نهي من الله تعالى لعباده المؤمنين فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً } نهاهم عن تعاطي الربا مع التوبيخ لما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه، قال ابن كثير: كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين، يقول الدائن: إما أن تقضي، وإما أن تربي! فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر، وهكذا كل عام؛ فربما تضاعف القليل، حتى يصير كثيراً مضاعفاً، قد مر تفصيلها في النداء العاشر من سورة البقرة.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه. واعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب، وأن الفلاح يتوقف عليه فلو أكل ولم يتق زال الفلاح؛ وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر، لا من الصغائر.

{ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي لتكونوا من الفائزين، وفي الآية تنبيه: ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيد ولا للشرط، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشنيع عليهم بأن في هذه المعاملة ظلماً صارخاً؛ وعدواناً مبيناً؛ حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة.

قال أبو حيان: نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالتزر اليسير مال المدين، وأشار بقوله: { مُّضَاعَفَةً } إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام، والربا محرم بجميع أنواعه؛ فهذه الحال ليس قيداً في النهي.

{ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } احذروا نار جهنم التي هُيئت للكافرين(١)، وفي الآيــة سؤال: هل تدل الآية على أن النار مخلوقة أم لا؟ الجواب: نعم، لأن قوله أعدت إخبار عن الماضي فلا بد أن يكون قد دخل ذلك الشيء في الوجود.

والمقصود من وصف النار بأنها أعدت للكافرين تعظيم للزجر وذلك لأن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي إذا علموا بأنهم متى فارقوا التقوى أُدخلوا النار المعدة للكافرين، وقــد تقــرر في عقولهم عظم عقوبة الكفار، كان انزجارهم عن المعاصي أتم وهذا بمنزلة أن يخوف الوالد ولــده بأنك إن عصيتني أدخلتك دار السباع ولا يدل ذلك على أن تلك الدار لا يدخلها غيرهم فكذا ههنا.

{ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطون وفيه تنبيه على أن النار معدة للكافرين وبالعرض للعصاة.

وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في أصناف محارمه. وهي الطبقة التي اشتد حرهــا، وتضــاعف عذابها وهي غير النار التي يدخلها عصاة أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم فإنها دون ذلــك وفيه إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر (أي صفة الكفر) .

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } أي: أطيعوا الله والرسول، لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله. ولما ذكر الوعيد، ذكر الوعد بعده على ما هو العادة المستمرة في القرآن العظيم، أي: أطيعوا الله في كل ما أمركم به، ونهاكم عنه، والرسول الذي يبلغكم أوامره ونواهيه، راجين

رحمته { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل عزة (عزّ الشيء: قلّ فـلا يكـاد يوجد) التوصل إلى ما جعل خبراً له.

قال القاشاني: ولا يخفى على الفطن ما فيه من المبالغة في التهديد على الربا، حيث أتى بلعل في فلاح من اتقاه، واجتنبه، لأن تعليق إمكان الفلاح ورجاءه بالاجتناب منه، يستلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه، ويتقوه مع إيمانهم. ثم أوعد عليه بالنار التي أعدت للكافرين مع كونهم مؤمنين، فما أعظمها من مصيبة توجب عقاب الكفار للمؤمنين، وما أشده من تغليظ عليه، ثم أمد التغليظ بالأمر بطاعة الله ورسوله تعريضاً بأن آكل الربا منهمك في المعصية لا طاعة له، ثم علـق رجـاء المؤمنين بطاعة الله ورسوله إشعاراً بأنه لا رجاء للرحمة معه، هذا النوع من العصيان، فهو يوجب اليأس من رحمته للمؤمنين لامتناعها لهم معه فانظر كيف درج التغليظ في التهديد، حـتى ألحقـه بالكفار في الجزاء والعقاب.

واعلم أن الربا يؤدي إلى الحرص على طلب الدنيا أضعافاً مضاعفة إلى ما لا يتناهى كما قـال عليه الصلاة والسلام: « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا التراب » والحرص درك من دركات النيران فلذا قال: { وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِـدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }.

فالحرص على الدنيا وسعيها وجمعها مذموم منهي عنه. والبذل والإيثار وترك الدنيا والقناعة فيها محمود مأمور به؛ يدل عليه قوله تعالى: { يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُـلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } .

روى أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة رحمه الله: أكثر ما ينزع الإيمان لأجل الذنوب من العبد عند الموت وأسرعها نزعاً للإيمان ظلم العباد، فاتق أيها المؤمن من الله، ولا تظلم عباد الله بأخذ أموالهم من أيديهم بغير حق، فإنه حوب كبير، عصمنا الله وإياكم من سوء الحال.

حرم الربا على العباد، ومنه إقراض الواحد باثنين تستردهما، وسأل منـــك القـــرض الواحـــد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخلق وإنما هو صفة الله سبحانه.

أقول:

احذر من نفسك أن تسوّل لك الحرام، وهذا الخطاب لك، فأنت تأبى أوَّلاً لأنك مؤمن، والإيمان صفتك. عليك بامتثال أمر الله، وانتبه من رقدة الغفلة، ودع الجمع والشّح والحرص على حطام الدنيا، والرزق مقسوم، ودائرة الحلال تكفينا، والخروج منها من سوء أدبنا، فاستح من الله حق الاستحياء، حتى تنال مقام المتقين الذين وعدهم الله بالجنة { إِنَّ الْمُـــتَّقِينَ فِـــى مَقَـــامٍ أَمِـــينٍ } [الدخان: ٥١] .

من ادعى المحبة بلا طاعة فدعواه باطلة ومردودة عليه.

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالطاعة والاتباع، إنه على كل شيء قدير، وسلام على المرســـلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على ســـيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٤٩ ــ ١٥٢] .

لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد، وما فيها من العبر والعظات، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية، بتثبيط عزائم المؤمنين.

وسبب النزول: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } إلى قوله: { مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا } يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ } أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يــأمرونكم به ، وفيه شروع في زجر المؤمنين من متابعة الكفار ببيان مضارها إثر ترغيبهم في الاقتداء، بأنصار الأنبياء عليهم السلام عند قوله: { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ } [آل عمران: ١٤٦]، وذلك ببيان فضــائله، وتصــدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه؛ ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافي تلك الطاعة؛ فيكون الزجر على أكمل وجه.

{ الَّذِينَ كَفَرُواْ } قيل: المراد أبو سفيان فإنه كان كبير القوم في ذلك اليوم قال السدي: المــراد أبو سفيان لأنه كان شجرة الفتن.

ومنهم من قال: المنافقون عبد الله بن أبي وأتباعه وهم الذين ألقوا الشبهات في قلوب الضعفة؛ وقالوا: لو كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما وقعت له هذه الواقعة، وإنما هو رجــل كسائر الناس، يوماً له ويوماً عليه فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه. ومنهم من قال: اليهود لأنه كان بالمدينة قوم من اليهود وكانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين، ولا سيما عند وقوع هــذه الواقعة.

وقوله: { إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ } لا يمكن حمله على طاعتهم في كل ما يقولونه بل لا بد من التخصيص. قيل: إن تطيعوهم في كل ما يأمرونكم من الضلال. وقيل: إن تطيعوهم فيما أمروكم به يوم أحد من ترك الإسلام وقيل: في المشورة. وقيل: في ترك المحاربة وهو قولهم: { لَّوْ كَــانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ }.

{ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَــبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ } أي: يردوكم إلى الكفر، فترجعوا إلى الخســران، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان. واعلم أن اللفظ لما كان عاماً وجب أن يـــدخل فيه خسران الدنيا والآخرة.

أما خسران الدنيا: فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد للعدو والتذلل له وإظهـــار الحاجة إليه.

وأما خسران الآخرة: فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد.

{ بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } بل للإضراب أي: ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم؛ بل الله ناصركم فأطيعوا أمره. والمعنى أنكم تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم وهذا جهل؛ لأنهم عاجزون متحيرون، والعاقل يطلب النصرة من الله تعالى، لأنه الذي ينصركم علـــى العدو، ويدفع عنكم كيده، ثم بين أنه خير الناصرين، ولو لم يكن المراد بقوله: { مَوْلاَكُمْ وَهُـــوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } النصرة، لم يصح أن يتبعه بهذا القول؛ وإنما كان تعالى خير الناصرين لوجوه:

الأول: أنه تعالى هو القادر على نصرتك في كل ما تريد، والعالم الذي لا يخفى عليـــه دعـــاؤك وتضرعك، والكريم الذي لا يبخل في جوده. ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في كـــل هذه الوجوه.

الثاني: أنه ينصرك في الدنيا والآخرة وغيره ليس كذلك.

الثالث: أنه ينصرك قبل سؤالك ومعرفتك بالحاجة كما قال: { قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [الأنبياء: ٤٢].

{ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ } بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعـــدائهم فقال: { سَنُلْقِى } أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع.

والإشارة: أن الله تعالى هو الذي يلقي الرعب والأمن والرغبة والرهبة وغير ذلـــك في قلـــوب العباد كما قال عليه السلام: « قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء » فعلى العبد أن يتضرع إلى الله، ويسأل منه الغلبة على النفوس الكافرة، خصوصاً النفس الأمارة، فإنه إن اتبـــع هواهـــا وأطاعها في مشتهاها ترده إلى أسفل سافلين البشرية فينقلب خاسراً.

{ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } أي بسبب إشراكهم بالله، وعبادهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ، وفيه إشارة بأن المُتَّبَعَ في باب التوحيد هو البرهـــان الســـماوي، دون الآراء والأهواء الباطلة، وسميت بذلك لأنه بها يتقوى على الخصم ويتسلط عليه.

{ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } أي مستقرهم النار وبئس مقام الظالمين نار جهنم، فهم في الدنيا مرعوبون، وفي الآخرة معذبون، وفي الحديث « نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر » .

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ } أي وَفّى الله لكم ما وعدكم به من النصـــر علـــى عدوكم، إذ تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه.

اعلم أن هذه الآية تتصل بما قبلها من وجوه منها:

أولاً: أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصـــابهم بأحد، قال الناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ فأنزل الله تعالى هـــذه الآية.

ثانياً: قال بعضهم : يجوز أن يكون هذا الوعد هو قوله: { سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّـذِينَ كَفَـرُواْ الرُّعْبَ } .

ثالثاً: قال أبو مسلم: لما وعدهم الله في الآية المتقدمة إلقاء الرعب في قلوبهم، أكد ذلـك بـأن ذَكَّرهُم ما أنجزهم من الوعد بالنصر في واقعة أحد، فإنه لما وعدهم بالنصرة بشـرط أن يتقـوا، ويصبروا فحين أتوا بذلك الشرط لا جرم وفّى الله تعالى بالمشروط، وأعطاهم النصرة، فلما تركوا الشرط لا جرم فاتهم المشروط.

{ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ } وقد ذكرنا في قصة أحد أن النبي صلى الله عليه وسلّم جعل أحـداً خلـف ظهره؛ واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا هناك ولا يبرحوا، سواء كانت النصرة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون، جعل الرماة يرشـقون نبلـهم، والبـاقون يضربونهم بالسيوف، حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يحسونهم. قال الليث: الحَسُّ: القتـل الذريع. تحسونهم تقتلونهم قتلاً كثيراً.

{ بِإِذْنِهِ } أي بعلمه ومعنى الكلام أنه تعالى لما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة، فما دمتم وافين بهذا الشرط أنجز وعده، ونصركم على أعدائكم، فلما تركتم الشرط، وعصيتم أَمْرَ رَبكم لا جرم زالت تلك النصرة.

{ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ } أي إذا جبنتم وضعفتم، واختلفتم في أمر المقام في الجبل.

{ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ } أي عصيتم أمر الرسول صلى الله عليه وسلّم بعد أن كان النصر حليفكم ، والمراد من التنازع: أنه عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن

مكانهم البتة، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير، فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، فقال عبد الله :عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان، فأبوا عليه، وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو التنازع. وهناك في هذه الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم ذكر الفشل على ذكر التنازع والمعصية؟

الجواب: إن القوم لما رأوا هزيمة الكفار، وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعاً في الغنيمة، ثم تنازعوا بطريق القول في أنّا هل نذهب لطلب الغنيمة أم لا؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة.

السؤال الثاني: لما كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصة بالبعض فلم جاء هذا العقاب باللفظ العام؟

الجواب: هذا اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه جاء المخصص بعده وهو قوله: { مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } .

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله: { مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ } .

الجواب: إن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية إنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم.

{ منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا } أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل { وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ثم استشهدوا.

{ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ } أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم(١) وقيل: يترل عليكم البلاء لتتوبوا إليه وتستغفروه وقيل: معناه ليختبركم وهو أعلم ليتميز المؤمن من المنافق، ومن يريد الدنيا ممن يريد الآخرة.

{ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } أي صفح عنكم مع العصيان، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم، ولهذا قال:{ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، أي ذو نعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ، فظاهره يقتضي تقدم ذنب منهم.

قال القاضي: إن كان ذلك الذنب من الصغائر صح أن يصف نفسه بأنه عفا عنهم من غير توبة، وإن كان من باب الكبائر، فلا بد من إضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن من أهل العفو والمغفرة.

واعلم أن الذنب لا شك أنه كان كبيرة، لأنهم خالفوا صريح نص رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام المسلمين، وقتل جمع عظيم من أكابرهم، ومعلوم أن كل ذلك من باب الكبائر، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة، لأن التوبة غير مذكورة، فصار هذا دليلاً على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر.

قال البيضاوي رحمه الله { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } تفضلاً ولما علم ندمهم على المخالفة فصار هــذا دليلاً على أنّه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر غير زعم المعتزلة (الشيخ زادة) .

وقال الجمل على الجلالين: { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } أي تفضلاً لما علم من ندمكم على المخالفة نقلاً عن أبي السعود. وقال الصّاوي: عفا على المؤمن منكم بعد توبته.

أقول: وعلى هذا وَهُمْ ــ رضي الله عنهم ــ خرجوا إلى الجهاد بنيّة خالصةٍ لوجه الله جلّ وعلا، وبعد هذا حصل ما حصل معهم بسبب اجتهادهم، فتنازعوا في الذهاب إلى الغنيمة، أو الثبات في الجبل، خالفوا واللهُ مُطّلع على نيّتهم؛ لأن هذه النيّة من أوّل الأمر كانت صحيحة، وإن لم تصرّح الآية الكريمة بتوبتهم، ولكن علم الله يكفي بنيّاهم الصحيحة فعفا عنهم، وفي آخر الآية يشهد الله على إيماهم قطعيّاً يقول : { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } فهم المؤمنون بشهادة الله على إيماهم وهم ــ الحمد لله ــ عفا عنهم ربّهم جلّ وعلا وإن لم تصــرّح بتوبتــهم الآيــة الكريمة، فقد يعفو الله عن بعض أصحاب الكبائر بدون توبة، يمكن أنّ هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلّم عفا عنهم بدون توبة، والمراد من هذا النّقل لنطّلــع على آراء المفسرين بتوبتهم، أو عدم توبتهم.

اعلم أن الصبر واليقين والتوكل على الله والاتقاء عن ميل الدنيا وزخارفها، ومخالفة الرســول صلى الله عليه وسلّم مستلزم لإمداد النصر والظفر. والفشل والتنازع والميل إلى الدنيا وعصيان الرسول صلى الله عليه وسلّم موجب للابتلاء، والصرف عن العدو، فمن أراد النصــرة علــى الأعداء الظاهرة والباطنة لا يسلك طريقاً غير ما عينه الشارع، ويرضــى بــالابتلاء ولا يغــتم لآخرته، بل يجد غم طلب الحق ألذ من نعيم الدنيا والآخرة، ويصبر على مقاساة الشدائد من باب

الدين ، عن علي كرم الله وجهه أنه قال: قلت لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم أبي بكر الصديق رضي الله عنه يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمَ نلت هذه المنزلة حتى سبقتنا سبقاً؟ فقال بخمسة أشياء:

أولها: وجدت الناس صنفين (مريد الدنيا ومريد العقبى فكنت أنا مريد المولى).

الثاني: مذ دخلت في الإسلام ما شبعت من طعام الدنيا؛ لأن لذة معرفة الله شغلتني عن لذائذ طعام الدنيا.

الثالث: مذ دخلت في الإسلام ما رُويت من شراب الدنيا، لأن محبة الله شغلتني عن شراب الدنيا.

الرابع: كلما استقبلني عملان عملُ الدنيا وعمل الآخرة اخترت عمل الآخرة على عمل الدنيا.

الخامس: صحبت النبي صلى الله عليه وسلّم فأحسنت صحبته.

أقول: ولذلك لم ينفك عن ملازمة صحبته ساعة حتى دخل معه في الغار، وقاسى ما قاسى من الشدائد في حقه صلى الله عليه وسلّم، ومع ذلك لم يزغ قلبه عن مواصلته قط، ولم يَهمَّ بمخالفته أصلاً.

قِيمَةُ كل أحد إرادتُه، فمن كانت همته الدنيا فقيمته خسيسة حقيرة كالدنيا، ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره، ومن كانت همته ربانية فهو سيد وقته.

أقول:

وبالله التوفيق: في الآية فائدة عظيمة لمن تفكر وتدبر، تشير الآية الكريمة أولاً: إلى أن إحاطة علم الله شاملة لجميع الأشياء، وهو مطلع على نيّات عباده وما في ضمائرهم من الإخلاص مع إرادة الدنيا، أو الإخلاص المجرد مع قطع النظر عن الدنيا وهم يريدون وجهه تعالى فقط.

فاللائق بالإنسان أن يراقب قلبه، ولا يزكي نفسه، لأنه لا يَعرفُ المصلحَ من المفسد، ويحسب أنّه يحسن صنعاً، وهذا حال أكثر الخلق إلا من عصمه الله، فهم لا يميزون بين القبيح والحسن، ولا بين الحسن والأحسن، ولا يخرجون من صفات النفس الأمارة لأن (من عرف نفسه فقد عرف ربه) حتى يطلعوا على حقيقة اليقين، ويدخلوا في مقام الإحسان الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فيقفون مع صفات الله من العلم، والقدرة، والسمع، والبصر بأن الله قادر، سميع، بصير، يرى، ويسمع ما في الضمائر، لا يخفى على الله شيء، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فكان مصيرهم كما قال تعالى: { وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ } أي: من العود إلى الدنيا أو كما قال الفخر الرازي إلى لذائذ الدنيا ونعيمها فكانت الدنيا مانعة لهم حتى يكونوا مع الصادقين الذين حثهم الله على صحبتهم بقوله: { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } الكينونة معهم ليستفيدوا من سلوكهم، وأحوالهم ونصائحهم، ودعائهم، إذ إن أمور الدين تكون سهلة معهم لأنهم الوارثون المأذونون لهذا الشأن.

فإن قيل: نحن نعلم الأحسن من غيره ولسنا بحاجة إلى صحبة الصادقين الصالحين نقول: ليس هناك أحد أفضل على الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعد النبيين صلوات الله عليهم. اسمع ما قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلّم يريد الدنيا حتى كان يوم أُحد) ونزلت الآية الكريمة: { مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } فهؤلاء يقتبسون من أنوار الرسول صلى الله عليه وسلّم وأخلاقه القرآنية مع يقينهم الصادق، وهم كالنجوم يهتدى بهم، وقال الله في حقهم: { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ١٠٠]، انظر كيف عاتبهم الله في مخالفة واحدة، وآخذهم بمخالفة واحدة، فعلى المؤمن أن يحذر المخالفة في اتباع الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلّم وسنته بحسب الوسع، والاستطاعة، وأن يختار أمره وطاعته على هوى نفسه، قال تعالى: { وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ } [الحشر: ٧]، وقال تعالى: { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور: ٦٣] وعليه ألا يترك سبيله ومنهجه كي ينال شفاعته صلى الله عليه وسلّم إن شاء الله.

اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } [آل عمران: ١٥٦ ـــ ١٥٨] .

اعلم أن المنافقين كانوا يعيرون المؤمنين في الجهاد مع الكفار بقولهم: { لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا } ثم إنه لما ظهر عن بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يومَ أُحد ما وقع وعفا الله بفضله عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهي على أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقالتهم فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد لو لم تخرجوا لما متم وما قتلتم فإن الله هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد وهو المراد من قوله: { وَاللَّهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ } وأيضاً الذي قتل في الجهاد لو أنه ما خرج إلى الجهاد لكان يموت لا محالة فإذا كان لا بد من الموت فَلأَنْ يقتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم كان ذلك خيراً له من أن يموت من غير فائدة وهو المراد من قوله: { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } فهذا هو المقصود من الكلام.

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ } اختلفوا في المراد بقوله: { كَالَّذِينَ كَفَرُواْ } قال بعضهم: هو على إطلاقه فيدخل فيه كل كافر يقول مثل هذا القول سواء كان منافقاً أو لم يكن.

وقال آخرون: إنه مخصوص بالمنافقين لأن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مختصة بشرح أحوالهم أي عبد الله بن أبيّ وأصحابه.

وعلى هذين القولين فالآية تدل على أن الإيمان ليس عبارة عن الإقرار باللسان إذ لو كان كذلك لكان المنافق مؤمناً ولو كان مؤمناً لما سماه الله كافراً.

{ وَقَالُواْ لإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى }أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب أو خرجوا غازين في سبيل الله.

وقيل: إخوانهم في النفاق والكفر وقيل: لإخوانهم في النسب وكانوا مسلمين. والمعنى إذا ضربوا في الأرض فماتوا أو كانوا غزى فقتلوا ، وجعلوا ذلك سبباً لتنفير الناس عن الجهاد وذلك لأن في الطباع محبة الحياة وكراهية الموت والقتل.

وفيه فائدة أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور الكلام، بل المقصود الإخبار عن جدهم واجتهادهم في تقرير هذه الشبهة.

{ لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ } أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى رداً عليهم: { لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ } أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم. ويوم القيامة لما هم فيه من الخزي والندامة، ولما فيه المسلمون من النعيم

والكرامة { وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ } رد على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي والمميت فلا يمنع الموت قعود فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد وأما المسلم الذي يعتقد أن الموت والحياة لا يكون إلا بتقدير الله تعالى وقدره وقضائه لا يحصل في قلبه هذه الحسرة.

أقول: ولا تأثير لشيء آخر في الحياة والموت، وإن علم الله لا يتغير وإن حكمه لا ينقلب وإن قضاءه لا يتبدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ } أي استشهدتم في الحرب والجهاد أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم.

{ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني أي خير من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم فإن قيل كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلاً؟ قلنا: إن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من باب الحلال الذي يعد خيراً وأيضاً هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات فقيل المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

{ وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } أي سواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته وهنا وعظٌ وعظهم الله بهذا القول، أي لا تفروا من القتال ومما أمركم

به، بل فروا من عقابه وأليم عذابه، فإن مردكم إليه لا يملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً غـــيره والله سبحانه وتعالى أعلم.

واعلم أن في قوله: { لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } دقائق.

أحدها: أنه لم يقل تحشرون إلى الله بل قال لإلى الله تحشرون، وهذا يفيد الحصر معنـــاه إلى الله يحشر العالَمُون لا إلى غيره، وهذا يدل على أنه لا حاكم في ذلك اليوم ولا ضار ولا نافع إلا هو قال تعالى: { لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر: ١٦] .

ثانيها: أن قوله تحشرون فعل ما لم يسم فاعله، مع أن فاعل ذلك الحشر هو الله وإنمـــا لم يقـــع التصريح به لأنه تعالى هو العظيم الكبير الذي شهدت له العقول بأنه هو الله الذي يبدىء ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة، فترك التصريح في مثل هذا الموضوع أدلُّ على العظمة، ونظـــيره قولـــه تعالى: { وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ } .

ثالثها: أنه أضاف حشرهم إلى غيرهم وذلك ينبه العقل على أن جميع الخلق مضطرون في قبضة القدرة، ونفاذ المشيئة، فهم سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً لا يخرجون عن قهر الربوبيـــة وكبريـــاء الإلهية.

رابعها : أن قوله تحشرون خطاب مع الكل، فهو يدل على أن جميع العالمين يحشرون ويوقفون في عرصة يوم القيامة وبساط العدل، فيجتمع المظلوم مع الظالم ، والمقتول مع القاتل ، والحق سبحانه وتعالى يحكم بين عبيده بالعدل المبرأ عن الجور كما قال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَـــمَةِ} [الأنبياء: ٤٧] فمن تأمل في قوله تعالى لإلى الله تحشرون وساعده التوفيق علم أن هذه الفوائـــد التي ذكرناها كالقطرة من بحار الأسرار المودعة في هذه الآية.

واعلم أنه سبحانه وتعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالحشر إلى مغفرة الله وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدرجات فرغبهم ههنا بالحشر إلى الله، يروى أن عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه مر بأقوام نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم، ورأى عليهم آثار العبادة، فقال ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب الله فقال: هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه، ثم مر بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا: نطلب الجنة والرحمة، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ثم مر بقوم ثالث ورأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا: نعبده لأنه إلهنا ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحقون.

فانظر في ترتيب هذه الآيات فإنه:

قال في الآية الأولى: { لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ } وهو إشارة إلى من يعبده خوفاً من عقابه ثم قال : { وَرَحْمَةٌ } وهو إشارة إلى من يعبده لطلب ثوابه. ثم قال في خاتمة الآية: { لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } وهو إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية، وهذا أعلى المقامات وأبعد النهايات في العبودية في علو الدرجة.

أقول:

في الآية إشارة إلى أن بين الحشر إلى الله، وإلى مغفرة الله فرقاً كبيراً، والمؤمن الكامل لا بد له أن يعمل الطاعات مجرداً لمحبة الله ولمقام الربوبية، لأنه لاحَظَّ فيه للنفس، والتفضل من رحمته جل وعلا ولأن الأعمال الصالحة لمجرد المحبة ولمقام الربوبية إنما تكون بالمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة. والتي تكون للثواب قلما تكون خالية من الحظوظ النفسانية. ولأن من يعبد الله لحق الربوبية

فكذلك يجمع الثواب والمغفرة لكن من غير قصد منه، لأن مشاهدة الله تعالى لا تكون إلا في الجنة لذا قال البعض:

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أريدها لأراكا اللهم ارزقنا محبتك، ومحبة رسولك الأعظم صلى الله عليه وسلّم، آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [آل عمران: ٢٠٠] .

اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواعاً كثيرة من علوم الأصول والفروع ، أما الأصول : ففيما يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد.

وأما الفروع : ففيما يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرهما ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان: منها ما يتعلق به حده.

ومنها ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره.

أما القسم الأول فلا بد فيه من الصبر، وأما القسم الثاني فلا بد فيه من المصابرة، أما الصبر فيندرج تحته أنواع:

أولها: أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين (وهذا الخامس فرض كفاية).

ثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات.

ثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات.

رابعها: الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها من المرض والفقر والقحط والخوف.

فقوله: { اصْبِرُواْ } الصبر هو الحبس وهو حض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات. يدخل تحته هذه الأقسام التي مرّ ذكرها وتحت كل واحدة من هذه الأقسام الثلاثة أنواع لا نهاية لها.

وقوله: وأمّا المصابرة فيه عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بينه وبين الغير ويدخل فيه تحمل الأخلاق الردية من أهل البيت والجيران والأقارب ويدخل فيه ترك الانتقام ممن أساء إليك كما قال: { وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ } وقال: { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً }، ويدخل فيه الإيثار على الغير كما قال تعالى: { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }، ويدخل فيه العفو عمن ظلمك، كما قال: { وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن المقدم عليه ربما وصل إليه بسببه ضرر. فثبت أن:

قوله: { اصْبِرُواْ } تناول كل ما تعلق به وحده.

{ وَصَابِرُواْ } تناول كل ما كان مشتركاً بينه وبين غيره.

واعلم أن الإنسان وإن تكلف الصبر والمصابرة إلا أن فيه أخلاقاً ذميمة تحمل على أضـــدادها وهي الشهوة والغضب والحرص، والإنسان ما لم يكن مشتغلاً طول عمره بمجاهدتها وقهرهـــا لا يمكنه الاتيان بالصبر والمصابرة فلهذا قال تعالى:

{ وَرَابِطُواْ } ولما كانت هذه المجاهدة فعلاً من الأفعال، ولا بد للإنسان في كل فعل يفعله مـــن داعية وغرض وجب أن يكون للإنسان في هذه المجاهدة غرض وباعث وذلك هو تقوى الله لنيل الفلاح والنجاح.

فلهذا قال: { وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

وتمام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هو القِوَى، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة وذلك عبارة عن الإتيان بالأفعال الحسنة، والاحتراز عن الأفعال الذميمة وذلك هو المراد بالمرابطة، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات وذلك هو تقوى الله، ثم ذكر ما لأجلـــه وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق وهو الفلاح، فظهر أن هذه الآية التي هـــي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية، وأنها على اختصارها كـــالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع فهذا ما عندي فيه.

وقيل: { وَصَابِرُواْ } أي غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب وأعـــدى عـــدوكم في الصبر على مخالفة الهوى.

والمصابرة: نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته وكونه أكمل وأفضل من الصبر على ما سواه. والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله.

وأوله التصبر وهو التكلف لذلك، ثم المصابرة وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار (الدوام على الصبر) والاعتبار والالتزام ثم الصبر وهو كماله وحصوله من غير كلفة.

{ وَرَابِطُواْ } أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام: « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » أخرجه ابن مردويه والحاكم.

وعن عبد الله بن عمرو: أن النبي صلى الله عليه وسلّم صلى ذات ليلة المغرب فصلينا معه فعقب من عقب ورجع من رجع، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبل أن يثوب (أي يتوجه) الناس لصلاة العشاء فجاء وقد حضره الناس رافعاً إصبعه وقد عقد تسعاً وعشرين يشير بالسبابة إلى السماء فحسر ثوبه عن ركبته وهو يقول: أبشروا معشر المسلمين هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة يقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي هؤلاء قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي واتقوه بالتبري مما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح أو اتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مكاره الطاعات ومشاقها

ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد (لترقب) الـــواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة ، اللهم وفقنا للعمل بهذه النصيحة ووفقنا لما تحبه وترضاه.

أقـــول:

لا بد عليك أن تأخذ بالأوصاف التي وصف الله بها عباده في القرآن الكريم وهي ستة أوصاف للمؤمنين المفلحين فقال تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } .

الوصف الأول: بقوله {الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَـــشِعُونَ } .

الوصف الثاني: بقوله {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُّعْرِضُونَ } .

الوصف الثالث: بقوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } .

الوصف الرابع: بقوله { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذلِكَ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } .

الوصف الخامس: بقوله { وَالَّذِينَ هُمْ لاَِمَـــنَـــتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } .

الوصف السادس: بقوله { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ } .

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلّم فضل تطبيق هذه الصفات التي ذكرت في عشر آيات من أوائل سورة المؤمنون.

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم الوحي يُسمَعُ عند وجهه دوي كدوي النحل، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: « اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا » ثم قال لقد أُنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } حتى ختم العشر. أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً } [النساء: ١٩] .

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً } أي لا يحل لكم أن تجعلوا النســـاء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها غيرهم وأخذوا صداقها، وإن شاؤوا منعوها الزواج.

إن أهل الجاهلية كانوا يؤذون النساء بأنواع كثيرة من الإيذاء ويظلموهن بضروب الظلم فالله تعالى نهاهم عنها في هذه الآيات.

{ وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ } أي ولا يحل لكم أن تمنعوهن مـــن الـــزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصداق.

أقول: ودخلت المسألتان تحت العدل كما فسر في بداية تفسير ولا تعضلوهن حيث أشـــار إلى هذه الصورة بـــ «أو» والعضل: المنع والمخاطب في قوله: { وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ } من هو؟ فيه أقوال:

الأول: أن الرجل منهم قد كان يكره زوجته ويريد مفارقتها، فكان يسيء العشرة معها ويضيق عليها حتى تفتدي منه نفسها بمهرها، وهذا القول اختيار أكثر المفسرين، فكأنه تعالى قال: لا يحل لكم التزوج بهن بالإكراه وكذلك لا يحل لكم بعد التزوج بهن العضل والحبس لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن.

الثاني: أنه خطاب للوارث بأن يترك منعها من التزوج بمن شاءت وأرادت كما كان يفعله أهل الجاهلية، وقوله: { لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ } معناه أهم كانوا يحبسون امرأة الميت وغرضهم أن تبذل المرأة ما أخذت من ميراث الميت.

الثالث: أنه خطاب للأولياء ونهي لهم عن عضل المرأة.

الرابع: أنه خطاب للأزواج، فإنهم في الجاهلية كانوا يطلقون المرأة وكانوا يعضلونهن عن التزوج ويضيقون الأمر عليهن لغرض أن يأخذوا منهن شيئاً.

الخامس: أنه عام في الكل.

قوله: { إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ } أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان.

قوله: { وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } أي: صاحبوهن بما أمركم الله به من طَيِّبِ القول والمعاملة بالإحسان. والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة والمراد ههنا النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في القول ونحو ذلك.

{ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً } أي فإن كرهتم صحبتهن فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقرّ به أعينكم، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث: « لا يَفرُك - أي لا يبغض - مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » ، فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير، وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم.

اعلم أن معاشرهن بالمعروف والصبر عليهن فيما لا يخالف رضى الله تعالى، وإلاَّ فالرد من مواضع الغيرة واجب، فإن الغَيْرة من أخلاق الله وأخلاق الأنبياء والأولياء. قال عليه الصلاة والسلام: « أتعجبون من غيرة سعد وأنا أغير منه والله أغير مني وَمِنْ أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » أي ما كان من أعمال الظاهر وهو ظاهر، وأحوال الباطن وهو الركون إلى غير الله، والطريق المنبيء عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال، ولا تخرج هي إلى الأسواق دون الحمّام.

قال الإمام قا خان (وهو مِنْ أهل الترجيح في مذهب الأحناف): دخول الحمّام مشروع للرجال والنساء خلافاً لما قاله البعض.

رُوِيَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم دخل الحمّام وتنوّر (تطلّى بالنّورة والنورة ما يستعمل في الحمام من الأتربة)، وخالد بن الوليد دخل حمّام حمص؛ لكن إنما يباح إذا لم يكن فيه إنسان يكشف العورة، والناس في زماننا لا يمتنعون عن كشف العورة أعاليهم وأسافلهم، فالمتقي يجتنب دخول الحمام من غير عذر.

والحاصل أن المرأة إذا برئت من مواقع الخلل واتصفت بالعفة فعلى الزوج أن يعاشرها بالمعروف ويصبر على سوء خلقها وسائر أوضاعها بخلاف ما إذا كانت غير ذلك.

ثم اعلم أن معاملة النساء أصعب من معاملة الرجال لأنهن أرق ديناً وأضعف عقلاً، وأضيق خُلقاً فحسن معاشرهن والصبر عليهن مما يحسن الأخلاق وكان عليه الصلاة والسلام يحسن المعاشرة مع أزواجه المطهرة ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة فلتراجع تفسير ابن كثير.

أقـــول:

عاشروهن بالمعروف فكما تكون هذه الزوجة رفيقتك في الدنيا الفانية تحبها لحسنها، أو لمالها، أو لمودتها، أو للحظوظ النفسانية، لا بد عليك أن تحب دينها كي يحفظها الله من العذاب حتى تكون الرفيقة في الجنة، وإلا تكنْ خائناً في أداء الأمانة التي ائتمنت عليها وقد قال تعالى: { وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً } [الروم: ٢١] .

وقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } [التحريم: ٦] والصابر علـــى أخلاقهن يعد مـــن المجاهـــدين فـــلا تتـــرك هـــذه المجاهـــدة حـــتى تـــدخل تحـــت قولـــه: { وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت: ٦٩] .

أما الغيرة الشرعية فلا يصبر عليها والأخلاق الباقية فهي من الطبيعة البشرية.

وفقنا الله والمسلمين إلى تطبيق الأحكام الشرعية آمين، وسلام على المرسلين، والحمـــد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً } [النساء: ٢٩ ــ ٣١] .

حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ، وأما أكل مال نفسه بالباطل فهو إنفاقه في معاصي الله، وأما أكل مال غيره فقد عددناه.

قال القاضي: لما ذكر ابتغاء النكاح بالأموال وأمر بإيفاء المهور والنفقات، بيّن من بعد كيف التصرف بالأموال فقال : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } وفي الآية مسألتان:

الأولى: خصّ الأكل بالذكر لما أن المقصود الأعظم في الأموال الأكل، ونظيره قوله تعالى : { يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً } .

الثانية: الباطل اسم لكل ما لا يحلّ في الشرع كالربا والغصب.

قوله: { إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } أي إلا ما كان بطريق شرعي كالتجارة التي أحلّها الله. قال ابن كثير: الاستثناء منقطع، أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها.

واعلم أن أكل المال بالباطل مما يفسد دين الرجل ودنياه بل يضر نفسه ويكون سبباً لهلاكه، فإن بعض الأعمال يظهر أثره في الدنيا. وتلحق بالتجارة أسباب الملك المشروعة كالهبة والإرث والصدقة والعقود الجائزة لخروجها عن الباطل.

{ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } أي لا يسفك بعضكم دم بعض والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم.

وإنما قال أنفسكم لقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون كنفس واحدة» ولأن العرب يقولون: قُتِلْنَا ورَبِّ الكعبة إذا قتل بعضهم لأن قتل بعضهم يجري مجرى قتلهم وقيل لا تفعلوا ما تستحقون القتل من القتل والردة والزنا بعد الإحصان.

{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } ثم بين تعالى أنه رحيم بعباده، ولأجل رحمته نهاهم عن كل ما يستوجبون به مشقة أو محنة، وقيل: إنه تعالى أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلّم رحيماً، حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

{ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً } أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأ فسوف ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها.

{ عُدْوَناً وَظُلْماً } أي إفراطاً في التجاوز عن الحد وإتياناً بما لا يستحقه وقيل: أريد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم: الظلم على النفس لتعريضها للعقاب فيحمل الظلم على ما إذا كان قصده التعدي على تكاليف الله.

{ وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، قال الإمام: واعلم أن الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله على السوية وحينئذ يمتنع أن يقال أن بعض الأفعال أيسر عليه من بعض بل هذا الخطاب نزل على القول المتعارف بيننا أو يكون معناه مبالغة في التهديد وهو أنّ أحداً لا يقدر على الهرب منه ولا على الامتناع عليه. كقوله تعالى : { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم: ٢٧] .

فعلى العاقل أن يتجنب الوقوع في المهالك ويبالغ في حفظ الحقوق وقد جمع الله في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لأنه شقيقها من حيث إنه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها.

{ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } أي إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عنها نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا.

والكبيرة: كل ذنب رتب الشارع عليه الحدّ أو صرح بالوعيد فيه وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم تعملون اليوم أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رســـول الله صلى الله عليه وسلّم من الكبائر.

قال البيضاوي: والفاسق في الشرع الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبائر. وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبال بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها.

فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع رِبقَة الإيمان من عنقه ولابس الكفر، وما دام هـــو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمـــان لقوله تعالى: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ } ولكن إنهما نفاق عملي.

وقال شيخ زادة في حاشيته على البيضاوي قوله: (والفاسق في الشرع الخارج عن أمر الله) أي بترك الامتثال له وهو يتناول الخارج عن نهيه أيضاً إما بتأويل النهي عن الشيء بالأمر بالامتنـــاع عما نهى عنه، أو بأن يراد بالأمر الأمر المعهود المذكور بقوله سبحانه وتعـــالى: { أَطِيعُـــواْ اللَّـــهَ وَالرَّسُولَ } ولا شك أن الإطاعة تتناول الإطاعة في جميع التكاليف أمراً كان أو نهياً، وإن مـــن ارتكب شيئاً من الكبائر كفراً كان أولا قد خرج عن طاعة الله تعالى.

قال صاحب النهاية في تفسير الكبير: إن ما كان شنيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الله تعالى والدين فهو كبيرة وإلا فهو صغيرة. وذكر المصنف (أي القاضي) رحمه الله لارتكاب الكبيرة ثلاث درجات:

الأولى: التغابي، وهو من الغباوة التي هي قلة الفطنة.

الثانية: الانهماك في الأمر: الجد واللجاج فيه.

الثالثة: الجحود ويقال شارفت الشيء إذا اطلعت عليه وأتيته من فوقه ومطلع الأمر مأتاه، والخطط جمع خِطة وهي الأرض يختطها الرجل لنفسه، وهو أن يعلّم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد اختارها ليبنيها داراً. والربق حبل فيه عدة عرى يشد بها البهم وفي الحديث: « خلع ربقة الإسلام من عنقه » قوله، لقوله تعالى: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ } دليل على أن اسم المؤمن لا يسلب عمن ارتكب الكبائر بدون جحود فإن الاقتتال كبيرة مع أنه سبحانه وتعالى أطلق على لفظ الاقتتال لفظ المؤمنين.

والكبائر على لسان أهل العلم ههنا الشرك بالله، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشرك الخفي ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق واستحلاء قبولهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد فهو بعيد عن التكفير، ويقال أكبر الكبائر إثباتك نفسك فإذا شاهدت نفيها تخلصت من أسر المحن.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم الكبائر فقال : « الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس. وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور أو قال شهادة الزور ». عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ».

قال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنارٍ أو غضب أو لعنة أو عذاب.

روي عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس الكبائر سبع، قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع ولكن لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار والأحاديث في هذا الباب كثيرة من أراد فليراجع.

{ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً } أي ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اعلم أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر، وعند انتفاء الصغائر والكبائر يمكن الدخول في المدخل الكريم وهو حضرة أكرم الأكرمين، { فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ }، اللهم ارزقنا الصدق آمين.

أقول: إن الإنسان خلق ضعيفاً كما قال تعالى: { وَخُلِقَ الإِنسَـٰنُ ضَعِيفاً } عاجزاً عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه. إشارة إلى أن الإنسان لا يصبر عن الله لحظة لضعفه مهما كان على الفطرة الإنسانية فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإنه يحبهم ويحبونه، وهو ممدوح بهذا الضعف.

واعلم أن هذا الضعف سبب لكمال الإنسان وسعادته، وسبب لنقصانه وشقاوته، لأنه يـــتغير لضعفه من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة فيكون ساعة بصفة بهيمية يأكل ويشرب ويجـــامع، ويكون ساعة بصفة ملك يسبح بحمد ربه ويقدس له ويفعل ما يؤمر ولا يعصي فيما نهاه عنه وهذه التغيرات من نتائج ضعفه، وليس هذا الاستعداد لغيره حتى الملك لا يقدر أن يتصف بصـــفات البهيمة، والبهيمة لا تقدر أن تتصف بصفات الملك وعلى هذا خص الإنسـان بهـــذا الضـــعف لاستكماله بالتخلق بأخلاق الله.

أقـــول:

إن كل ذنب عمله العبد بجهالة؛ فإذا اطلع عليه فاعله، وندم واستغفر ورجع إلى الله تعالى، سواء كان هذا الذنب كبيراً أو صغيراً فهو معفو عنه عند الله تعالى بنص قرآني.

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـــئِكَ يَتُوبُ اللَّـــهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [النساء: ١٧] .

تدل هذه الآية على أن المعاصي إن عُملت بجهالة، وهو أرحم الراحمين كيف يعاقبه عليها وقـــد تاب وأناب واسغفر!

فعلى العاقل المنور أن لا يفعل المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة، إذ ربما يكون تحت هـــذه الصغيرة غضب الله فتنال بها غضب الله جل جلاله، لأن هذه الصغيرة عُملت بإصرار في ظاهرك، وعن علم في باطنك كما في قوله تعالى : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ } [النساء: ١٨] والله ينظر إلى قلبك، فذلك هو المعتبر عنده

جل وعلا، فيرى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أنك عملتها بدون جهل، مع العلم بها والتمادي فيها، وتأجيل التوبة ليس من شأن الإيمان والخشية من الله تعالى.

والإنسان من طبيعته الغفلة، ومن مقتضى إيمانه التنبه والندامة على المعاصي، إذ يمكن على هذه الحال أن تكون الكبيرة صغيرة إذا صاحبتها التوبة العاجلة، والصغيرة كبيرة إذا صاحبها الإصرار، ولا بد للمؤمن أن لا يسوف التوبة، ولا يكون مصراً على الصغائر، نسأل الله السلامة من كل ذنب مخالف لرضى الله، ورضى رسوله، سواء كان قولاً أو فعلاً.

اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُواْ وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً } [النساء: ٤٣] .

أمر تعالى باجتناب الصلاة في حال السكر والجنابة فقال { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلَوةَ وَأَنتُمْ سُكَـــرَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ } أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتـــأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى وقد كان هذا قبل تحريم الخمر.

روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فـــدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلاة حتى نزلت: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــواْ إِنَّمَـــا الْخَمْـــرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـــونَ } إلى قولـــه : { فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ } فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

{ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ } في لفظ الصلاة قولان:

أحدهما: المراد منه المسجد وهو قول ابن مسعود والحسن وإليه ذهب الشافعي.

الثاني: المراد بالصلاة في هذه الآية نفس الصلاة أي لا تصلوا إذا كنتم سكارى واعلم أن فائدة الخلاف تظهر في حكم شرعي، وهو أن التقدير الأول: يكون المعنى لا تقربوا المســـجد وأنـــتم سكارى ولا جنباً إلا عابري سبيل وعلى هذا الوجه يكون الاستثناء دالاً على أنه يجوز للجنـــب العبور في المسجد وهو قول الشافعي.

وأما على القول الثاني: يكون المعنى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ولا تقربوها حال كـــونكم جنباً إلا عابري سبيل، والمراد بعابر السبيل المسافر فيكون هذا الاستثناء دليلاً على أنـــه يجـــوز للجنب الإقدام على الصلاة عند العجز عن الماء، (بالتيمم).

{ وَأَنتُمْ سُكَارَى } فيه قولان:

الأول: المراد منه السكر من الخمر وهو نقيض الصحو وهو قول الجمهـــور مـــن الصـــحابة والتابعين.

الثاني: المراد منه سكر النوم ولا شك أن عند النوم تمتلىء مجاري الروح من الأبخـــرة الغليظـــة فتسد تلك المجاري بها، ولا ينفذ الروح الباصر والسامع إلى ظاهر البدن. قـــال عليـــه الصـــلاة والسلام: « إذا نعس أحدكم وهو في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإنه إذا صلى وهـــو ينعس لعله يذهب ليستغفر فيسب نفسه ».

واعلم أن الصحيح هو القول الأول ويدل عليه وجهان:

الأول: لفظ السكر حقيقة في السكر من شرب الخمر.

الثاني: إن جميع المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في شرب الخمر وقال بعضهم هذه الآية منسوخة بآية المائدة، وأقول: الذي يمكن ادعاء النسخ فيه أنه يقال نهى عن قربان الصلاة حـــال السكر ممدوداً إلى غاية أن يصير بحيث يعلم ما يقول، والحكم ممدود إلى غاية يقتضي انتهاء ذلك الحكم عند تلك الغاية، فهذا يقتضي جواز قربنا الصلاة مع السكر إذا صار بحيث يعلم ما يقول،

ومعلوم أن الله تعالى لما حرم الخمر بآية المائدة فقد رفع هذا الجواز فثبت أن آية المائدة ناسخة لبعض مدلولات هذه الآية.

{ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ } أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بانزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحال بالتيمم ، { جُنُباً } وقيل للذي يجب عليه الغسل: جنب لأنه يجتنب الصلاة والمسجد وقراءة القرآن حتى يتطهر.

{ إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ } فيه قولان:

الأول: هذا العبور المراد منه في المسجد.

الثاني: المسافرون.

{ وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً } أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء.

{ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ } قال ابن عباس: هو الجماع.

{ فَلَمْ تَجِدُواْ } أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به.

{ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ } أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ويجب مسح اليدين إلى المرفقين

بدلالة الإجماع. اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أصنافاً أربعة: المرضى، والمسافرين، والذين جاؤوا من الغائط، والذين لامسوا النساء.

فالقسمان الأولان يلجئان إلى التيمم وهما المرض والسفر. والقسمان الأخيران يوجبان التطهر بالماء عند وجود الماء وبالتيمم عند عدم الماء.

ونحن نذكر حكم كل واحد من هذه الأقسام:

أما السبب الأول: { وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى } وهو المرض فاعلم أنه على ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون بحيث لو استعمل الماء لمات كما في الجدري الشديد والقروح العظيمة.

ثانيها: أن لا يموت باستعمال الماء ولكنه يجد الآلام العظيمة.

ثالثها: أن لا يخاف الموت والآلام الشديدة، لكنه يخاف بقاء شين أو عيب في البدن فالفقهاء جوزوا التيمم في القسمين الأوليين وما جوزوه في القسم الثالث.

السبب الثاني: وهو السفر والآية تدل على أن المسافر إذا لم يجد الماء تيمم طال سفره أو قصر.

السبب الثالث: قوله: { أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الْغَآئِطِ } والغائط المكان المطمئن من الأرض وجمعه الغيطان، وكان الرجل إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطاً من الأرض يحجبه عن أعين الناس، ثم سمي الحدث بهذا الاسم تسمية للشيء باسم مكانه.

السبب الرابع: قوله { أَوْ لاَمَسْتُمُ } فيه قولان:

أولاً: المراد منه الجماع وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وقول أبي حنيفة رضـــي الله عنه لأن اللمس باليد لا ينقض الطهارة.

الثاني: أن المراد باللمس ههنا التقاء البشرتين. سواء كان بجماع أو غيره وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي، وقول الشافعي رضي الله عنه، وفي كل واحد منهما دليـــل مـــن القرآن.

{ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً }، وعدم الوجدان مشعر بسبق الطلب. وأجمعوا على أنه لو وجد الماء لكنـــه يحتاج إليه لعطشه أو عطش حيوان محترم جاز له التيمم، أما إذا وجد من الماء ما لا يكفيه للوضوء فهل يجب عليه أن يجمع بين استعمال ذلك القدر من الماء وبين التيمم؟ وقد أوجبه الشافعي رضي الله عنه متمسكاً بظاهر لفظ الآية.

{ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً } وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التيمم في اللغة عبارة عن القصد وأما الصعيد قال الزجاج وجه الأرض تراباً كان أو غيره.

المسألة الثانية: قال أبو حنيفة رضي الله عنه لو فرضنا صخراً لا تراب عليه فضرب المتيمم يده ومسح كان ذلك كافياً. وقال الشافعي رضي الله عنه بل لا بد من تراب يلتصق بيده.

والصعيد الطيب هو الأرض التي لا سبخة (إذا كانت مملوحة لا يمكن أن تنبت) فيها ولا شك أن التيمم بهذا التراب جائز بالإجماع. فوجب حمل الصعيد الطيب عليه رعاية لقاعدة الاحتياط، ولا سيما وقد خصص النبي صلى الله عليه وسلّم التراب بهذه الصفة فقال: « جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً ».

{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً } أي يرخص ويسهل على عباده لئلا يقعوا في الحرج(١)، فإن من عادته تعالى المستمرة أن يعفو عن الخطائين ويغفر للمذنبين، لا بد من أن يكون ميسراً لا معسراً (أقول بل لا بد أن نكون مستحيين حق الاستحياء) .

والإشارة أن الصلاة معراج المؤمن وميقات مناجاته، والمصلي هو الذي يناجي ربه. يعني يا مدعي الإيمان { لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى } أي لا تجدوا القربة في الصلاة وأنتم سكارى من الغفلات وتتبع الشهوات، لأن كل ما أوجب للقلب الذهول عن الله عز وجل، فهو ملتحق بالسكر، ومن أجله جعل السكر على أقسام:

فسكر من الخمر، وسكر من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا، وأصعب السكر سكرك من نفسك.

أقــول:

السكر على أربعة أقسام:

سكر بالخمر، وسكر بالدنيا، وسكر بالهوى، وسكر بمحبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلّم.

الأول: سكر الخمر: فقد نهى الله عنه بالآية الكريمة { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

الثاني: سكر بالدنيا: نبه الله تعالى عليه بقوله: { فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }. وقوله: { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ }.

الثالث: سكر بالهوى: بقوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ } .

الرابع: سكر بمحبة الله ورسوله: بقوله تعالى: { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ } حب الله يذهل القلب عن الدنيا والنفس ويبقى فيه هم واحد وهو حب الله وحده وحب الرسول عليه الصلاة والسلام يَصْدُق بمتابعة السنة المطهرة لأن المحبة تقتضي الطاعة وإلا فدعواه باطلة. فإن قلت: طلب الحلال وصرفه إلى ما أمر الله به جزء من الإيمان.

أقول: أما حلال الدنيا وإن لم يكن ممنوعاً لكن فيه السم، لا يدري صاحبه فيه خلط أم لا، فإذا وقف على ذلك يشعر به فلا يشتغل به إلا بقدر الحاجة، والذي لم يشاهد ذلك فهو جاهل؛ ويكون له ضرر عظيم اللهم احفظنا.

لأن القلب واحد إذا كان مملوءاً بحب الدنيا أو الهوى لا يمكن أن يدخل فيه الغير كما قال تعالى: { مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ } .

إن القلب خلق للمحبة فقط، فالقلب واحد والمحبة واحدة فلا تصلح إلا لمحبوب واحد لا شريك له فمن اشتغل بالدنيا قلباً وقالباً ثم ادعى حب الآخرة بل حب الله فهو كاذب في دعواه... آهٍ وأسف...

اللهم وفقنا لنيل حبك، آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِـــى شَـــىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [النساء: ٥٩].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنْكُمْ } أي أطيعوا الله وأطيعوا الرسول بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وفي قوله: { مِنْكُمْ } دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتـــهم يجب أن يكونوا مسلمين حساً ومعنىً، لحماً ودماً، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً.

فائدتان:

الفائدة الأولى: قوله: { أَطِيعُواْ اللَّهَ } أضاف لفظ الطاعة إلى لفظ الله، فهذا يقتضي أن وجوب الطاعة علينا له إنما كان لكوننا عبيداً له ولكونه إلهاً، فثبت من هذا الوجه أن المنشأ لوجوب الطاعة هو العبودية والربوبية وذلك يقتضي دوام وجوب الطاعة على جميع المكلفين إلى قيام القيامة وهذا أصل معتبر في الشرع.

الفائدة الثانية: أنه قال: { أَطِيعُواْ اللَّهَ } فأفرده في الذكر، ثم قال: { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } وهذا تعليم من الله سبحانه لهذا الأدب وهو أن لا يجمعوا في الذكر بين اسمه سبحانه وبين اسم غيره وأما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ذلك بدليل أنه قال : { وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ } وهذا تعليم لهذا الأدب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما { وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } يعني أهل الفقه والدين وفي الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني » فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال تعالى: { أَطِيعُواْ اللَّهَ } أي اتبعوا كتابه، { وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } أي خذوا بسنته، { وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما مرّ في الحديث الصحيح : « إنما الطاعة في المعروف».

اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية، أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ } ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعيـــة أن يسمعوا ويطيعوا.

وإن هذه الآية آية شريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه، وذلك لأن الفقهاء زعمـــوا أن أصول الشريعة أربع: الكتاب والسنة والإجماع والقياس هذه الآية مشتملة على تقريـــر هـــذه الأصول الأربعة بهذا الترتيب. أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله: { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } فإن قيل: أليس أن طاعة الرسول هي طاعة الله، فما معنى هذا العطف؟

قلنا: قال القاضي: الفائدة في ذلك لبيان الدلالتين، فالكتاب يدل على أمر الله، ثم نعلم منه أمر الرسول صلى الله عليه وسلّم لا محالة، والسنة تدل على أمر الرسول، ثم نعلم منـــه أمـــر الله لا محالة، فثبت بما ذكرنا أن قوله: { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } يدل على وجوب متابعة الكتاب والسنة.

قال الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليـــه وســـلّم ســـرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال: فقال لهم أليس قـــد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، ثم دعـــا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها قال: فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم من النار فلا تعجلوا حتى تَلْقَوْا رسول الله صلى الله عليه وســـلّم، فـــإن

أمركم أن تدخلوها فادخلوها قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبروه فقال لهم: « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً إنما الطاعة في المعروف » أخرجاه في الصحيحين .

والحاصل أن الله عز وجل أمر بطاعته أولاً وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم ثانياً فيما أمر ونهى، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم.

قال سهل بن عبد الله التستري: أطيعوا السلطان في سبعة:

١ ــ ضرب الدراهم والدنانير. ٢ ــ المكاييل والأوزان. ٣ ــ الأحكام.

٤ ــ الحج.٥ ــ الجمعة.٦ ــ العيدين.٧ ــ الجهاد.

قال سهل وإذا نهى السلطانُ العالِمَ أن يُفتيَ فليس له أن يُفتيَ، فإن أفتى فهو عاصٍ وإن كان أميراً جائراً.

{ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ } أي فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم. فأمر تعالى برد المُتنازَع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلّم، وليس لغير العلماء معرفةُ كيفية الردِّ إلى الكتاب والسنة ويدل على هذا صحة كون سؤال العلماء واجباً، وامتثال فتواهم لازماً، قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم.

وقوله: { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ } أي تجادلتم واختلفتم، فكأن كل واحد ينتزع حجة الآخـــر ويذهبها { فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأْخِرِ ذلِـــكَ خَيْـــرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } من أمر دينكم.

{ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله صلى الله عليـــه وسلّم بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلّم، وهذا قول مجاهـــد والأعمش وقتادة وهو الصحيح، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، كما قال تعالى: { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ } فما حكم به الكتاب والسنة وشَهِدا لَهُ بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال تعالى : { إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأْخِرِ } أي: إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرطٌ حُذِفَ جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل إن كنت ابني فلا تخالفني ودل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

هذا الوعيد يحتمل أن يكون عائداً إلى قوله: { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } إلى قوله: { فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } .

ظاهر قوله: { إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأْخِرِ } يقتضي أن من لم يطـــع الله والرســـول لا يكون مؤمناً، وهذا يقتضي أن يخرج المذنب من الإيمان لكنه محمول على التهديد. (لأن المـــؤمن بالكبائر لا يخرج من الإيمان كما مرّ إذا لم يصحبه الجحود) .

{ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }، أي ذلك الذي أمرتكم به في هذه الآية خير لكم وأحسن عاقبة لكم لأن التأويل عبارة عما إليه مآل الشيء ومرجعه وعاقبته.

اعلم أن المراد بأولي الأمر في الحقيقة المشايخ الواصلون ومن بيده أمر التربية فإن أولي أمر المريد شيخه في التربية، فينبغي للمريد في كل واردِ حقٍّ، يدق باب قلبه أو إشارة أو إلهام أو واقعة تنبيء عن أعمال أو أحوال، في حقه أن يضرب على محك نظر شيخه مما يرى فيه الشيخ من المصالح، ويشير إليه أو يحكم عليه يكون منقاداً لأوامره ونواهيه لأنه أولوا أمره، وهم لا يجتمعون على الباطل.

وأما الشيخ فأولوا أمره الكتاب والسنة فينبغي له أنّ ما سنح له من الغيب بوارد الحق من الكشوف والشواهد والأسرار والحقائق يضرب على محك الكتاب والسنة فما صدقاه ويحكمان عليه فيقبله وإلا فلا، لأن الطريقة مقيدة بالكتاب والسنة كذا ذكره الشيخ الكامل نجم الدين الكبرى في تأويلاته.

أقول:

ويدل على ما قاله الشيخ رحمه الله، المشاهدة من حال المنقادين المستفيدين، الذين حازوا على سعادة الدارين بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة، رزقنا الله ذلك بجاه سيد المرسلين ببركة دعائهم ونصائحهم.

ويفهم من هذه الآية الكريمة: { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } أن (إطاعة الله) فرض قطعياً ما دام المكلف حياً وهكذا إلى قيام يوم القيامة. وإطاعة الرسول صلى الله عليه وسلّم كذلك فرض في حياته وقيد هذا بذاته الشريفة وبالوحي. وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بقيت سنته في أمته، وكذلك على المكلف أن يتبعها.

ولمعرفة هذه السنة لا بد من علماء الدين الذين يرجحون الدين على الدنيا فلا يمكن أن تلعب هذه الدنيا بهم، وهم مجتمعون على الصدق الذي أوصى الله عباده بقوله: {وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} لا ينتهي هؤلاء الصادقون من أمة سيد المرسلين إلى قيام الساعة وهم الذين قال الله في حقهم في سورة التوبة: { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ١٠٠] .

فدلت الآية على أن من اتبعهم على دينهم إلى يوم القيامة، إنما يستحقون الرضوان والثواب بشرط كونهم متبعين لهم بإحسان، وعلى المؤمن أن لا يفارق هذه الجماعة، ولا يتركهم لأنهم الصادقون وبصدقهم اجتمعوا مع من قبلهم من الصديقين، وليس هذا بالقيل والقال، ولا بهمة الرجال، بل بقوة رحمة الرحمن.

اللهم إنا نتبرأ إليك من حولنا، وقوتنا، ومن أعمالنا، ونلتجىء إليك يا رب العالمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُواْ جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً } [النساء: ٧١ ــ ٧٣] .

لما حذّر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين وحذّر المؤمنين من شرهم. فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ } أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له.

{ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُواْ جَمِيعاً } أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين جماعة بعد جماعة، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الحَذَر والحِذْر بمعنى واحد. يقال أخذ حِذْره إذا تيقظ واحترزَ من المخوف، كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه والمعنى احذروا واحترزوا من عـــدوكم ولا تمكنوه من أنفسكم هذا ما ذكره صاحب الكشاف.

وقال الواحدي رحمه الله: فيه قولان:

الأول: المراد بالحِذر ها هنا السلاح، والمعنى خذوا سلاحكم، والسلاح يسمى حذراً، أي خذوا سلاحكم وتحذروا.

الثاني: أن يكون { خُذُواْ حِذْرَكُمْ } بمعنى احذروا عدوكم لأن هذا الأمر بالحذر يتضمن الأمر بأخذ السلاح، لأن أخذ السلاح هو الحذر من العدو فالتأويل أيضاً يعود إلى الأول، فعلى القول الأول الأمر مصرح بأخذ السلاح وعلى القول الثاني أخذ السلاح مدلول عليه بفحوى الكلام.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: ذلك الذي أمر الله تعالى بالحذر عنه إن كان مقتضي الوجود لم ينفع الحذر، وإن كان مقتضي العدم لا حاجة إلى الحذر، فعلى التقديرين الأمر بالحذر عبث. وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «المقدور كائن والهم فضل» وقيل: الحذر لا يغني من القدر.

فنقول: إن صح هذا الكلام بطل القول بالشرائع فإنه يقال: إن كان الإنسان من أهل السعادة في قضاء الله وقدره فلا حاجة إلى الإيمان، وإن كان من أهل الشقاوة لم ينفعه الإيمان والطاعـــة، فهذا يفضي إلى سقوط التكليف بالكلية والتحقيق في الجواب أنه لما كان الكل بقدر، كان الأمر

بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة في الحذر كلاماً متناقضاً لأنه لما كـــان هذا الحذر مقدراً فأي فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر.

وهذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، وأمر لهـــم بجهـــاد الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع. ووجه النظم والاتصال بما قبل أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله، أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه ، وإعلاء دعوته وأمرهم ألا يقتحمـــوا علـــى عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ويعلموا كيف يردون عليهم فذلك أثبت لهـــم فقال: { خُذُواْ حِذْرَكُمْ } فعلّمهم مباشرة الحروب.

وليس في الآية دليل على أن الحذر ينفع من القدر شيئاً، ولكنا تُعبِّدنا بألا نلقـــي بأيـــدينا إلى التهلكة، ومنه الحديث: « اعقلها وتوكل » .

وإن كان القدر جارياً على ما قضى، ويفعل الله ما يشاء، فالمراد منه طمأنينة النفس، لا أن ذلك ينفع من القدر وكذلك أخذ الحذر، والدليل على ذلك أن الله تعالى أثنى على أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلّم بقوله: { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } فلو كان يصيبهم غير مـــا قضـــى عليهم لم يكن لهذا الكلام معنى.

المسألة الثانية: في قوله { فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُواْ جَمِيعاً } خيرهم الله تعالى بين أن يقاتلوا جميعاً وبين أن يقاتل بعضهم دون بعض بأن يبعث الإمام سرية بعد سرية فدلّ على أن الجهاد ليس من فروض الأعيان وقول البيضاوي (مجتمعين كوكبة واحدة) بمعنى الجماعة العظيمة.

{ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ } أي ليتثاقلن ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون وجُعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر.

{ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ } أي قَتْلٌ وهزيمة، { قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً } أي قال ذلك المنافق: قد تفضل الله عليّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا.

{ وَلَئِنْ أَصَـبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله } أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة { لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يلَيتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً } أي ليقولن هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة: ياليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة وجملة { كَأَن لَّمْ تَكُنْ } اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام، ولما ذمّ تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال : { فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالاْخِرَةِ }.

فعلى المؤمن أن يكون في طاعة ربه بأي وجه كان من الوجوه التعبدية فإن الآية الأولى وهي قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ } الآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « بادروا بالأعمال قبل أن تجيء فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا » .

وعن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجّاج فقال: اصــبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشد منه شراً حتى تتقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلّم.

واعلم أن العدة والسلاح في جهاد النفس والشيطان، يعني آلة قتالهما ذكر الله وبــه يــتخلص الإنسان من كونه أسير الهوى النفساني.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده ». والفرار إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين.

فلا يجد الفرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله، والفرار من كل غير شأن كل موحد.

أقــول:

كما أُمِرْتَ أن تأخذ حذرك من عدوك الظاهر، أُمرتَ أن تأخذ حذرك من عــدوك البــاطن، وعدوُّك الباطن نفسك وشيطانك فلا تأمن من نفسك مهما بلغت المراتب، لأنَّها قد ترجــع إلى أصلها أمارة بالسوء.

وأما شيطانك فعداوته واضحة بنصّ الكتاب، جاهد نفسك بقلة الطعام والكلام والنوم، وكن على حذر منها إذا شبعت من حلال.

وجاهد شيطانك بكثرة الذكر لله لأنه ليس له سبيل على الذاكرين لله تعالى بقلب حاضر.

نرجو الله تعالى أن يعيننا على أنفسنا، وأهوائنا، وشياطيننا، إنه على ما يشاء قدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [النساء: ٩٤] .

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ } نزلت الآية في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك، وكان أسلم ولم يسلم من قومه غيره، وكان عليه السلام بعث سرية إلى قومه كان عليها غالب بن فضالة الليثي، فلما وصلت السرية إليهم هربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامه، فلما وصلوا فدك كبروا وكبر مرداس معهم، وكان في سفح جبل ومعه غنمه، فنزل إليهم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد وساق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك فوجد وجداً شديداً وقال: «قتلتموه إرادة ما معه وهو يقول لا إله إلا الله »

فقال أسامة: إنه قال بلسانه دون قلبه وفي رواية إنما قالها خوفاً من السلاح فقال عليه السلام: « هلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب » ثم قرأ الآية على أسامة فقال: يا رسول الله استغفر لي فقال: « فكيف بلا إله إلا الله » قال أسامة: فما زال صلى الله عليه وسلّم يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر لي وأمر برد الأغنام وتحرير رقبة مؤمنة.

واعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين وأمر المجاهدين بالتثبت فيه لئلا يسفكوا دماً حراماً بتأويل ضعيف، وهذه المبالغة تدل على أن الآية المتقدمة خطاب مع المؤمنين.

{ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ } أي إذا سافرتم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر.

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَـمَ لَسْتَ مُؤْمِناً } ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً، وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه.

{ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع الزوال. وعرض الدنيا ما يتمتع به فيها من المال، نقداً كان أو غيره قليلاً كان أو كثيراً. يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وتسميته عرضاً تنبيه على أنه سريع الفناء قريب الانقضاء.

{ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ } أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم، حيث تغنيكم عن قتل أمثاله لماله، وهو تنبيه على أن ثواب الله موصوف بالدوام والبقاء، كما في قوله تعالى: { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف: ٤٦] .

{ كَذلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ } أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام، ومنّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم(١) { كَذلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ } في مبادىء إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها.

{ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } بأن قَبِل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم { فَتَبَيَّنُواْ } أي إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البيّن، وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فُعِلَ بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وثوق على تواطىء الظاهر والباطن. وإعادة الأمر بالتبيين تدل على المبالغة في التحذير عن ذلك الفعل.

{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } أي إن الله كان بما تعملون من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها { خَبِيراً } فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه ، قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر، وهو بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، ويسمى صاحبه خبيراً.

وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالَمه، وعالَمه قَلْبُه وبدنه والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة، والطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والبخل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه، ولا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها عرف مكرها

وتلبيسها وخِدَعَها فحاربها وتشمّر لمعاداتها وأخذ الحذر منها فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً.

قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً } [الفرقان: ٥٩] أي عالماً بصفاته يطلعك على ما خفي عليك، والخبير يختلف باختلاف السائل فإن كان السائل النبي عليه الصلاة والسلام فالخبير هو الله تعالى وإن كان السائل أصحابه عليه الصلاة والسلام فالخبير النبي صلى الله عليه وسلّم، وإن كان السائل التابعين فالخبير الصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلّم عن الله سبحانه وتعالى. وهكذا مآل الأمر إلى أن المشايخ العارفين يفيدون الطالب عن الله. وفيه دليل على وجوب معرفة التوحيد.

لقد دلت الآية على أن المجتهد قد يخطيء كما أخطأ أسامة رضي الله عنه وإن خطأه قد كان مغتفراً حيث لم يقتص منه، وعلى أن الذكر اللساني معتبر كما أن إيمان المقلد صحيح؛ لكن ينبغي للمؤمن أن يترقى من الذكر اللساني إلى الذكر القلبي ثم إلى الذكر الروحي، ويحصل له التعيين والمعرفة ويخلص من ظلمة الجهل ويتنور بنور المعرفة لأن الإنسان يموت كما يعيش.

والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له (أي ليس له عهد فينا) جاز له قتله، فإن قال لا إله إلا الله لم يجز قتله، لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله فإن قتله بعد ذلك قُتل به.

وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام وتأولوا أنه قالها متعوذاً وخوفاً من السلاح، وأن العاصم قولُها مطمئناً فأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم أنه عاصم كيفما قالها، ولذلك قال لأسامة: « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ » أخرجه مسلم، أي تنظر

أصادق هو أم كاذب؟، وذلك لا يمكن، فلم يبق إلا أن يَبين عنه لسانه وفي هذا من الفقه بـــاب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظانّ والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر.

وفيه فائدة: عاشروا الناس على ما يظهرون من أحوالهم ولا تتفرسوا فيهم بالبطلان فإن متـــولي الأسرار الله.

أقـــول:

تدل هذه النظرة على سماحة الأخلاق الإسلامية واتساع صدور المسلمين فالأصل عنـــدهم أن كل الناس طيبون ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ونتقبل ظواهرهم تاركين أســـرارهم للمـــولى سبحانه حذراً من أن نقع في حكم { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } .

أنت مأمور أن تعامل الناس حسب الظاهر، والله تعالى يتولى السرائر، أنت بمقدورك أن تعلـــم شيئاً من الظاهر، ولا تعلم كل الظاهر، فكيف بالسرائر؟!

ففوض أمور البشر إلى الله تعالى الذي يعلم السرّ وأخفى وأحسن الظن فيهم، لأنـــك مـــأمور بذلك، ولست مأموراً بأن تحسن الظن بنفسك. كثير من الناس أساءوا الظن بالمؤمنين، وأحسنوا الظن بأنفسهم، وهذا هو الخسران المبين فلا بد للمؤمن ألا يتسرع إلى تكذيب من صدق بلسانه، وألا يرغب إلى كاذب بكثرة سواده ولا بد أن يكون خبيراً.

ربنا وفقنا لطاعتك، وأتمم تقصيرنا، وتقبّل منا آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءِ للَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [النساء: ١٣٥] .

لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، وحذّر من اتباع الهوى، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } أي: يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في { قَوَّامِينَ } حتى لا يكون منهم جور أبداً.

كأنه قيل: إن اشتغلت بتحصيل مشتهياتك كنت لنفسك لا لله، وإن اشتغلت بتحصيل مأمورات الله كنت لله لا لنفسك، ولا شك أن هذا المقام أشرف وأعلى، فكانت هذه الآية تأكيداً لما تقدم من التكاليف.

إن الله تعالى لما منع الناس عن أن يقصروا عن طلب ثواب الدنيا وأمرهم بأن يكونوا طالبين لثواب الآخرة قوله تعالى: { مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً } ذكر عقيبه هذه الآية، { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } بيّن أن كمال سعادة الإنسان في أن يكون قوله لله وفعله لله ، وحركته وسكونه لله حتى يصير من الذين يكونون في آخر مراتب الإنسانية، وأول مراتب الملائكة، فأما إذا عكس هذه القضية كان مثل البهيمة التي منتهى أمرها وجدان العلف، أو السبع الذي غاية أمره إيذاء حيوان.

وقد تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط كما قال: { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِى الْيَتَامَى } [النساء: ٣] وأمرهم بالإشهاد عند دفع أموال اليتامى إليهم وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن أبيرق واجتماع قومه على الذبّ عنه بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل.

ثم إنه تعالى أمر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزوجة، ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط، شاهدين لله على كل أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى ذكره في هذه السورة من أنواع التكاليف.

{ شُهَدَآءِ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ } أي تقيمون شهاداتكم لوجــه الله دون تحيز ولا محاباة ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على أقربائكم فلا تمنعكم القرابــة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان.

وشهادة الإنسان على نفسه لها تفسيران:

الأول: أن يقر على نفسه لأن الإقرار كالشهادة في كونه موجباً إلزام الحق.

الثاني: أن يكون المراد وإن كانت الشهادة وبالاً على أنفسكم وأقاربكم وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره.

وقدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه:

الأول: إن أكثر الناس عادهم أهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركــوه حتى إن أقبح القبيح إذا صدر عنهم كان في محل المسامحة، وأحسن الحسن إذا صدر عن غيرهـــم كان في محل المنازعة، فالله سبحانه نبه في هذه الآية على سوء هذه الطريقة وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولاً ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً تنبيهاً على أن الطريقة الحسنة أن تكـــون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع الغير.

الثاني: إن القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير وهو الذي عليه الحق؛ ودفـــع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير.

الثالث: إن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول.

فإن قيل: إنه تعالى قال: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ } [آل عمران: ١٨] فقدم الشهادة على القيام بالقسط وههنا قدم القيام بالقسط، فما الفرق؟

قلنا: شهادة الله تعالى عبارة عن كونه خالقاً للمخلوقات وقيامه بالقسط عبـــارة عـــن رعايـــة القوامين بالعدل في تلك المخلوقات فيلزم هناك أن تكون الشهادة مقدمة على القيام بالقسط، أما في حق العباد فالقيام بالقسط عبارة عن كونه مراعياً للعدل ومبايناً للجور، ومعلوم أنه ما لم يكن الإنسان كذلك لم تكن شهادته على الغير مقبولة، فثبت أن الواجب في قوله: { شَـــهِدَ اللَّـــهُ } [آل عمران: ١٨] أن تكون تلك الشهادة مقدمة على القيام بالقسط.

والواجب ههنا أن تكون الشهادة متأخرة عن القيام بالقسط، ومن تأمل. علم أن هذه الأسرار مما لا يمكن الوصول إليها إلا بالتأييد الإلهي والله أعلم.

ثم قال تعالى: { إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا } أي: إن يكن المشهود عليه غنياً فـــلا يراعى لغناه، أو فقيراً فلا يُمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ، ولولا أن الشـــهادة عليهم مصلحة لهما لما شرعها. وفي الحديث: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل: يا رسول الله كيف ينصره ظالماً قال: « أن يرده عن ظلمه ». فإن ذلك نصره معنىً. ومنعُ الظالم عن ظلمه عون له على مصلحة دينه ولذا سمي نصراً.

{ فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ } أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس. قال ابن كثير: أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شؤونكم بل الزموا العدل على كل حال ، والمعنى اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل، وتحقيق الكلام أن العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل لـــه الآخـــر، فتقدير الآية: فلا تتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا يعني اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا.

{ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ } أي: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تعرضوا عن إقامتها رأساً. قال مجاهد: { تَلْوُواْ } أي تحرفوا الشهادة وتغيروها واللَيّ هو التحريف وتعمد الكذب.

في الآية { تَلْوُواْ } فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون بمعنى الدفع والإعراض من قولهم: لواه حقه إذا مطله ودفعه.

الثاني: أن يكون بمعنى التحريف والتبديل من قولهم لوى الشيء إذا فتله.

وفي قراءة { تَلْوُواْ } أن ولاية الشيء إقبال عليه واشتغال به والمعنى أن تُقبلوا عليه فتتمـــوه أو تعرضوا عنه.

{ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } فيجازي المحسن المقبل بإحسانه والمسيء المعرض بإســـاءته والحاصل: إن تلووا عن إقامتها أو تعرضوا عن إقامتها { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } فهـــو تهديد ووعيد للمذنبين ووعد بالإحسان للمطيعين.

وقد مر تفصيل الشهادة وضرورتها في النداء الحادي عشر في سورة البقرة قال الفقهاء: وستر الشهادة في الحدود أفضل من أدائها لقوله صلى الله عليه وسلّم للذي شهد عنده في الحد: « لو سترته لكان خيراً لك » وقوله صلى الله عليه وسلّم : « من ستر على مسلم عيباً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة » وقال صلى الله عليه وسلّم : « ما من مسلم ينصر مسلماً في موضع ينهتك فيه عرضه وتستحل حرمته إلا نصره الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته وما من امرىء خذل مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته » وقال صلى الله عليه وسلّم: « ادرؤا الحدود ما استطعتم ». وفي كتب الفقه: ويجب الأداء بلا طلب لو الشهادة في حقوق الله تعالى، وهي كثيرة ارجع إلى حاشية ابن عابدين مع الشرح (الجزء الخامس) نقلاً عن الأشباه، وسترها في الحدود أبر لحديث «من سَتر سُتر» ابن عابدين.

والحاصل أن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه، وقوله { شُهَدَآءِ للَّهِ }، كما قال: { وأقيموا الشهادة لله } أي أدّوها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان ولهذا قال: { وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ } أي اشهد الحق ولو عاد ضرره عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه.

فإن الحق حاكم على كل أحد، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لّما بعثه النبي صلى الله عليه وسلّم يخرص (يُقَدِّر) على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم. فقالوا بهذا قامت السموات والأرض. وسيأتي تفصيل الحديث مع سنده في النداء (٣١) من سورة المائدة.

فائدة: القسط: العدل، والقيام بالله: العدل بإيفاء حقوقه من نفسك، واستيفاء حقوقه من كل من هو لك عليه أمر، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إما أمر بمعروف أو زجر عن مكروه، أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق.

أقـــول:

إن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ليبلغ أمته وأنت يا أخي مؤمن، لأن الله يناديك بهذا النداء المخصص بك.

فأنت داخل تحت هذا، ورسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام بلّغنا هذه الأوامر الإلهيه ولا يطلب ربنا منا الربح عند إتباعنا الأوامر، ولا ينقصه جلّ وعلا إتياننا المناهي. بل لفائدتنا، إذ كل ما جاء في القرآن الكريم من الأوامر فيه فائدة في ديننا ودنيانا، ومجتمعنا وفردنا. والضرر علينا إن تركنا هذه الأوامر.

علينا معاشر المؤمنين أن نتمسك بالشريعة المحمدية، فهي نزلت من الرب الكريم جـــلّ وعـــلا بواسطة جبريل عليه السلام على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم ونحن مسؤولون عن الحـــق سواء كان هذا الحق حق الله، أو حق أنفسنا، أو حق العباد، فلا بد أن نراعي ذلك، ولا يحملنـــا الحرص على الدنيا والطمع فيها على أن نأكل أموال النّاس بغير حق، أو نكتم الشهادة ويجب أن نتبع في أمورنا جميعاً ديناً ودنيا سنة سيد المرسلين وأن لا نتبع الهوى.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن نكون صادقين في فعلنا، وقولنا، في المعـــاملات الظاهرة، والباطنة، مع الله، ومع عباد الله بحرمة سيد المرسلين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـــه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنَزلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الأْخِرِ فَقَـــدْ ضَـــلَّ ضَلَـــــلاً بَعِيـــداً } [النساء: ١٣٦] .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه وليس هـــذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن في كل صلاة { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } أي: بَصِّرْنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه فأمرهم بالإيمان به وبرسوله.

كما قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } وفي اتصال هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول: أنها متصلة بقوله: { كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } وذلك لأن الإنسان لا يكون قائماً بالقسط إلا إذا كان راسخ القدم في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآية.

الثاني: أنه تعالى لما بين الأحكام الكثيرة في هذه السورة ذكر عقيبها آية الأمر بالإيمـــان. ذكـــر المفسرون فيه وجوهاً وهي منحصرة في قولين:

القول الأول: إن المراد بقوله تعالى:{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } المسلمون، ثم في تفسير الآية تفريعاً على هذا القول وجوه:

الأول: إن المراد منه { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } آمنوا دوموا على الإيمان واثبتوا عليه، وحاصـــله يرجع إلى هذا المعنى: يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحاضر آمنوا في المستقبل، ونظـــيره قولـــه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ اللَّهُ } [محمد: ١٩] مع أنه كان عالماً بذلك.

الثاني: يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل التحقيق.

الثالث: يا أيها الذين آمنوا بعلم اليقين آمنوا بعين اليقين.

الرابع: يا أيها الذين آمنوا بعين اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله آمنوا بحق اليقين بأن كنه عظمة الله لا تنتهي إليه عقولكم وكذلك أحوال الملائكة وأسرار الكتب وصفات الرسل لا تنتهي إليه على سبيل التفصيل عقولنا.

الخامس: روي أن جماعة من أحبار اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال صلى الله عليه وسلّم: بل آمنوا بالله وبرسله وبمحمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت الآية فكلهم آمنوا.

القول الثاني: إن المخاطبين بقوله: { ءَامَنُواْ } ليس هم المسلمون، ثُمَّ في تفسير الآية تفريعاً على هذا القول وجوه:

الأول: أن الخطاب مع اليهود والنصارى والتقدير يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن.

الثاني: أن الخطاب مع المنافقين، والتقدير يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب، ويتأكد هذا بقوله تعالى: { مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ ءَامَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ } [المائدة: ٤١] .

الثالث: أنه خطاب مع الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا وجه النهار آمنوا أيضاً آخره.

الرابع: أنه خطاب للمشركين تقديره: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله، وأكثـــر العلماء رجحوا القول الأول لأن لفظ المؤمن لا يتناول عند الإطلاق إلا المسلمين.

{ وَالْكِتابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ } يعني القرآن { وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزلَ مِن قَبْلُ } وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة وقال في القرآن: { نَزَّلَ } لأنه نزل متفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة، لهذا قال تعالى { وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزلَ مِن قَبْلُ } .

ثم قال تعالى: { وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الاْخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـــلاً بَعِيداً } أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد أي الصراط المستقيم كل البعد. واعلم أنه تعالى أمر في هذه الآية بالإيمان بأربعة أشياء: أولها بالله، وثانيها برسوله، وثالثها بالكتاب الذي نزل على رسوله، ورابعها بالكتاب الذي أنزل من قبل.

وذكر في الكفر أموراً خمسة:

فأولها الكفر بالله وثانيها الكفر بملائكته وثالثها الكفر بكتبه ورابعها الكفر برسله وخامســـها الكفر باليوم الآخر.

وفي الآية سؤالات منها:

السؤال الأول: لم قدَّم في مراتب الإيمان ذكر الرسول على ذكر الكتاب، وفي مراتب الكفـــر قَلَبَ القضية؟

الجواب: لأن في مرتبة الترول من معرفة الخالق إلى الخلق كان الكتاب مقدماً على الرسول وفي مرتبة العروج من الخلق إلى الخالق يكون الرسول مقدماً على الكتاب.

السؤال الثاني: لم ذكر في مراتب الإيمان أموراً ثلاثة: الإيمان بالله وبالرسول وبالكتب، وذكر في مراتب الكفر أموراً خمسة: الكفر بالله وبالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر؟

الجواب: إن الإيمان بالله وبالرسل وبالكتب متى حصل فقد حصل الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لا محالة، إذ ربما ادعى الإنسان أنه يؤمن بالله وبالرسل وبالكتب، ثم إنه ينكر الملائكة وينكر اليوم الآخر ويزعم أنه يجعل الآيات الواردة في الملائكة وفي اليوم الآخر محمولة على التأويل، فلما كان هذا الاحتمال قائماً لا جرم نص أن منكر الملائكة ومنكر القيامة كافر بالله.

فمرتبة العوام في الإيمان: ما قاله عليه الصلاة والسلام: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر خيره وشره » وهو إيمان غيبيٌّ.

ومرتبة الخواص في الإيمان: هو إيمان عياني وكان ذلك بأن الله إذا تجلى لعبده بصفة من صـــفاته خضع له جميع أجزاء وجوده وآمن بالكلية عياناً بعد ما كان يؤمن قلبه بالغيب، ونفسه تكفر بما آمن به قلبه، إذا كانت النفس عن تنسم روائح الغيب بمعزل فلما تجلى الحق جعلها دكةً، وخرت النفس فلما أفاقت قالت النفس تبت إليك وأنا من المؤمنين.

ومرتبة الأخص في الإيمان: هو إيمان عياني وذلك بعد رفع حجب الأنانية بسطوات تجلي صـــفة الجلال فإذا أفناه عنه بصفة الجلال يبقيه به بصفة الجمال فلم يبق له الأين، وبقي في العين فيكون إيماناً عينياً هذا هو الإيمان الحقيقي. رزقنا الله وإياكم إياه.

وإلى هذا التفريد والتجريد ينال العبد بالذكر والتوحيد، قال عليه السلام في وصيته لعلي رضي الله عنه: « يا علي احفظ التوحيد فإنه رأس مالي وإلزم العمل فإنه حرفتي، وأقم الصلاة فإنها قرة عيني واذكر الحق فإنه نصرة فؤادي واستعمل العلم فإنه ميراثي »، اللهم لا تحرمنا مـــن هـــذا الميراث.

وفي الآية إشارة: يا أيها الذين آمنوا من حيث البرهان، آمنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

يا أيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم.

يا أيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل.

أقـــول:

الإيمان ثلاث مراتب:

١ ـــ الإيمان التقليدي ٢ ـــ الإيمان بالاستدلال والبراهين.

٣ ـــ الإيمان الذوقي الشهودي وما فوقها.

أما الإيمان التقليدي: وإن كان مقبولاً عند بعض المجتهدين إلا أن صاحبه مقلد، ويـــدخل فيـــه الإيمان العلمي، يسمع من هذا ويقرأ هذا حتى يحصل الإيمان وهذا هو الإيمان الغيبي.

وأما الإيمان بالاستدلال والبراهين: وهو إيمان المتكلمين فكذلك ليس قوياً بالنسبة لإيمان من فوقهم. ولذا قال عليكم بإيمان العجائز. قال الشاذلي رحمه الله: نحن نعرف ربنا بدون دليل.

وأما الإيمان الذوقي والشهودي وما فوقهما: له مراتب حتى يصل إلى إيمان الصديقين كما في الحديث: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » أي إن لم تكن من أهل الذوق والشهود، وأن تنظر بعين قلبك إلى ربك جلّ وعلا، عليك على الأقل أن تفهم وتتيقن بأنه يراك.

ومنه الإيمان من حيث اليقين على ثلاث مراتب:

١ ــ علم اليقين: كما في قوله تعالى: { كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } التكاثر.

٢ ــ عين اليقين: كما في قوله تعالى: { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } التكاثر.

٣ ــ حق اليقين: كما في قوله تعالى: { إِنَّ هَـذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } الواقعة.

فأما إيمان علم اليقين: فيمكن أن يدخل فيه الشكوك والزندقة وهو إيمان غيبي إيمان العوام.

وأما إيمان عين اليقين: لا يمكن أن يدخل فيه الشكوك والشيء المخالف للإيمان وهو إيمان الخواص.

وأما إيمان حق اليقين: فهو إيمان الصديقين وفوق مرتبة الصديقين مرتبة النبوة.

إن الإنسان محجوب بالغفلة الحاصلة من الدنيا والنفس والخلق والشيطان، فإذا رُفع الحجاب بين العبد وخالقه، يرى العبد الحقيقة، فإذا دام العبد على مخالفة الموانع يقوى الإيمان وتُرفع الغفلة وتتلمع الحقيقة. فتكون حاكمة على قلبه، ويدوم له ذاك الحال حتى يصبح له مقاماً، عند ذلك يأنس قلبه بمولاه، ولا يخدع بالقواطع عن الله جلّ وعلا.

وإلا ترى أكثر الناس في غفلة لأنهم يرون لأنفسهم وجوداً، وينسون عيوب أنفسهم، ويسرعون في مخالفة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ويمشون على حسب مراد نفوسهم، والله يهدي من يشاء، ومن يضلل الله فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى.

علينا معاشر المؤمنين أن نعمل بمقتضى الإيمان ولا نكون من الذين يسمعون القول ولا يتبعون أحسنه، ومن مقتضى الإيمان أن يرجح العبد آخرته على دنياه، وأن لا يعصي الله بالكلية، ويقوم بالطاعة بقدر الاستطاعة ما عدا الفروض الإلهية.

اللهم دُلَّنا على من يدلنا عليك، وعرفنا على من يعرفنا عليك برحمتك يا أرحم الراحمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَـكِراً عَلِيماً } [النساء: ١٤٤ ــ ١٤٧] .

اعلم أنه تعالى لما ذمّ المنافقين بأنهم مرة إلى الكفرة ومرة إلى المسلمين من غير أن يستقروا مع أحد الفريقين وذلك في الآية السابقة في قوله تعالى:

{ إِنَّ الْمُنَـفِقِينَ يُخَـدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } إلى قوله: { مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلآءِ وَلاَ إِلَى هَـؤُلآءِ } إلخ. نهى المسلمين في هذه الآية أن يفعلوا مثل فعلهم فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } والسبب فيه أن الأنصار بالمدينة كان لهم في بني قريظة رضاع وحلف ومودة، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: من نتولى؟ فقال: (المهاجرين) فنزلت الآية.

والوجه الثاني: ما قاله القفال رحمه الله: وهو أن هذا نهي للمؤمنين عن موالاة المنافقين يقول: قد بينت لكم أخلاق المنافقين ومذاهبهم فلا تتخذوا منهم أولياء ، فينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: { لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَـــــفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَىْءٍ إِلاَ أَن تَتَّقُــواْ مِــنْهُمْ تُقَــــةً وَيُحَذِّرْكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } أي يحذركم عقوبته في نهيه ولهذا قال ههنا.

{ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } والمعنى أتريدون أن تجعلوا لله عليكم في عقابكم حجة بسبب موالاتكم للمنافقين ، أي حجة عليكم في عقوبته إياكم قال ابن أبي حاتم عن ابـــن عباس رضي الله عنهما: قوله: { سُلْطَاناً مُّبِيناً } قال كل سلطان في القرآن حجة وهـــذا إســـناد صحيح.

ثم أخبر تعالى: { إِنَّ الْمُنَـــفِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي في أسفل النار وقال غيره: النار دركات كما أن الجنة درجات. وقال سفيان الثوري عن أبي هريرة رضي الله عنه: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } قال في توابيت تُرتَجُ عليهم وعنه أيضاً قال: الدرك الأسفل: بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم.

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: توابيت من حديد مقفلة في النار تقفل عليهم. وقال ابن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، تصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }.

وقال تعالى في أصحاب المائدة: { فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ } وقال في آل فرعون: { أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }.

قال الليث: وظاهره أن جهنم طبقات، والظاهر أن أشدها أسفلها.

قال الضحاك: الدرج إذا كان بعضها فوق بعض. والدرك إذا كان بعضها أسفل بعض.

ولما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه مثله في الكفر وضم إليه نوع آخر وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الإطلاع على أسرار المسلمين، ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار.

والمنافق: مَنْ أظهر الإيمان وأبطن الكفر وقيل: هو الذي يصف الإسلام بلسانه، ولا يعمل بشرائعه ولا يتقيد بقيوده ولا يدخل تحت أحكامه، وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقاً فللتغليظ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلّم: « ثلاث من كنّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » فإن هذه الخصال صفات المنافقين، فمن فعلها فقد تشبه بالمنافقين.

{ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً } أي ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب وهذا تهديد لهم ، ثم أخبر تعالى أنه من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله واعتصم بربه في جميع أمره.

فقال تعالى: { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ } أي بدلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. قال ابن أبي حاتم: عن معاذ بن جبل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « اخلص دينك يكفك القليل من العمل » .

{ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } أي في زمرتهم يوم القيامة.

{ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً } ولهذا أوقع أجر المؤمنين في التسويف لانضمام المنافقين إليهم والله أعلم.

واعلم أن هذه الآية فيها تغليظات عظيمة على المنافقين، وذلك لأنه تعالى شرط في إزالة العقاب عنهم أموراً أربعة:

أولها: التوبة.

وثانيها: إصلاح العمل، فالتوبة عن القبيح، وإصلاح العمل عبارة عن الإقدام على الحسن.

وثالثها: الاعتصام بالله، وهو أن يكون غرضه من التوبة، وإصلاح العمل طلب مرضاة الله تعالى لا طلب مصلحة الوقت، لأنه لو كان مطلوبه جلب المنافع ودفع المضار لتغير عن التوبة وإصلاح

العمل سريعاً، أما إذا كان مطلوبه مرضاة الله تعالى وسعادة الآخرة والاعتصام بدين الله على هذه الطريقة لم يتغير عنها.

ورابعها: الإخلاص، والسبب فيه أنه تعالى أمرهم أولاً: بترك القبيح وثانياً بفعل الحسن وثالثاً أن يكون غرضهم في ذلك الترك والفعل، طلب مرضاة الله تعالى، ورابعاً أن يكون ذلك الغرض وهو طلب مرضاة الله تعالى خالصاً وأن لا يمتزج به غرض آخر.

فإذا حصلت هذه الشرائط الأربعة فعند ذلك قال: { فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } ولم يقل فأولئك مؤمنون، ثم أوقع أجر المؤمنين في التسويف لانضمام المنافقين إليهم، فقال :{ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً } وهذه القرائن دالة على أن حال المنافق شديد عند الله تعالى.

أقول: مع هذا التهديد الشديد في قوله تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ } أظهر الله تعالى الرحمة لهم إذا تابوا بقوله تعالى: { فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } وذلك من لطفه تعالى بعباده مع أنهم كانوا يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام فكيف بالمؤمنين المتجاوزين الحد بالغفلة مع خالقهم مع وجود إيمانهم فيدخلون بالطريق الأوْلى في هذا الوعد إن شاء الله الرحيم الكريم إذا تابوا، ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه وإنما يعذب العباد بذنوبهم فقال:

{ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ } أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله ، وأي منفعة له سبحانه في عذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر، ويستجلب النفع وهو الغني عنكم.

وقال مكحول: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار قال تعالى: { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ }، { وَمَـا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }، { قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ }، وأما الثلاث اللاتي عليه فالمكر والبغي والنكث { فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ }، { وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ }، { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ }.

وفي تقدم الشكر على الإيمان وجهان:

الأول: أنه على التقديم والتأخير، أي إن آمنتم وشكرتم، لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات.

الثاني: إن الإنسان إذا نظر في نفسه رأى النعمة العظيمة حاصلة في تخليقها وترتيبها، فيشـكر شكراً مجملاً، ثم إذا تم النظر في معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان ذلك الشـكر المجمل مقدماً على الإيمان، فلهذا قدمه عليه في الذكر.

{ وَكَانَ اللَّهُ شَـكِراً عَلِيماً } أي من شكر شكر له، ومن آمن قلبه عَلَّمه وجازاه على ذلـك أوفر الجزاء ، وأنه تعالى لما أمرهم بالشكر سمى جزاء الشكر شكراً على سبيل الاستعارة، فالمراد من الشاكر في حقه تعالى كونه مثيباً على الشكر، والمراد من كونه عليماً أنه عالم بجميع الجزئيات فلا يقع الغلط له البتة، فلا جرم يوصل الثوابَ إلى الشاكر والعقابَ إلى المعرض.

والشكر ضد الكفر، والكفر ستر النعمة فالشكر إظهارها.

والشكر من العبد هو الاعتراف بالنعمة الواصلة إليه مع ضروب من التعظيم؛ ومن الله تعـالى الرضى أي راضياً باليسير من طاعة عباده وإضعاف الثواب مقابلة واحدة إلى عشرة إلى سبعمائة إلى ما شاء من الأضعاف.

قال الجرجاني في قوله: { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } أي لئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وعن علي رضي الله عنه إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تُنفِّروا أقصاها بقلة الشكر معنـاه من لم يشكر النعم الحاصلة لديه الواصلة إليه حُرِم النعم الفائتة منه القاصية عنه (أي البعيدة) .

فبالشكر والإيمان يتخلص العبد من النيران، وإلا فقد عرّض نفسه للعذاب واستحق العـذاب والعتاب؛ وجه التعذيب أن التأديب في الحكمة واجب فخلق الله النار ليعلم الخلق قدر جلال الله وكبريائه، وليكونوا على هيبة وخوف من صنع جلاله ويؤدب بها من لم يتأدب بتأديب رسله إلى خلقه، وليعتبر أهل العقل بالنظر إليها في الدنيا، وبالاستماع لها في الآخرة.

أقـول:

قال الله تعالى جلّ جلاله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } والمراد بالأخوة أخوة الإيمـان والإسـلام، ولأنهم من أمة سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن لم يكتف بهذه الأخوة، وبهذه الأمة، مع هذا النص القطعي، ويتخذ عدو الله، وعدو رسوله صديقاً من ناحية حطام الـدنيا، أو من ناحية الخوف، أو من ناحية أن بينهم مودة الجاهلية، فهذا إيمانه بلسانه، وهو من المقلـدين، وإيمان المقلدين أضعف الإيمان عند رب العالمين، علينا أن نعتقد أن الضار والنافع هو الله، والناصر هو الله.

{ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ } [آل عمران: ١٧٥] ، { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـــناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران: ١٧٣]، هـــذا في حق المؤمن.

وأما في حق الكافر: { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّـــنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة: ١٠٩]، { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـــرَى تِلْـــكَ أَمَانِيُّهُمْ } [البقرة: ١١١]. وهذه النصوص كلها دالة على عداوتهم، وحسدهم لكم وخـــلاف قرآنكم، وإيمانكم، فعلى هذا؛ على المؤمن العاقل ألا يجالس ولا يصحب إلا المـــؤمن المخلـــص الصادق في الدين والدنيا.

خذ بوصية الله تعالى جلّ جلاله، وصيته للأولين والآخرين تقوى الله؛ هذه نبذة مـــن التقـــوى مصاحبة الصادقين قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبـــة: ١١٩]، اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } [المائدة:١] .

نزلت هذه السورة منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الحديبية، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

قال أبو ميسرة: وسورة المائدة آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة أما الأحكام التي تناولتها السورة الكريمة فنلخصها فيما يلي: أحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابية، الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي، والإفساد في الأرض، أحكام الخمر، والميسر، كفارة اليمين، قتل الصيد في الإحرام، والوصية عند الموت، البحيرة، والسائبة، الحكم على من ترك العمل بشريعة الإسلام. إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية.

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود، وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وبين ربه، وبين الإنسان والإنسان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العقود العهود وهي ما أحلّ الله وما حرّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف الشرعية والأحكام.

هذا القول اختاره الطبري والزمخشري والأرجح العموم فهو أمر بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين قال ابن أسلم هي ستة: عهد الله، عقد الحلف، عقد الشركة، عقد البيع، عقد النكاح، عقد اليمين كذا في ابن كثير ، ولما كان الإيمان عبارة عن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله، وكان من جملة أحكامه، أنه يجب على جميع الخلق إظهار الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان هذا العقد أحد الأمور المعتبرة في تحقيق ماهيـــة الإيمان فلهذا قال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } يعني يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود، في إظهار طاعة الله أوفوا بتلك العقود، وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقوداً كما في هذه الآية لأنه تعالى ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثوق.

واعلم أنه تعالى تارة يسمي هذه التكاليف عقوداً كما في هذه الآية وكمـــا في قولـــه تعـــالى : { وَلَـــكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَـــا عَقَّـــدتُّمُ الأَيْمَـــانَ } [المائـــدة: ٨٩]. وتـــارة عهـــوداً كقولـــه: { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } [البقرة: ٤٠]، وقال: { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَـــدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ } [النحل: ٩١] .

وحاصل الكلام في هذه الآية، أنه أمر بأداء التكاليف فعلاً وتركاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومعناه أوفوا يا أيها المؤمنون بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحل وحرّم عليكم، وألزمكم فرضه، وبين لكم حدوده، وإنما قلنا: إن هذا القول أولى بالصواب لأن الله أتبعه بالبيان عما أحلّ لعباده وحرّم عليهم.

{ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } أي أبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حرّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير...الخ .

وهو خطاب للمؤمنين خاصة، والبهيمة اسم لكل ذي أربع من الحيوان، لكن خص في التعارف بما عدا السباع والضواري من الوحوش.

ونقل الإمام الشعراني عن شيخه علي الخواص قُدس سره أن سبب تسمية البهائم بهائم ليس إلا لكون أمر كلامها وأحوالها أُبهم على غالب الخلق لا أن الأمر أُبهم عليها وذكر ما يدلّ على عقلها وعلمها وسيأتي تحقيق ذلك (ارجع إلى روح المعاني). ونقل العلامة الألوسي في كتابه روح المعاني ص ٥٠ « وأبى أهل الظاهر ذلك كل الإباء » .

أقول: والجواب عما نسب إلى الإمام الشعراني وإنكار أهل الظاهر عليه نقول ما دام يحصل الكلام والألفاظ المخصوصة من النباتات والأشجار وغيرهما من الجمادات بإذن الله وإرادته بعد تخفيف الطبيعية البشرية وترقي الروح وهذا مسَلّم عند من يفهم ويسمع، كما لا ينكر أحد من المسلمين أن القرآن الكريم يقول: { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } وكما شكا البعير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وغير ذلك من الأمور التي صدرت من البهائم فالذي قاله الشيخ الشعراني وما نقل عن شيخه مؤيدٌ بهذا ارجع إلى كتاب (الشفاء الشريف) الجزء الأول [ص٤٤٠] كما لا

يمكن هذا بالنص القطعية وكذلك ما نسب إلى الإمام الشعراني وما نقل عن شيخه رحمهمـــا الله ثابت عند بعض المؤمنين المحققين وكل ما لم يوجد ولم يعرف، ولم يصل إليه بعض الناس لا يلزم أن لا يوجد، وألا يعرفه كل إنسان.

قال الزجاج: الأنعام جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم ولا يدخل فيها ذوات الحافر في قـــول جميع أهل اللغة فاختلفوا في معنى الآية.

فقال الحسن وقتادة: بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز وعلى هذا القول إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام على جهة التوكيد.

وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وحشيُّها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش وعلى هذا إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام، ليعرف جنس الأنعام وما أحل منها لأنه لو أفردها فقال البهيمة، لدخل فيه ما يحل ويحرم من البهائم فلهذا قال: { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ } .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الأجنة التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت.

ذهب أكثر العلماء إلى تحليلها، وهو مذهب الشافعي ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال في الجنين: « ذكاته ذكاة أمه » أخرجه الترمذي وابن ماجـــه. وفي رواية أبي داوود قال: قلنا يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة ونجد في بطنها الجـــنين، أنلقيه أم نأكله قال: « كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه » .

وروى الطبري عن ابن عمر في قوله: { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ } قال: ما في بطنها. قال عطية العوفي: قلت إن خرج ميتاً آكله؟ قال: نعم، هو بمترلة رئتها وكبدها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الجنين من بهيمة الأنعام، وعنه: أن بقرة نحرت فوجد في بطنها جنين فأخذ ابن عباس رضي الله عنهما بذنب الجنين وقال هذا من بهيمة الأنعام، وشرط بعضهم الأشعار وتمام الخلق.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ذكاة ما في بطنها ذكاها إذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يحل أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم.

{ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } يعني في القرآن تحريمه وأراد به قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } إلى آخر الآية فهذا من المتلو عليه وهو ما استثنى الله عز وجل من بهيمة الأنعام.

{ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ } أي أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون.

{ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه(١)، من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه، وفرض ما يشاء أن يفرضه عليهم من أحكامه وفرائضه مما فيه مصلحة لعباده.

فلو قال قائل ما السبب في هذا التفصيل والتخصيص؟ كان جوابه أن يقال: إنه تعالى مالك الأشياء، وخالقها فلم يكن على حكمه اعتراض بوجه من الوجوه وهذا هو الذي يقوله أصحابنا إن علة حسن التكليف هي الربوبية والعبودية ومن هنا قالوا أمور الدين أربعة:

١ ــ الصحة في العقد. ٢ ــ الصدق في القصد.

٣ ــ والوفاء في العهد. ٤ ــ واجتناب الحد.

وقوله (العهود) أشار بذلك إلى أن المراد بالعقد العقد المعنوي وهو العهد المشبه بعقد الحبل وقوله: (المؤكدة) أخذ ذلك من قوله العقود لأن معنى العقد هو العهد المؤكد بينكم وبين الله كالمأمورات والمنهيات. فالوفاء بالمأمورات فعلها والوفاء بالمنهيات تركها.

ودخل في قوله (وبين الله) العهد الواقع بين العبد وبين رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيجب على الإنسان الوفاء به، بأن يؤمن به ويصدق بما جاء به ويعظمه ويحترمه ويرجحه ويقدمه على شؤون دنياه، ولا يخالف ما أمره به أصلاً.

(وبين الناس) أي كالمعاملات من بيع وشراء ونكاح وطلاق وتمليك وتخيير وعتق ودين ووديعة وصلح، ومن ذلك أيضاً احترام المؤمنين وتعظيمهم وعدم غيبتهم وإيذائهم والنميمة والكذب عليهم، ومن ذلك أيضاً وفاء المريدين بعهود المشايخ.

إن هذه الآية تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام، فإنها تضمنت خمسة أحكام:

الأول: الأمر بالوفاء بالعقود.

الثاني: تحليل بهيمة الأنعام.

الثالث: استثناء ما يلي بعد ذلك.

الرابع: استثناء حال الإحرام فيما يصاد.

الخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم.

وحكى النقّاش أن أصحاب الكنديّ قالوا له: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم! أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هـذا أحـد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين. ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال:

« سورة المائدة تـدعى في ملكـوت الله المنقـذةَ تنقـذ صـاحبها مـن أيـدي ملائكـة العذاب » . ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع ومنها ما أنزل عام الفتح. وقوله : { وَإِذَا نَـادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ } ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات وروي عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال: « يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر مـا نـزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فترل عنها. أخرجه أحمد.

أقـول:

علامة امتثال أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، خوفك ووجلك من الله تعالى عند مجـيء الأمـر والنهي، وتذل له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم، ولا طمعاً فيما في أيديهم.

وإذا لم تصبر على المأمورات، ولم تترك المنهيات، فلست ممن استسلم لأمـــر الله، لأن حقيقـــة الإسلام الاستسلام.

اللهم أحيِ قلوبنا بالتوكل عليك، وبالطاعة لك، وبالذكر لك.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آهـــل وصـــحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلآ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَـــادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْـــمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ آلْعِقَابِ } [المائدة: ٢] .

وسبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ } أي لا تستحلوا حرمات الله ولا تعتدوا حدوده، قال الحسن: يعني شرائعه التي حدها لعباده، وقال ابن عباس: ما حرم عليكم في حال الإحرام والقول الأول أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية ، وهو خطاب للمؤمنين حقاً أي لا تتعدوا حدود الله في أمر من الأمور والشعائر جمع شعيرة، والشعيرة: البدنة تُهدى، وإشعارها أن يجز سنامها حتى يسيل منه الدم فيُعلم أنه هدي.

فالشعائر على قولٍ ما أشعر من الحيوانات لتهدى إلى بيت الله.

وعلى قولٍ جميع مناسك الحج، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدي والبدن كل ذلك من الشعائر، وقال عطاء بن أبي رباح: شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه.

وقال الحسن دين الله كقوله: {وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ } وهذا القول هو الراجح الذي تقدم على غيره لعمومه وقد اختلف العلماء في إشعار الهدي فأجازه الجمهور، ثم اختلفوا في أي جهة تشعر، فقال الشافعي وأحمد وأبو ثور: يكون في الجانب الأيمن، وروي عن ابن عمر. وثبت عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلّم أشعر ناقته في صفحة سنامها الأيمن، أخرجه مسلم وغيره وهو الصحيح. وهذا فتراجع بحثه في كتب الفقه مفصلاً.

{ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ } أي لا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه (وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) ولا ما أهدي إلى بيت الله (من ناقة أو بقرة أو شاة) أو قُلّد

بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه ، { وَلاَ الْقَلاَئِدَ } وهي التي تُشَدُّ على عنق البعير، وعُطفتْ على الهدي مبالغة في التوصية بها لأنها أشرف الهدي كأن قيل والقلائد منها خصوصاً، وهو نهي عن التعرض لقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، والمعنى لا تحلوا قلائدها فضلاً عن أن تحلوها ، وهي سنة إبراهيمية بقيت في الجاهلية، وأقرها الإسلام.

ولا يجوز بيع الهدي ولا هبته إذا قلّد أو أشعر لأنه قد وجب وإذا مات موجبه لم يورث عنه ونفذ لوجهه.

{ وَلآ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً } أي لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

{ وَلآ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ } يعني القاصدين له والمعنى لا تمنعوا الكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقربة. وعليه فقيل ما في هذه الآيات من نهي عن مشرك أو مراعاة حرمة له بقلادة، أو أمّ البيت فهو كله منسوخ بآية السيف في قوله: { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ } وقوله: { فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا } فلا يُمكّن المشرك من الحج، ولا يؤمّن في الأشهر الحرم وإن أهدى وقلّد وحج.

{ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً } في تفسير الفضل والرضوان وجهان:

الأول: يبتغون فضلاً من ربهم بالتجارة المباحة لهم في حجهم كقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ } [البقرة: ١٩٨] قالوا نزلت في تجاراتهم أيام الموسم.

والمعنى لا تمنعوهم فإنما قصدوا البيت لإصلاح معاشهم ومعادهم فابتغاء الفضل للدنيا، وابتغاء الرضوان للآخرة قال أهل العلم: إن المشركين كانوا يقصدون بحجهم ابتغــاء رضــوان الله وإن كانوا لا ينالون ذلك، فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب هذا القصد نوع من الحرمة.

الوجه الثاني: أن المراد بفضل الله الثواب، وبالرضوان أن يرضى عنهم، وذلك لأن الكــافر وإن كان لا ينال الفضل والرضوان لكنه يظن أنه بفعله طالب لهما، فيجوز أن يوصف بذلك بناء على ظنه قال تعالى: { وَانظُرْ إِلَى إِلهِكَ } [طه: ٩٧].

وفي الجملة إشارة إلى تعليل النهي واستنكار المنهي عنه. ويؤيد هذا القول أن الآية نزلت كمــا قال السدي وغيره: في رجل من بني ربيعة يقال له الحطيم بن هند، وذلك أنه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وحده، وخلّف خيله خارج المدينة فقال له إلامَ تدعو الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلّم: « إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » فقال: حسنٌ إلا أن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم، ولعلي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلّم قال لأصــحابه : « لقد دخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان » ثم خرج من عنده، فلما خرج: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر وما الرجل بمسلم » فمرَّ بسرح المدينة فاستاقه، وانطلق به فطلبه المسلمون فعجزوا، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وســلّم عام قضاء العمرة التي أُحصر عنها سمع تلبية حجاج اليمامة فقال صلى الله عليه وســلّم: هــذا الحطيم وأصحابه فدونكموه وكان قد قلّد ما نهب من السرح وجعله هدياً فلما توجهوا لــذلك نزلت الآية فكفوا. قال أبو مسلم الأصفهاني المراد بالآية الكفار الذين كــانوا في عهــد الــنبي

صلى الله عليه وسلّم فلما زال العهد بسورة (براءة) زال الحظر ولزم المراد بقوله تعالى: { فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا } [التوبة: ٢٨].

{ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَـادُواْ } أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أبيح لكم الصيد وإذا حللتم من الإحرام المشار إليه بقوله: { وَأَنتُمْ حُرُمٌ } فلا جناح عليكم بالاصطياد لزوال المانع. فالأمر للإباحة بعد الحظر، ومثله لا تدخلن الدار حتى تؤدي ثمنها فإذا أديت فادخلها أي أبيح لك دخولها.

{ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ } أي لا يحملنكم بغض قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم. فقد منع أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة وهذه السورة نزلت بعد الحديبية، وكان هذا الصدّ متقدماً لا محالة على نزول الآية.

{ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } أي وتعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله. يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم وقد قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل: يا رسول الله هذا نَصرتُه مظلوماً فكيف أنصره ظالماً قال: « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » رواه البخاري.

{ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام لأجل أن صُددتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء والمراد بالبر متابعة الأمـــر مطلقـــاً، وبالتقوى اجتناب الهوى لتصير الآية من جوامع الكلم وتكون تذييلاً للكلام فيـــدخل في الـــبر والتقوى جميع مناسك الحج.

{ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } فيعم النهي كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي ويندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الإثم بترك ما أمرهم به وارتكاب مـــا نهـــاهم عنـــه. والعدوان بمجاوزة ما حدّه الله سبحانه لعباده في دينهم وفرضه عليهم في أنفسهم وقدمت التحلية على التخلية مسارعة إلى إيجاب ما هو المقصود بالذات.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ } أي خافوا عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه(١)، وقد أمر بالاتقاء في جميع الأمور فهو شديد العقاب لمن لا يتقيه.

واعلم أن شعائر الله في الحقيقة هي مناسك الوصول إلى الله، وهي معـــالم الـــدين والشـــريعة، ومراسم آداب الطريقة، بإشارة أرباب الحقيقة، فإن حقيقة البر هو التفرد للحق.

وحقيقة التقوى هو الخروج عما سوى الله تعالى. فالوصول لا يمكن إلا بهما، لكنهما خطوتان لا يمكن للمريد الصادق أن يتخطى بها إلا بمعاونة شيخ كامل مكمل واصل موصل فإنه دليل هـــذا الطريق.

وفي الآية إشارة إلى تعظيم ما عظمه الله من الزمان والمكان والإخوان وقد فضل الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض، كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض، لتتسارع القلوب إلى احترامها وتتشوق الأرواح إلى إحيائها بالتعبد فيها، ويرغب الخلق في فضائلها.

وفضّل الأمكنة بعضها على بعض ليعظم الأجر بالإقامة فيها، وخلق الله الناس ســعيداً وشــقياً والعبرة بالخاتمة، وكل مخلوق من حيث أنه مخلوق الله حسن حتى إنه ينبغي أن يكون النظــر إلى الكافر من حيث أنه مخلوق الله لا من حيث كفره وإن لم يرض بكفره.

$

#

فعلى الناظر بنظر التوحيد أن يحسن النظر ولا يحقر أحداً من خلق الله ولا يشــتغل بالعــداوة والبغضاء.

ومن كلمات أسد الله كرم الله وجهه: العداوة شغل، يعني من اشتغل بالعــداوة ينقطــع عــن الاشتغال بالأمور المفيدة النافعة، لأن القلب لا يسع الاشتغالين المتضادين.

وكان صلى الله عليه وسلّم موصوفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فعليك أن تقتدي به، ولما مدح الله الأنبياء عليهم السلام ووصف كل نبي بصفة قال له تعالى :{ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } ففعــل فصار مستجمعاً لكمال خصال الخير وكان كل واحد منهم مخصوصاً بخصلة مثل نــوح عليــه السلام بالشكر، وإبراهيم عليه السلام بالحلم، وموسى عليه السلام بالإخلاص، وإسماعيل عليــه السلام بصدق الوعد ويعقوب وأيوب عليهما السلام بالصبر، وداود عليه السلام بالاعتــذار،

وسليمان عليه السلام بالتواضع، وعيسى عليه السلام بالزهد، فلما اقتدى بهم اجتمع له الكل. فأنت أيها المؤمن من أمة ذلك الرسول صلى الله عليه وسلّم فاتق الله واستح من رسول الله صلى الله عليه وسلّم كي تنجو من العقاب الشديد والعذاب المديد، وتظفر بالخلد الباقي بالنعيم المقيم، وتنال ما نال إليه ذو القلب السليم.

والبر: فعل ما أمرت به، والتقوى: ترك ما زجرت عنه. ويقال: البر موافقة الشرع، والتقوى: مخالفة الهوى، ويقال: المعاونة على البر بحسن النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدي الخطّائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ، وبليغ الزجر، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدين فيكون قولك الذي تفعله ويقتدى بك فيه سنة تظهرها وعليك بنوُّ وزرها، وكذلك المعاونة على البر والتقوى أي الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذي يقتدى بك فيه.

أقــول:

ابحث جاهداً عن تلك الفئة التي تعينك على البر والتقوى لأنها أصبحت نادرة في هذا الزمــان، أما الذين يعينونك على الإثم والعدوان فما أكثرهم. جاهد نفسك في عدم مجالسة هذه الفئة من الناس، لأنهم يضرون دينك ودنياك، وخاصة إن كانوا من تلك الفئة التي تؤيد هواهـا بالحجـة الشرعية. ابحث عمن يعينك على البر والتقوى وهم لا يوجهونك لأنفسهم بل لله عزّ وجلّ.

فإذا أكرمك الله بصحبة هؤلاء فالزمهم، وصمّ أذنك عن قول أعدائهم ولا تقل ليس للصالح أعداء، إقرأ قول الله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } [الفرقان: ٣١] .

واعلم أن صحبة هؤلاء تحتاج إلى مجاهدة نفس، لأنهم لا يسترسلون مع النفوس والأهواء، والنفس من طبيعتها تحب الذي يمدحها لا الذي ينصحها.

نسأل الله أن يبصرنا بعيوب أنفسنا، ويلهمنا رشدنا، ويوفقنا لنصبّر أنفسنا { مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } [الكهف: ٢٨] .

آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة: ٦] .

اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية فقوله: { أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية، فكأنه قيل: إلهنا العهد نوعان: عهد الربوبية منك، وعهد العبودية منا، فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان، فقال تعالى: نعم أنا أوفي أولاً بعهد الربوبية والكرم.

ومعلوم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين: لذات المطعم، ولذات المنكح؛ فاستقصى سبحانه في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح، ولما كانت الحاجة إلى المطعوم فوق الحاجة إلى المنكوح، لا جرم قدم بيان المطعوم على المنكوح، عند تمام هذا البيان كأنه يقول: قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات، فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية. ولما كان أعظم

الطاعات بعد الإيمان الصلاة وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة، لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء.

فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلوةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ } أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون ، ومثله قوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله.

وهذا القول يقتضي وجوب الوضوء عند كل صلاة وهو ظاهر الآية ومذهب داود الظــاهري، وذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم إلى أنه يجزئ عدة صلوات بوضوء واحد. وأجيب عن ظاهر الآية بأن المعنى إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر، فحذف ذلك لدلالة المعــنى عليه وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جداً، ولأن النبي صلى الله عليه وسلّم جمــع يــوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا يقبل الله صــلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » أخرجاه في الصحيحين، وقيل في معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم.

وقيل: هو أمر ندبٍ، ندبَ من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارة، وإن كان على طهر ويــدل عليه ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «من توضــأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» أخرجه الترمذي.

وفروض الوضوء أربعة في هذه الآية:

الأول: { فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ } .

واستدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وحجته أن الوضوء مأمور بــه وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً. ولما روي في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إنما الأعمال بالنيات » والوضوء من الأعمال فيجــب أن يكــون منوياً.

إنما قلنا إن الوضوء مأمور به وإنه من أعمال الدين لقوله: { وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، ومتى كانت النية الخالصة معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التي يتقرب بها إلى الله معتبراً.

واستدل أبو حنيفة لعدم وجوب النية في الوضوء بهذه الآية قال إن النية شرط لصحة الوضــوء لأن الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة في هذه الآية، ولم يوجب النية فيها فإيجاب النية زيادة على النص، والزيادة على النص نسخ ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز.

وأجيب عنه بأنّا إنما أوجبنا النية في الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى: { وَمَــآ أُمِــرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }.

وأما حد الوجه فمِن منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضـــاً، لأنه مأخوذ من المواجهة فيجب غسل جميع الوجه في الوضوء ويجب إيصال الماء إلى مـــا تحـــت الحاجبين، وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة وأما اللحية فإن كانت كثّة لا ترى البَشَرة من تحتها لا يجب غسل ما تحتها ويجب غسل ما تحت اللحية الخفيفة.

الفرض الثاني: { وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ } .

يعني واغسلوا أيديكم إلى المرافق وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغســـل، وحجة الجمهور أن كلمة { إِلَى } هنا بمعنى مع ومنه قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَلَهُمْ إِلَى أَمْوَلِكُمْ} أي مع أموالكم.

ويعضده من السنة ما صح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه توضأ فغسل وجهه فأســـبغ الوضوء ثم غسل اليمنى حتى أشرع في العضد ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يتوضأ.

والجواب على الحجة المتقدمة أن الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآيـــة، لأن المرفق من جنس اليد، وإذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه كما في قوله تعالى: { ثُـــمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ } لأن النهار من غير جنس الليل فلا يدخل فيه.

الفرض الثالث: { وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ } .

اختلف العلماء في القدر الذي يجب مسحه من الرأس.

فقال مالك: يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى عنه أنه يجب مسح أكثره، وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربعه، وفي رواية أخرى يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه، وقال الشافعي: الواجب مسح ما ينطلق عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما روي عن المغيرة بن شعبة: أن النبي صلى الله عليه وسلّم توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين. متفق عليه.

الفرض الرابع: { وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ } .

قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والأئمة الأربعة وأصحابهم: إن فرض الرجلين هو الغسل، ويدل عليه أيضاً فعل النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه والتابعين قال الزمخشري: وفائدة المجيء بالغاية { إِلَى الْكَعْبَينِ } لدفع ظن من يحسبهما ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث: « ويل للأعقاب من النار » الكشاف.

وهذا يرد على الإمامية الذين يقولون: بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب { وَأَرْجُلَكُمْ } فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب.

قوله: { وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ } أي وإن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن ، وذلك يجب على الرجل والمرأة بأحد شيئين إما بخروج المني على أي صفة كان من الاحتلام أو غيره أو بالتقاء الختانين وإن لم يكن معه إنزال فإذا حصل وجب الغسل.

{ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائطِ أَوْ لَـــمَسْتُمُ النِّسَآءَ } أي: إن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء، أو أتى أحد منكم من مكان البراز، أو جامعتموهن.

{ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً } أي: ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به.

{ فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ } أي:امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كمـــا وضحت السنة النبوية ، فقد تقدم تفسيره وأحكامه في سورة النساء وفي قوله تعالى دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب.

قوله: { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ } أي ما يريد بما فرض علـــيكم مـــن الوضـــوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم ، دلت الآية على أن الله تعالى مريد، وهذا متفق عليه بين الأئمة إلا أهم اختلفوا في تفسير كونه مريداً قال أصحابنا: مريد بإرادة قديمة.

اعلم أن هذه الآية أصل كبير في الشرع، وهو أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة ويدل عليه هذه الآية فإنه تعالى قال: { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج: ٧٨] ، وقوله : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: ١٨٥]، ويدل عليه من الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام »، ويدل عليه أيضاً أن دفـــع الضـــرر مستحسن في العقول فوجب أن يكون الأمر كذلك في الشرع.

وأما بيان أن الأصل في المنافع الإباحة فوجوه:

الأول: قوله: { خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً } [البقرة: ٢٩] .

الثاني: قوله: { أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } وقد بيّنا أن المراد من الطيبات المستلذات والأشياء التي ينتفع بها، وإذا ثبت هذان الأصلان فلا حاجة البتة أصلاً إلى القياس في الشرع، لأن كل حادثة تقع فحكمها المفصل إن كان مذكوراً في الكتاب والسنة فذاك هو المراد. وإن لم يكن كذلك فإن كان من باب المضار حرمناه بالدلائل الدالة على أن الأصل في المضار الحرمة. وإن كان من باب المنافع أبحناه بالدلائل الدالة على إباحة المنافع.

{ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } أي ليطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى.

وفي تفسير التطهير: أن يكون المراد منه طهارة القلب عن صفة التمرد عن طاعة الله تعالى، وذلك لأن الكفر والمعاصي نجاسة للأرواح فإن النجاسة إنما كانت نجاسة لأنها شيء يراد نفيه وإزالته وتبعيده:والكفر والمعاصي كذلك، فكانت نجاسات روحانية، وكما أن إزالة النجاسات الجسمانية تسمى طهارة فكذلك إزالة العقائد الفاسدة والأخلاق الباطلة تسمى طهارة، ولهذا التأويل قال الله تعالى: { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } [التوبة: ٢٨]، فجعل رأيهم نجاسة.

وقال: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } [الأحزاب: ٣٣]. فجعل براءهم عن المعاصي طهارة لهم.

وقال في حق عيسى: { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } [آل عمران: ٥٥]، فجعل خلاصه عن طعنهم وعن تصرفهم فيه تطهيراً له. وإذا عرفت هذا فنقول:إنه تعالى لما أمر العبد بإيصال الماء إلى هذه الأعضاء المخصوصة، وكانت هذه الأعضاء طاهرة، لم يعرف العبد في هذا التكليف فائدة معقولة، فلما انقاد لهذا التكليف كان ذلك الانقياد لمحض إظهار العبودية والانقياد للربوبية، فكان هذا الانقياد قد أزال عن قلبه آثار التمرد فكان ذلك طهارة، فهذا هو الوجه الصحيح في تسمية هذه الأعمال طهارة، وتأكد هذا بالأخبار الكثيرة الواردة في أن المؤمن إذا غسل وجهه خرت خطاياه من وجهه وكذا القول في يديه ورأسه ورجليه.

واعلم أن هذه القاعدة التي قررناها أصل معتبر في مذهب الشافعي وعليه يخرج كثير من المسائل الخلافية في أبواب الطهارة والله أعلم.

{ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ } فيه وجهان:

الأول: إنما ذكرت ذلك لتتم النعمة المذكورة أولاً وهي نعمة الدنيا، والنعمة المذكورة ثانياً وهي نعمة الدين.

الثاني: ليتم نعمته عليكم أي بالترخص في التيمم والتخفيف في حال السفر والمرض، فاستدلوا بذلك على أنه تعالى يخفف عنكم يوم القيامة بأن يعفو عن ذنوبكم ويتجاوز عن سيئاتكم.

{ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } يعني تشكرون نعمة الله عليكم بأن طهركم من الأحداث والذنوب وما جعل عليكم في الدين من حرج.

وفي فضل الوضوء أحاديث كثيرة ومنها ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل [والصواب خرج] خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب ».

أقـــول:

لا بد للعبد المسلم الخائف أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بإسباغ الوضوء، وينتظر الصلاة في المكان الذي أراد الصلاة فيه، ويشتغل بالذكر يعني بلا إله إلا الله حتى يقطع من القلب شواغل الدنيا، ويهيىء قلبه لمناجاة ربه جلّ وعلا، ويقبل بقلبه على ربه في صلاته، وتصلي روحه في قالبه؛ وحينئذٍ يكون من الذين قال تعالى فيهم: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: ٢]. فهذه الصلاة هي التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما في قوله: { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت: ٤٥]، وإذا أراد العبد أن يعرف ما بينه وبين ربه من صلة؛ فلينظر في صلاته فبمقدار ما يعقل من صلاته، فتلك حصته. ومن الله التوفيق، والله يهدي إلى سواء السبيل.

اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُـــواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } [المائدة:٨ ــ ٩] .

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ } أي كونوا مبـــالغين في الاستقامة بشهادتكم لله، وصيغة قوّام للمبالغة أي تشهدون بالعدل .

وهذا أيضاً متصل بما قبله والمراد حثهم على الانقياد لتكاليف الله تعالى واعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة في نوعين:

التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فقوله: { كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ } إشارة إلى النوع الأول وهو التعظيم لأمر الله ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهـــار

العبودية وتعظيم الربوبية، وقوله { شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ } إشارة إلى الشفقة على خلق الله. فلا تُحابِ في شهادتك أهل ودّك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

{ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ } أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على تـــرك العدل فيهم والاعتداء عليهم.

{ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله(١)، أمر الله بالعدل في كل أحد القريب والبعيد والصديق والعدو ، فقد صرح لهم الأمر بالعدل وبين أنه بمكان مـــن التقوى بعد ما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى وإذا كان هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين ، وجعل العدل أقرب للتقوى لأنه إذا حصل العدل حصلت التقوى عما يؤثم، الموجبة لكل كرامة، لكونها رأس الخصال الحميدة المستتبعة لكل خير.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي مطلع على أعمـــالكم ومجـــازيكم عليهـــا قـــال الزمخشري: وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعـــداء الله، وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المـــؤمنين الـــذين هـــم أوليـــاؤه وأحبـــاؤه [الكشاف] ، وهذا يكون وعداً مع المطيعين ووعيداً مع المذنبين يعني إنه عالم بجميع المعلومات فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم.

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } أي وعد الله المـــؤمنين المطيعين لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة فالمغفرة إسقاط السيئات كما قال: { فَأُوْلَـــئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان: ٧٠] .

فقد أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال: {وَعَدَ اللَّهُ } والإله هو الذي يكون قادراً على جميع المقدورات، عالماً بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات، وهذا يمتنع الخلف في وعده، لأن دخول الخلف إنما يكون إما للجهل حيث ينسى وعده، وإما للعجز حيث لا يقدر على الوفاء بوعده وإما للبخل بحيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد، وإما للحاجة، فإذا كان الإله هو الذي يكون متزهاً عن كل الوجوه، كان دخول الخلف في وعده محالاً، فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقـــوى من نفس الإخبار عن الموعود به، وأيضاً فلأن هذا الوعد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشدائد، وبعد الموت يسهل عليه بسببه البقاء في ظلمة القبر، وفي عَرْصة القيامة عند مشاهدة تلك الأهوال. [العَرْصة: كلُّ بقعةٍ بين الدور واسعةٍ ليس فيهـــا بناء والجمع عَرَصَات].

ثم ذكر بعد ذلك وعيد الكفار { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـــَايَـــتِنَآ أُوْلَـــئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب.

قال أبو حيان: وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع. وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصـــحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا عهوده ومواثيقه وكذبوا بما جاء به الرسل من عنده ، أولئك أصحاب الجحيم يفيد الحصر. والمصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال: أصحاب الصحراء.

وهذه الآية نص قاطع في أن الخلود ليس إلا للكفار ، وحاصله أن العدل في الحقيقة هو الوسط المحمود في كل فعل وقول وخلق وهو المأمور به في قوله تعالى: { فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ }.

أقـــول:

القواعد الأساسية للبشر هي الشريعة الغراء التي وصلت إليهم منذ بعثة النبي صلى الله عليـــه وسلّم، هي قواعد أبدية أزلية، والمكلف مسؤول عنها في آخرته.

وربنا جل جلاله العالم الذي لا يعزب عن علمه سبحانه وتعالى شـــيء مـــن مـــاض وحاضـــر ومستقبل، فهو أعلم بحال العباد ابتداءً ومآلاً.

وعلى هذا لا بد للمسلم:

١ ــ أن ينقاد للحكم الإلهي.

٢ ــ وأن يكون استمتاعه في الدنيا موافقاً للقانون الإلهي وهو عين الإيمان.

٣ ــ وأن يجري الأحكام الشرعية على جوارحه، كما أجراها أصحاب رسول الله صـــلى الله عليه وسلّم في عصرهم على أنفسهم الطيبة الطاهرة.

وهذا حق على كل مكلف إلى قيام الساعة معاداً ومعاشاً أن يتحلى بالأخلاق الربانيـــة وهـــي أخلاق القرآن التي هي عين أخلاق النبي صلى الله عليه وسلّم.

فليحذر الذين يخالفون عنه، والخلاص من ظلم النفس وشرورها بالاعتماد على الله والتمسك بالإسلام، وهو من الإيمان.

نسأل الله تعالى جل جلاله أن ينفعنا بالإيمان والإسلام، كما يقتضيان الملازمة من العبد لهما. آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [المائدة: ١١].

إن المشركين في أول الأمر كانوا غالبين والمسلمين كانوا مقهورين مغلوبين، ولقد كان المشركون أبداً يريدون إيقاع البلاء والقتل والنهب بالمسلمين، والله تعالى كان يمنعهم عن مطلوبهم إلى أن قوي الإسلام وعظمت شوكة المسلمين فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ } وهم المشركون { أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } بالقتل والنهب والنفي فكفّ الله تعالى بلطفه ورحمته أيدي الكفار عنكم أيها المسلمون ومثل هذا الإنعام العظيم يوجب عليكم أن تتقوا معاصيه ومخالفته.

وهذه الآية نزلت في واقعة خاصة، قال ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي ومقاتل: كان النبي صلى الله عليه وسلّم بعث سرية إلى بني عامر فقتلوا ببئر معونة إلا ثلاثة نفر أحدهم عمرو بن أمية الضمري، وانصرف هو وآخر معه إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ليخبراه خبر القوم فلقيا رجلين من بني سليم معهما أمان من النبي صلى الله عليه وسلّم فقتلاهما ولم يعلما أن معهما أماناً، فجاء قومهما يطلبون الدّية، فخرج النبي صلى الله عليه وسلّم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم حتى دخلوا على بني النضير، وقد كانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلّم على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الدّيات، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم : « رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني فلزمني ديتهما فأريد أن تعينوني » فقالوا: اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم همّوا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلّم وبأصحابه، فنزل جبريل عليه السلام بذلك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الحال مع أصحابه وخرجوا ، فقال اليهود: إن قدورنا تغلي، فأعلمهم الرسول أنه قد نزل عليه الوحي بما عزموا عليه.

قال عطاء: تآمروا على أن يطرحوا عليه رحىً أو حجراً.

والثانية أن الرسول صلى الله عليه وسلّم نزل منزلاً وتفرق الناس عنه وعلّق رسول الله صلى الله عليه وسلّم سلاحه بشجرة فجاء أعرابي وسلّ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثم أقبل عليه.

وقال من يمنعك مني؟ قال: الله، قالها ثلاثاً فأسقطه جبريل عليه السلام من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال: « من يمنعك مني؟ » فقال: لا أحد، ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلّم بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه.

والثالثة: رُوِيَ أن المسلمين قاموا إلى صلاة الظهر بالجماعة وذلك بعسفان فلما صلوا ندم المشركون، وقالوا: يا ليتنا أوقعنا بهم في أثناء صلاتهم فقيل لهم: إن للمسلمين بعدها صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم يعنون صلاة العصر فهمّوا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها فترل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف.

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم {إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك { فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ } أي عصمكم من شرهم وردّ أذاهم عنكم.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ } بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم ، لأن الله وحده هو الذي يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شرّ، فهو المحسن أولاً من غير استحقاق وهو المتمم للنعمة لمن توكل عليه دون سواه.

والتوكل عبارة عن الاعتصام بالله تعالى في جميع الأمور ومحله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب، بعدما تحقق للعبد أن التقدير من قبل الله فإن تعسر شيء فبتقديره.

وأعلى مراتب التوكل أن يكون بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل تحركه القدرة الأزلية، وهو الذي قوي يقينه.

ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام لما همّ نمرود وقومه أن يبسطوا إليه أيديهم فرمــوه في النــار، جاءه جبريل عليه السلام وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وفَاهَ بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل.

وانظر إلى حقيقة توكل النبي صلى الله عليه وسلّم حيث كف الله عنه وعن أصــحابه أيــادي المشركين رأساً فلم يقدروا أن يتعرضوا له بل ابتلوا في أغلب الأحوال بما لا يخطر ببالهم من البلايا جزاءً لهم على همهم بالسوء.

فالتوكل من معالي درجات المقربين فعلى المؤمن أن يتحلى بالصفات الحميدة ويسير في طريــق الحق بسيرة حسنة.

ودخل حكيم على رجل فرأى داراً متجددة وفرشاً مبسوطة ورأى صاحبها خالياً من الفضائل فتنحنح فبزق في وجهه فقال: ما هذا السفه أيها الحكيم فقال: بل هو عين الحكمة لأن البصــاق لزق إلى أخس ما كان في الدار ولم أرَ في دارك أخس منك لخلوك من الفضائل الباطنة فنبه بذلك على دناءته وقبحه لكونه مسترسلاً في لذاته مستغرقاً أوقاته لعمارة ظاهره.

ثم اعلم أن كل شيء بقضاء الله تعالى وأن الله يختبر عباده بما أراد فعليهم أن يعتمدوا عليــه في العسر واليسر والمنشط والمكره.

وعن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس فقال: أنــت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء الله؟ قال نعم قال: ألقِ نفسك من الجبل وقل قدر علي قال: يــا لعين، الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله وما على العبد إلا التوكل والشكر على الإنعام.

ومن جملة إنعام الله تعالى الإخراج من ظلمة العدم إلى نور الوجود بأمر «كن» والله يعلـــم أن رجوع العباد إلى العدم ليس بهم ولا إليهم كما لم يكن خروجهم بهم فإن خروجهم كان بجذبة أمر «كن» فكذلك رجوعهم لا يكون إلا بجذبة الأوامر والنواهي في الله ليهديهم إلى جذبات عنايته ولطفه.

أقـــول:

اعتصم بمولاك إله العالمين، والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين فإنه لا نجاة من هذا الأمر إلا برحمة الله تعالى، ولا سلامة من هذه الفتن إلا بنظـــره وتوفيقه، وعنايته، فتنبه من رقدة الغافلين، وجاهد نفسك في مرضاة مولاك، والمستعان بالله تعالى على كل حال فإنه خير معين وهو تعالى أرحم الراحمين. اللهم وفقنا لذلك آمين، وســـلام علـــى المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: ٣٥] .

إن الله تعالى لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلّم، أن قوماً من اليهود همّوا أن يبسطوا أيديهم إلى الرسول وإلى إخوانه من المؤمنين وأصحابه بالغدر والمكر ومنعهم الله تعالى عن مرادهم، فعند ذلك شرح للرسول صلى الله عليه وسلّم شدة عتيهم على الأنبياء، وكمال إصرارهم على إيذائهم، وامتد الكلام إلى هذا الموضع كأنه قيل: قد عرفتم كمال جسارة اليهود على المعاصي والذنوب، وبُعدهم عن الطاعات التي هي الوسائل للعبد إلى الرب، فكونوا يا أيها المؤمنون بالضد من ذلك، وكونوا متقين عن معاصي الله، متوسلين إلى الله بطاعات الله.

فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } أي: خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته.

قال قتادة: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، ويعني جلّ ثناؤه بذلك يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأوعد من العقاب { اتَّقُواْ اللَّهَ } يقول أجيبوا الله فيما أمركم به ونهاكم، بالطاعة له في ذلك وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه.

قال ابن زيد: والوسيلة المحبة تحببوا إلى الله وقرأ { أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } ، والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

وفي صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ».

قال المولى الفناري في تفسير الفاتحة: أما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله صلى الله عليه وسلّم حصلت له بدعاء أمته، فعل ذلك الحق سبحانه لحكمة أخفاها، فإنا بسببه نلنا السعادة من الله، وبه كنا خير أمة أخرجت للناس؛ وبه ختم الله بنا الأمم، كما ختم به النبيين، وهو صلى الله عليه وسلّم مبشر كما أمر أن يقول، ولنا وجه خاص إلى الله تعالى نناجيه منه ويناجينا وكذا كل مخلوق له وجه خاص إلى ربه، فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى يترل فيها بدعاء أمته وهذا من باب الغيرة الإلهية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوسيلة

الحاجة، وكان المعنى حينئذ اطلبوا متوجهين إليه حاجتكم فإن بيده عزّ شأنه مقاليد السماوات والأرض، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره ، وفي هذه الآية أيضاً { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } أي ما يقربكم إليه أي يوصلكم من الطاعة سواء كانت تلك الطاعة فرضاً أو نفلاً، لما في الحديث : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به » الحديث رواه البخاري.

فالتقوى هنا ترك المخالفات، وابتغاء الوسيلة فعل المأمورات ويصح أن المراد بالتقوى امتثال المأمورات الواجبة، وترك المنهيات المحرمة.

وابتغاء الوسيلة ما يقربه إليه مطلقاً ومن جملة ذلك محبةُ أنبياء الله وأوليائه والصدقات وزيارة أحباب الله، وكثرة الدعاء، وصلة الرحم، وكثرة الذكر وغير ذلك، فالمعنى كل ما يقربكم إلى الله فالزموه، واتركوا ما يبعدكم عنه. إذا علمت ذلك فمن الضلال البيّن والخسران الظاهر تكفير المسلمين بزيارة أولياء الله زاعمين أن زيارهم من عبادة غير الله، كلا بل هي من جملة المحبة في الله التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « ألا لا إيمان لمن لا محبة له » ، والوسيلة له التي قال الله فيها { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } مهمة لازمة للمؤمنين.

واعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما:

أحدهما: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: { اتَّقُواْ اللَّهَ } .

ثانيهما: فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى: { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } ولما كان ترك المنهيات مقدماً على فعل المأمورات بالذات، لا جرم قدمه تعالى في الذكر.

إن الترك والفعل أمران معتبران في ظاهر الأفعال، فالذي يجب تركه هو المحرمات والذي يجب فعله هو الواجبات، ومعتبران أيضاً في الأخلاق، فالذي يجب حصوله هو الأخلاق الفاضلة والذي يجب تركه هو الأخلاق الذميمة.

ومعتبران أيضاً في الأفكار، فالذي يجب فعله هو التفكر في الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد، والذي يجب تركه هو الالتفات إلى الشبهات.

ومعتبران أيضاً في مقام التجلي، فالفعل هو الاستغراق في الله تعالى والترك هو الالتفات إلى غير الله تعالى.

وأهل الرياضة يسمون الفعل والترك بالتحلية والتخلية، وبالمحو والصحو، وبالنفي والإثبات، وبالفناء والبقاء. وفي جميع المقامات النفي مقدم على الإثبات ولذلك كان قولنا: { لا إله إلا الله} النفي مقدم على الإثبات.

{ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ، وهو عطف خاص على عام إشارة إلى أن الجهاد من أعظم الطاعات وهو قسمان:

١ ـــ أصغر: وهو قتال المشركين.

٢ ـــ وأكبر: وهو الخروج عن الهوى والنفس والشيطان.

وكان قتال المشركين جهاداً أصغر لأنه يحضر تارة ويغيب أخرى، وإذا قتلك الكافر كنت شهيداً، وإن قتلته صرت سعيداً، بخلاف النفس فلا تغيب عنك وإذا قتلتْكَ صرت من الأشقياء نسأل الله السلامة.

واعلم أنه لما أمر بترك ما لا ينبغي بقوله تعالى: { اتَّقُواْ اللَّهَ } وبفعل ما ينبغي بقوله تعالى : { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } وكل واحد منهما شاق ثقيل على النفس والشهوة فإن النفس لا تدعو إلا إلى الدنيا واللذات المحسوسة، والعقل لا يدعو إلا إلى خدمة الله وطاعته والإعراض عن المحسوسات، وكان بين الحالتين تضاد وتناف ولذلك فإن العلماء ضربوا المثل في مظان تطلّب الدنيا والآخرة بالضرتين وبالضدين وبالمشرق والمغرب ، وبالليل والنهار، وإذا كان كذلك كان الانقياد لقوله تعالى : { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } من أشق الأشياء على النفس وأشدها ثقلاً على الطبع.

فلهذا السبب أردف ذلك التكليف بقوله: { وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } وهذه الآية شريفة مشتملة على أسرار روحانية، ونحن نشير ههنا إلى واحد منها وهو أن من يعبد الله تعالى فريقان، منهم من يعبد الله تعالى لا لغرض سوى الله ومنهم من يعبده لغرض آخر.

والمقام الأول: هو المقام الشريف العالي، وإليه الإشارة بقوله : { وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ } أي في سبيل عبوديته وطريق الإخلاص في معرفته وخدمته.

والمقام الثاني: دون الأول، وإليه الإشارة بقوله: { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } والفـــلاح اســـم جـــامع للخلاص عن المكروه والفوز بالمحبوب. واعلم أنه تعالى أرشد المؤمنين في هذه الآية إلى معاقد جميع الخيرات، ومفاتح كل السعادات.

وقد صرحت الآية بالأمر بابتغاء الوسيلة ولا بد منها البتة، فالوصول إلى الله تعالى لا يحصل إلا بالوسيلة وهي علماء الحقيقة ومشايخ الطريقة والعمل بالنفس يزيد في وجودها وأما العمل وفق إشارة المرشد ودلالة الأنبياء والأولياء فيخلصها من الوجود ويرفع الحجاب ويوصل الطالب إلى رب الأرباب.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: كنت أنا وصاحب لي قد أوينـــا إلى مغـــارة لطلـــب الدخول إلى الله وأقمنا فيها، ونقول: يفتح لنا غداً أو بعد غد؛ فدخل علينا يوماً رجل ذو هيبـــة، وعلمنا أنه من أولياء الله فقلنا له: كيف حالك فقال: كيف يكون حال من يقول يفتح لنا غداً أو بعد غد؟ يا نفس لَمَ لا تعبدين الله لله؟ فتيقظنا وتبنا إلى الله وبعد ذلك فتح علينا فلا بد من قطـــع التعلق من كل وجه لينكشف حقيقة الحال لا مزيد على ما قاله المفسرون الكرام رحمهم الله هـــو شاف. اللهم أحسن عاقبتنا وعاقبة أساتذتنا وإخواننا والمسلمين يا أرحم الراحمين.

أقـــول:

التقصير في المجاهدة سبب لعدم المعرفة، لأن الله تبارك وتعالى رتب الوصول إلى سبل معرفته على مجاهدة النفس فقال تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت: ٦٩]، والله تعالى لا يخلف الميعاد، وإذا لم يكن الإنسان في مجاهدته لنفسه قائماً، كان

في معصية الله واقعاً والوقوع في المعصية بسبب الغفلة، وهي مفتاح باب جهنم، كما أن الحضور مع الله تعالى مفتاح باب الجنة.

والله تبارك وتعالى أمرنا أن نجاهد أنفسنا، ونقطع شهواتنا، ونقتلها بالاستقامة الشرعية، حتى تكون الجنة هي المأوى فقال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} .

نسأل الله السلامة من كل إثم والعزيمة على كل بر، اللهم وفقنا لذلك آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـلِمِينَ } [المائدة: ٥١] .

لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى ثم عدد جرائم اليهود وما اهموا به الذات الإلهية من شنيع الأقوال وقبيح الأفعال فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ } اختلف المفسرون في سبب نزول الآية وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين لأن خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم فقال قوم: نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وعبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين وذلك أهما اختصما فقال عبادة: إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلا الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبيّ: لكني لا أبرأ من ولاية اليهود فإني أخاف الدوائر (حوادث الدهر وشرورها) ولا بد لي منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: « يا أبا الحباب ما نفست به (رغبت به) من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » فقال: إذن أقبل.

وقال عكرمة: نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلّم إلى بني قريظة حين حاصرهم فاستشاروه في الترول وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا فجعل إصبعه في حلقه أشار إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم فأنزل الله تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ } فنهى الله المؤمنين جميعاً وأخبر أنه من اتخذهم أنصاراً وأعواناً وحلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم وإن الله ورسوله والمؤمنين منه براء ثم علل النهي بقوله : { بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } أي هم يد واحدة

على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال، وملة الكفر واحدة فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين واجتماعهم على مضادتكم.

{ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } يعني ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، لأنه لا يتولى مولىً أحدٌ إلا وهو راض به وبدينه، وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام.

قال الزمخشري: وهذا تغليظ من الله وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال عليه الصلاة والسلام: « لا تتراءى ناراهما » والترائي تفاعل من الرؤية، إن قوماً من مكة أسلموا وكانوا مقيمين بها قبل الفتح فقال عليه الصلاة والسلام: « أنا بريء من كل مسلم مع مشرك » فقيل له: لِمَ يا رسول الله؟ فقال: « لا تتراءى ناراهما » أي يجب أن يتباعدا بحيث إذا أوقدت ناراهما لم تلمح إحداهما الأخرى وإسناد الترائي إلى النار مجاز.

وفي الآية إشارة { فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } أنه وجبت معاداته كما وجبت معاداتهم، ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم أي من أصحابهم.

وهذا إذا تولاهم لدينهم؛ وأما الصحبة لمعاملة شراء شيء منهم أو طلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمور الدينية فليس فيه هذا الوعيد.

قال المولى أبو السعود وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة.

{ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } تعليل لكون من يتولاهم منهم، أي لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين، وبموالاة أعداء الله، بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة.

اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقلّ من ذلك.

روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: ما لك قاتلك الله؟! ألا اتخذت حنيفاً، أما سمعت قول الله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ } قلتُ: له دينُه ولي كتابتُه فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام، يعني هب أنه قد مات فما تصنع بعده، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره.

{ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَآ أَسَرُّواْ فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ }.

وقوله: { فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ } يعني فترى يا محمد الذين في قلوبهم شك ونفاق { يُسَارِعُونَ فِيهِمْ }، يعني يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } المنافقون مثل عبد الله بن أبي وأصحابه يسارعون في مودة اليهود ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وكانوا يعينونهم على مهماتهم ويقرضونهم ويقول المنافقون: إنما نخالطهم لأنا نخشى أن تصيبنا دائرة.

قال الواحدي رحمه الله : الدائرة من دوائر الدهر كالدولة وهي التي تدور من قــوم إلى قــوم، والدائرة هي التي تخشى كالهزيمة والحوادث المخوفة، فالدوائر تدور، والدوائل تدول.

قال الزجاج: أي نخشى ألا يتم الأمر لسيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم فيدور الأمر كما كان قبل ذلك. ويدور الدهر علينا إما بقحط فلا يميروننا، ولا يفضلوا علينا وإما أن يظفــر اليهــود بالمسلمين فلا يدوم الأمر لسيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

{ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَآ أَسَرُّواْ فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ } قال المفسرون: { فَعَسَى } من الله واجب، لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله؛ فهو بمترلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له، والمعنى: فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسول الله صلى الله عليه وسلّم علــى أعدائه، وإظهار المسلمين على أعدائهم، أو أمر من عنده يقطع أصل اليهود، أو يخــرجهم عــن بلادهم فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم، وذلك لأنهم كانوا يشكون في أمــر الرسول صلى الله عليه وسلّم ويقولون: لا نظن أنه يتم له أمره والأظهر أن تصير الدولة والغلبة لأعدائه، وقيل: أو أمر من عنده يعني أن يُؤمرَ النبي صلى الله عليه وسلّم بإظهار أسرار المنــافقين وقتلهم فيندموا على فعالهم وقوله: { أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ } معناه لا يكون للناس فيه فعل البتة، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَهُــؤُلآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ } .

أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم أهؤلاء الذين حلفوا لكـــم يـــا معشر اليهود بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة؟ كما حكـــى تعـــالى :{ وَإِن قُـــوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } .

وقوله: { حَبِطَتْ أَعْمَـــلُهُمْ } أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة.

والفائدة في أن المؤمنين يقولون هذا القول هو أنهم يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى.

وقالوا إنهم يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم معنا ومن أنصارنا، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط بهم والاعتضاد بهم.

{ حَبِطَتْ أَعْمَـــلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ } والمعنى ذهب ما أظهروه من الإيمان وبطل كل خـــير عملوه، لأجل أنهم الآن أظهروا موالاة اليهود والنصارى فأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة فإنه لما بطلت أعمالهم بقيت عليهم المشقة في الإتيان بتلك الأعمال ولم يحصل لهم شيء مـــن ثمراتهـــا ومنافعها بل استحقوا اللعن في الدينا والعقاب في الآخرة.

أقـــول:

أقلعْ عن صحبة الأغيار الذين خالف قولُهم فعلهم، ولا تتكل على نفسك، ولا تدعي العلـــم بدون العمل فإن دعواك العلم بدون العمل باطل، فالعلم دليل العمل، واختر صحبة الأخيار فإنهم ينصحونك واقبل بصحبتهم فإنك ترشد بإرشادهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم اعلم أيها الأخ في الدين أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلّم وصف زمن العزلة وبيّن نعته ونعت أهله، وأمر فيه بالتفرد وكان لا محالة أعلم بالمصالح وأنصح لنا من أنفسنا فإن وجدت زمانك على ما وصف وبيّن؛ فامتثل أمره صلى الله عليه وسلّم واقبل نصيحته ولا تشك فإنه صلى الله عليه وسلّم كان أعرف بما يصلح لك في زمانك، ولا تتعلل بالعلل الكاذبة، ولا تخادع نفسك وإلا فأنت هالك ولا عذر لك عند الله يوم القيامة.

والوصف الذي هو الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذ ذكر الفتنة فقال : « إذا رأيتم الناس مرجت - أي فسدت - عهودهم وخفت - أي قلّت - أماناتهم وكانوا هكذا وشبّك بين أصابعه قلت: ما أصنع عندَ ذلك جعلني الله فداك قال: الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة » أخرجه أبو داود في السنن كتاب الملاح حديث حسن.

اللهم وفقنا لمحابِّك كلها، ووفقنا بصحبة الصادقين برحمتك يا أرحم الراحمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آهل وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } [المائدة: ٥٤ــ ٥٦].

في الآية إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرق كثيرة ، روى صاحب الكشاف أنه كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة:

ثلاث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم:

١ ــ بنو مدلج: ورئيسهم ذو الحمار، وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً ادعى النبوة في اليمن واستولى على بلادها، وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلّم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الدّيلمي بيَّتَهُ فقتله، وأَخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم بقتله ليلةَ قُتل، فَسُرّ المسلمون وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الغد؛ وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول.

٢ ــ بنو حنيفة: قوم مسيلمة، ادعى النبوة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلّم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين، وقُتِل على يد وحشي قاتل حمزة، وكان يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام.

٣ ــ وبنو أسد: قوم طليحة بن خويلد، ادعى النبوة، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم خالداً، فانهزم بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

١ ــ فزارة قوم عيينة بن حصن.

٢ ــ غطفان قوم قرة بن سلمة القشيري.

٣ ــ بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل.

٤ ــ بنو يربوع قوم مالك بن نويرة.

٥ ــ بعض بني تميم قوم سجاح بنت المنذر التي ادعت النبوة وزوجت نفسها من مسيلمة الكذاب.

٦ ــ كندة قوم الأشعث بن قيس.

٧ ــ بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد.

وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق، وفرقة واحدة في عهد عمر بن الخطاب رضـي الله عنه، غسان قوم جبلة بن الأيهم، وذلك أن جبلة أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يطوف ذات يوم جارّاً رداءه، فوطيء رجلٌ طرفَ ردائه فغضب فلطمه، فتظلم إلى عمـر رضي الله عنه؛ فقضى له بالقصاص عليه، إلا أن يعفو عنه فقال: أنا أشتريها بألف فأبى الرجل فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف، فأبى الرجل إلا القصاص فاستنظر عمر فأنظره عمر رضي الله عنه فهرب إلى الروم وارتد.

لّما قُبض النبي صلى الله عليه وسلّم ارتد عامة العرب إلا أهلَ مكة وأهلَ المدينة وأهل البحـرين من عبد القيس فقال المرتدون: أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فلا تُغصب أموالنا، فكُلِّمَ أبو بكر في ذلك فقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله تعالى بقوله: { وَأَقِيمُواْ الصَّلوةَ وَآتُواْ الزَّكَوةَ } والله لو منعوني عتوداً [والعتود: الحَوْلِيُّ من أولاد المعز] مما أدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لقاتلتهم عليه فبعث الله عز وجل عصائب مع أبي بكر رضي الله عنه فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلّم، حتى أقروا بالزكاة المفروضة.

قال الحسن: لولا ما فعل أبو بكر لألحد الناس بالزكاة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } خطاب على وجه التحذير والوعيد والمعنى يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدله بدين آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر، فسوف يأتي الله مكانهم بأناس

مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله ، يا أيها الذين آمنوا من يتول منكم الكفار فيرتد عن دينه فليعلم أن الله تعالى يأتي بأقوام آخرين ينصرون هذا الدين على أبلغ الوجوه وقال الحسن رحمه الله: علم الله أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم، فأخبرهم أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية إخباراً عن الغيب، وقد وقع المُخْبَرُ على وفقه فيكون معجزاً.

وقال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج رضي الله عنهم: هم أبو بكر رضي الله عنه وأصحابه لأنهم هم الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة.

وأما معنى المحبة فيقال: أحببت فلاناً بمعنى جعلت قلبي معرضاً بأن يحبه والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً، ومحبة الله تعالى العبد إنعامه عليه وتوفيقه وهدايته إلى طاعته والعمل بما يرضى به عنه وأن يثيبه أحسن الثواب على طاعته وأن يثني عليه ويرضى عنه.

ومحبة العبد لله عز وجل أن يسارع إلى طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته وأن يتحبب إليه بما يوجب الزلفى لديه جعلنا الله ممن يحبهم ويحبونه بمنّه وكرمه. وإنه تعالى قدم محبته لهم على محبتهم له وهذا حق لأنه لولا أن الله أحبهم لما وفقهم حتى صاروا محبين له.

{ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } أي رُحماءَ متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين.

قال ابن كثير: وهذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه ، وهي من صفات المؤمنين الذين اصطفاهم الله تعالى ووصفهم بقوله يحبهم ويحبونه

يعني أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تراهم كالولد لوالده وكالعبد لسيده.

والذل هنا بمعنى الشفقة والرحمة كقوله تعالى: { أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لين الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين وليس المراد من توصيفهم بكونهم أذلة على المؤمنين بيان أنهم مهانون محقرون في أعين المؤمنين بل بيان أنهم على عُلوِّ طبقتهم وفضلهم منخفضون متواضعون للمؤمنين.

إنه تعالى ذكر كلمة { عَلَى } حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم فيفيد أنّ كونهم أذلة ليس لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم، بل ذاك التذلل إنما كان لأجل أنهم أرادوا أن يضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع.

{ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً.

أقول: عدم الخوف وعدم المبالاة للخلق يدل على رسوخهم في الإيمان وعقيدتهم الصحيحة وحضورهم روحياً قلبياً شهودياً مع الله.

فإن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم فبين الله تعالى في هذه الآية أن من كان قوياً في الدين فإنه لا يخاف في نصرة دين الله بيده ولسانه لومة لائم.

{ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ } أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ، وقوله: { ذلِكَ } إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصف القوم بالمحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة الواحدة، فبين تعالى أن كل ذلك بفضله وإحسانه، وذلك صريح في أن طاعات العباد مخلوقة لله تعالى.

{ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ } أي واسع الإفضال والإحسان عليم بمن يستحق ذلك(١) لأنه يعلم السر وأخفى { لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ } فالواسع إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، ولما أخبر الله تعالى أنه سيجيء بأقوام هذا شأنهم وصفتهم أكد ذلك بأنه كامل القدرة لا يعجز عن هذا الموعود؛ كامل العلم فيمتنع دخول الخلف في إخباره ومواعيده.

ثم لما نهاهم الله تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ } أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون.

أقول: وهذه صفة المحبوبين الذين تركوا الطلب والمنة وخوف النار ولا يعبدون الله إلا لأنهم عبيد له جلّ وعلا.

وفي قوله: { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ } قولان:

الأول: أن المراد منه عامة المؤمنين وذلك أن عبادة بن الصامت لما تبرأ من اليهود وقال: أنا بريء إلى الله من حلف قريظة والنضير، وأتولى الله ورسوله نزلت هذه الآية على وفق قوله.

وروي أن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله إن قومنا قد هجرونا وأقسموا أن لا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، فترلت الآية فقال: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء.

معنى هذا، الآيةُ عامةٌ في حق كل المؤمنين، فكل من كان مؤمناً فهو ولي كل المؤمنين ونظيره قوله تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [التوبة: ٧١] وعلى هذا فقوله: { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } صفة لكل المؤمنين والمراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين لأنهم كانوا يدَّعون الإيمان إلا أنهم ما كانوا مداومين على الصلوات والزكاة قال تعالى في صفة صلاتهم: { وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى } [التوبة: ٥٤] وقال في صفة زكاتهم: { أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ } [الأحزاب: ١٩].

وقوله: { وَهُمْ رَاكِعُونَ } أولاً: المراد من الركوع الخضوع يعني أنهم يصلون ويزكون وهم منقادون خاضعون لجميع أوامر الله ونواهيه، ثانياً: إن المراد من شأنهم إقامة الصلاة وخص الركوع بالذكر تشريفاً له كما في قوله: { وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ }.

وأقول: الذين يختارون ويقدمون ويرجحون أمر الله وشريعته وأمر رسوله على أنفسهم وعلى كل شيء هم المؤمنون حقاً، اللهم اجعلنا ممن سبقت له العناية وتقدم في حقه التوفيق الخاص والهداية. آمين يا رب العالمين.

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ } قال في التسهيل: ذكر تعالى الولي بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بها؛ ثم عطف على اسمه تعالى الرسول صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قال إنما أولياؤكم لم يكن في الكلام أصل وتبع.

{ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } أي من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم.

وللمفسرين عبارات في قوله: { حِزْبَ اللَّهِ }، قال الحسن: جند الله، وقال أبو روق: أولياء الله، وقال بعضهم: أنصار الله، وقال الأخفش: حزب الله الذين يدينون بدينه ويطيعونه فينصرهم.

وحاصله موالاة الله في معاداة ما سوى الله كما قال الخليل عليه السلام: { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ } وموالاة الرسول صلى الله عليه وسلّم في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال صلى الله عليه وسلّم: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »، وقال: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» .

وموالاة المؤمنين في مؤاخاتهم في الدين كقوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والمقصود تمييز المؤمن المخلص ممن يدعي الإيمان ويكون منافقاً، لأن الإخلاص إنما يعرف بكونه مواظباً على الصلاة والزكاة في حال الركوع أي في حال الخشوع والإخبات لله تعالى.

ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله؛ وحزب الله هم الغالبون. وحزب الرجل أصحابه؛ والحــزب: الطائفة يجتمعون لأمر حزبهم واعلم أن الغلبة على أعداء الله الظاهرة والباطنة كالهوى والــنفس والشيطان إنما تحصل بنصرة الله تعالى قال تعالى { إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ }.

فمن اتبع هوى النفس ولم يهتم بتزكيتها فقد سعى في إلحاق نفسه بزمرة الأعداء فلــم يكــن منصوراً البتة إذ لا يحصل من الجسارة إلا الخسارة، والهوى مقتضى النفس والنفس ظلمانية ولا يتولد من الظلماني إلا الظلمة ولذا ترى الأنبياء والأولياء منصورين.

أقــول:

الارتداد نوعان:

الأول: الخروج من الدين والعياذ بالله.

والآخر خروج من أخلاق الإسلام، هذا شائع في زماننا، لأن الله تعالى كما ينهانا عن الارتداد ينهانا عن الخروج من الأخلاق الحميدة إلى الذميمة كالإسراف، وعــدم الغــيرة، والكــذب، والمخادعة، وعدم الخشوع في الصلاة، وعدم الاهتمام بالأمانات، وغير ذلك من المخالفات.

كما قال تعالى: { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِــيمٌ } [النور: ٦٣].

أي فليحذر الذين يخالفون أمر الرسول صلى الله عليه وسلّم ويتركون سبيله ومنهجه وسنته أن تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة.

أيها المؤمن حاسب نفسك، وزِن عملك بميزان القرآن واحكم بعد ذلك ثم قل الحق ولو علـــى نفسك.

أريد أن أنقل لك أيها القارىء الكريم عبارة أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: قال: مِنْ أجَلِّ مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد والرجوع إليه عند النوائب، فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاقتداء بالأئمة، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين { وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّـــذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ }. ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة فقد تمت ولاية الله له بقوله: { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }، ففرق بين الولايتين، فعبد يتولى اللهُ وعبد يتولاه الله فهما ولايتان، صغرى وكبرى اهـــ.

نسأل الله الثبات في الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنه سميع قريـــب، آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمـــد وعلـــى آلـــه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } [المائدة: ٥٧ ــ ٥٨] .

إنه تعالى نهى في الآية المتقدمة عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وساق الكلام في تقريره، ثم ذكر النهي العام عن موالاة الكفار فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً } هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام الذين يتخذون شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواص يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد. ومعنى اتخاذهم دين المسلمين مهزواً به وتلاعبهم به وإظهارهم ذلك باللسان مع الإصرار على الكفر في القلب. وقد رتب النهيَ عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزواً ولعباً إيماءً إلى العلة وتنبيهاً على أن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة.

وسبب نزول هذه الآية قيل: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإيمان ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

{ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ } ، { مِّنَ } ههنا لبيان الجنس كقوله : { فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ } والمراد بالكفار ههنا المشركون.

وخصوا به لتضاعف كفرهم فالنهي عن موالاة من ليس على الحق رأساً سواء من كان ذا دين، تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب، كأهل الكتاب، ومن لم يكن كالمشركين.

وهذه الآية تقتضي امتياز أهل الكتاب عن الكفار لأن العطف يقتضي المغايرة وقوله: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [البينة: ١] صريح في كونهم كفاراً، وطريق التوفيق بينهما أن كفر المشركين أعظم وأغلظ فنحن لهذا السبب نخصصهم باسم الكفر. والله أعلم.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً كما قال تعالى: { لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } وإنه يعني خافوا الله أيها المؤمنون أن تتخذوهم أولياء ونصراء، وارهبوا عقوبته في فعل ذلك، إن فعلتموه بعد تقدمه إليكم بالنهي عنه إن كنتم تؤمنون بالله وتصدقونه على وعيده على معصيته ثم بين تعالى جانباً من استهزائهم فقال:

{ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } أي وكذلك إذا أَذَّنْتم داعينَ إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب { اتَّخَذُوهَا } أيضاً هزواً ولعباً.

{ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر، فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثُوِّب للصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يـــدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام كما هو في الصحيحين.

وقال الزهري قد ذكر ألله التأذين في كتابه فقال: { وَإِذَا نَـــدَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً }. أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في البحر: حسد اليهود الرسول صلى الله عليه وسلّم حين سمعوا الأذان وقالوا: ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية نبه تعالى على أن مـــن اســـتهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتخذ ولياً بل يُهجر ويطرد. وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية التي قبلـــها. وذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتـــها في تطهـــير النفوس، ونفي العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بهـــا مصالح الدنيا.

وقال السدي في قوله: { وَإِذَا نَـــدَيْتُمْ } « كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمـــع المنـــادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حُرِقِ الكاذبُ فدخلت خادمته ليلة من الليالي بنارٍ وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله». رواه ابن جرير وابـــن أبي حاتم.

ودلت الآية على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده. وذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام: جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعته، فقال أبو سفيان لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخَبرتْ عني هذه الحصى فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن محيريز وكان يتيماً في حجر أبي محذورة قال: قلت لأبي محذورة يا عم إني خارج إلى الشام وأخشى أن أُسأل عن تأذينك فأَخْبَرَني أن أبا محذورة قال له نعم: خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين مَقْفَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ببعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحكيه ونستهزىء به فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأرسل إلينا، إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع » فأشار القوم كلهم إلي وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني وقال: «قم فأذن» فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا مما يأمرني به فقمت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم فألقى علي رسول الله صلى الله عليه وسلّم التأذين هو بنفسه قال: « قل الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة

حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أَمرَّها على وجهه ثم بين ثدييه ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله صلى الله عليه وسلّم سرة أبي محذورة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « بارك الله فيك وبارك عليك » فقلت: يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة فقال: «قد أمرتك به» وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلّم من كراهة وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأخبرني بذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة.

وفي الأذان حِكم منها، إظهار شعائر الإسلام، وكلمة التوحيد والإعلام بدخول الوقت، وبمكانها، والدعاء إلى الجماعة.

وفي الأذان إشارة إلى الدعوة إلى الله حقيقة والداعي هو الوارث المحمدي يدعو أهل الغفلة والحجاب إلى مقام القرب ومحل الخطاب فمن كان أصم عن استماع الحق استهزأ بالداعي ودعوته لكمال جهالته، ومن كان ممن ألقى السمع وهو شهيد يُقبل إلى دعوة الله العزيز الحميد وينجذب إلى حضرة رب العزة.

أقـــول:

القلب لا يتسع إلا لحب واحد، فإما أن يكون فيه حب الله تعالى وحب من أحـــب الله تعـــالى وأحبه الله تعالى، وإما أن يكون سوى ذلك، والمرء مع من أحب فطوبى لمن لم يُبق لقلبه حباً إلا لله سبحانه وتعالى ولم يرد إلا وجهه تعالى وتقدس، فيكون هو مع الله تعالى جل سلطانه، وإن كان مع الخلق واشتغل بهم صورة، وما لم يَخْلُ العبدُ عن مراد نفسه بالكلية، لا يكون الرب مـــراده، ولا يتسع قلبه محبة الله تبارك وتعالى. بل يتعلق قلبه بالأغيار، وربما أن يوالي أعداءه بســـبب الغفلـــة الشديدة التي تسيطر على قلبه، فمن أراد الله تعالى، وموالاة الأولياء والصالحين فلا بد له مـــن كثرة الذكر لله تعالى، مع تلاوة القرآن الكريم بتدبر، ثم مجاهدة النفس وقطع عروقها بالكلية.

نسأل الله تعالى بمنه وكرمه، أن يوفقنا لذكره، ولموالاة أوليائه، إنه على كـــل شـــيء قـــدير، وبالإجابة جدير آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بـــالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـلاً طَيِّبـاً وَاتَّقُـواْ اللَّـهَ الَّـذِى أَنـتُم بِـهِ مُؤْمِنُـونَ } [المائدة: ٨٧ ــ ٨٨] .

إن الله تعالى لما استقصى في المناظرة مع اليهود والنصارى؛ عاد بعده إلى بيان الأحكام وذكـر جملة منها. منها ما يتعلق بحل المطاعم والمشارب واللذات فقال : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } الطيبات: اللذيذات التي تشتيهيها النفوس وقد روي أنه صلى الله عليه وسلّم وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون وبالغ وأشبع الكـلام في الإنـذار والتحذير فعزموا على أن يرفضوا الدنيا ويحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل، وأن لا يناموا على الفُرُشِ، ويُخْصُوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض فأُخبر النبي صلى الله عليه وسلّم بذلك فقال لهم: « إني لم أؤمر بـذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطـر، آكـل اللحم والدسم وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس منّي ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرمت علـي اللحـم فـأنزل الله

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ }، روى الطبري عن عكرمة قال: كان أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم هموا بالخصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية، أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهداً.

فإن قيل: ما الحكمة في هذا النهي، فإن من المعلوم أن حب الدنيا مُسْتَوْلٍ على الطباع والقلوب، فإذا توسع الإنسان في اللذات والطيبات اشتد ميله إليها وعظمت رغبته فيها، وكلما كانت تلك النعم أكثر وأدوم، كان ذلك الميل أقوى وأعظم، وكلما ازداد الميل قوة ورغبة، ازداد حرصه في طلب الدنيا واستغراقه في تحصيلها، وذلك يمنعه عن الاستغراق في معرفة الله وفي طاعته ويمنعه عن طلب سعادات الآخرة وأما إذا أعرض عن لذات الدنيا وطيباتها فكلما كان ذلك الإعراض أتم وأدوم، كان ذلك الميل أضعف والرغبة أقل، وحينئذ تتفرغ النفس لطلب معرفة الله والاستغراق في خدمته، وإذا كان الأمر كذلك فما الحكمة في نهي الله تعالى عن الرهبانية؟

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن الرهبانية المفرطة والاحتراز التام عن الطيبات واللذات مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة التي هي القلب والدماغ، وإذا وقع الضعف فيهما اختلت الفكرة وتشوش العقل. ولا شك أن أكمل السعادات وأعظم القربات إنما هو معرفة الله تعالى، فإذا كانت الرهبانية الشديدة مما يوقع الخلل في ذلك بالطريق الذي بيناه لا جرم وقع النهي عنها.

الثاني: وهو أن حاصل ما ذكرتم أن اشتغال النفس بطلب اللذات الحسية يمنعها عن الاستكمال بالسعادات العقلية، وهذا مُسلَّم لكن في حق النفوس الضعيفة، أما النفوس المستعلية الكاملة فإنها لا يكون استعمالها في الأعمال الحسية مانعاً لها من الاستكمال بالسعادات العقلية، فإنا نشاهد النفوس قد تكون ضعيفة بحيث متى اشتغلت بمهم امتنع عليها الاشتغال بمهم آخر.

وكلما كانت النفس أقوى كانت الحالة أكمل، وإذا كان كذلك كانت الرهبانية الخالصة دليلاً على نوع من الضعف والقصور، وإنما الكمال في الوفاء بالجهتين والاستكمال في الناس.

الثالث: وهو أن من استوفى اللذات الحسية، وكان غرضه منها الاستعانة بها على استيفاء اللذات العقلية فإن رياضته ومجاهدته أتم من رياضة من أعرض عن اللذات الحسية، لأن صرف حصة النفس إلى جانب الطاعة أشق وأشد من الإعراض عن حصة النفس بالكلية فكان الكمال في هذا أتم.

أقول: هذا التوجيه في حق الخواص وأما العوام الذين في طلب اللذات والمشتهيات لا يخطر ببالهم صرف التقويات بالنعمة إلى الطاعة حتى تكون عاداتهم بالنيات طاعة والله المستعان.

الرابع: وهو أن الرهبانية التامة توجب خراب وانقطاع الحرث والنسل وأما ترك الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعات فإنه يفيد عمارة الدنيا والآخرة فكانت هذه الحالة أكمل.

ولذا فإنّ تركَ لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ للعبادة من غير إضرار بالنفس، ولا تفويت حق الغير ففضيلة لا مانع منها بل مأمور بها.

{ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } أي لا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام إن الله يبغض المتجاوزين الحد ، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفـــراط أو تفـــريط. { وَلاَ تَعْتَدُواْ } لا تسيروا بغير سنة المسلمين وفيه وجوه:

الأول: إنه تعالى جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً فنهى عن الاعتداء ليدخل تحت النهي عـــن تحريمها.

الثاني: إنه لما أباح الطيبات حرم الإسراف فيها بقوله: { وَلاَ تَعْتَدُواْ } ونظيره قوله: { وكُلُـــواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ }.

الثالث: يعني لما أحل لكم الطيبات فاكتفوا بهذه المحللات ولا تتعدوها إلى ما حرم عليكم.

{ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـــلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ } أي كلوا ما حَلّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في التسهيل: أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } هذا استدعاء إلى التقـــوى بـــألطف الوجوه كأنه يقول: لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكون علـــيكم الحســـرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله.

وفي الآية دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده فإنه تعالى لو لم يتكفل بذلك لما قال: { وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } وإذا تكفل برزق العبد وجب أن لا يبـــالغ بالطلـــب والحرص على الدنيا وأن يعول على ما وعده الله وتكفل به تعالى فإنه تعالى أكرم من أن يخلـــف الوعد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ».

من أمارات السعادة الوقوف على حد الأمر، إن أباح الحق شيئاً قبله، وقابله بالخشـــوع، وإن حظّر شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود.

أقـــول:

إذا طلبت نفسك الشراب والطعام والراحة؛ فأعطها بقدر ما تقوم به وتقوى على طاعة الله عز وجل، ولا تسترسل معها في كل مطلب، بل أعطها بمقدار ما سمح لك الشـــرع الشـــريف؛ وإلا تسقط من رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية والعياد بالله. لذا فالطعام مصيبة على المؤمن من جانب، وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوى به على معصية الله فهو مصيبة في حقه، وإن كان يتقوى به على طاعة الله فهو طاعة، وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ منه بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان بعد تحريه عن الحلال، وزهده بما في أيدي الناس، ولا بد للإنسان من أن يتفكر ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه، فعليه أن لا يذل نفسه لأحد من المخلوقات لأن الذي أوجده من العدم قال { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } أين العقول؟ لذا وجـــب علينا أن نتمسك بأذيال من يعرف الله حتى يوصلنا إلى الله ويوقفنا على هذا. آمين وسلام علـــى المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [المائدة: ٩٠ ــ ٩٢].

إن الله تعالى قال فيما تقدم { لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } إلى قوله { وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـلاً طَيِّباً } ثم لما كان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر لا جرم أنه تعالى بين أهما غير داخلين في المحللات، بل في المحرمات فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } قال ابن عباس ومجاهد: { الْخَمْرُ } جميع الأشربة التي تسكر، { وَالْمَيْسِرُ } القمار، كانوا يتقامرون به في الجاهلية وقوله :{ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ } أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخدام الأصنام، قال ابن عباس ومجاهد: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها.

{ رِجْسٌ } أي قذر ونجس تعافه العقول، وخبيث مستقذر من تزيين الشيطان ، والرجس هو العمل الذي يكون قوي الدرجة كامل الرتبة في القبح.

{ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } لأن الشيطان نجس خبيث لأنـــه كـــافر؛ والكـــافر نجـــس لقولـــه: { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث.

{ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القـــاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم. والهاء في { فَاجْتَنِبُوهُ } عائدة إلى الرجس؛ والرجس واقع على الأربعة المذكورة، فكان الأمر بالاجتناب متناولاً للكل.

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْـــرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائـــل إلا إيقـــاع العـــداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم القمار ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم.

قال أبو حيان: ذكر الله تعالى في الخمر والميسر مفسدتين:

إحداهما دنيوية، والأخرى دينية.

فأما الدنيوية: فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتؤول بشاربها إلى التقاطع؛ وأما الميســـر فـــإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده.

وأما الدينية: فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة. والميسر ســـواء كان غالباً أو مغلوباً يلهي عن ذكر الله.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر. اي انتهوا.

قال في البحر: وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم.

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى } قال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً .فلما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب انتهينا.

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ } أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلّم واحذروا مخالفتهما.

{ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } أي فإن أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله فإنه ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا ، وهذا وعيد من الله لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم فإن توليتم عن أمري ونهيي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي ، وقال أبو حيان: وفي هذا الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تَضمَّنَ أن عقابكم إنما يتولاه المُرسِلُ (الله) لا الرسول.

واعلم أن من أنصف وترك الاعتساف علم أن هذه الآية نص صريح في أن كل مسكر حرام.

وفي الآية تنبيه أن الله تعالى قرن الخمر والميسر بالأصنام ففيه تحريم بليغ لهما ولعل قوله عليه الصلاة والسلام (شارب الخمر كعابد الوثن)، مستفاد من هذه الآية. وفي الحديث: « من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سم الأساود وسم العقارب؛ إذا شربه تساقط لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها تفسخ لحمه كالجيفة يتأذى به أهل الموقف؛ ومن مات قبل أن يتوب

من شرب الخمر كان حقاً على الله أن يسقيه بكل جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد جهنم » وفي الحديث: « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها ».

والإشارة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } إيماناً حقيقياً مستفاداً من كتابة الحق بقلم العناية في قلوبهم : { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ } فأما الخمر فإنها تخمر العقل، وهو نور روحاني علوي من أوليات المخلوقات ومن طبعه الطاعة والانقياد والتواضع لربه كالمَلَك، وضده الهوى، وهو ظلماني نفساني سفلي من أخريات المخلوقات، ومن طبعه التمرد والمخالفة والإباء والاستكبار عن عبادة ربه كالشيطان. فإذا خمّر الخمر نور العقل، صار مغلوباً لا يهتدي إلى الحق وطريقه، ثم يغلب ظلمة الهوى، فتكون النفس أمارة بالسوء، وتستمد من الهوى فتتبع بالهوى السفلي جميع شهواتها النفسانية ومستلذاتها الحيوانية السفلية فيظفر بها الشيطان، فيوقعها في مهالك المخالفات كلها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلّم: «الخمر أم الخبائث» لأن هذه الخبائث كلها تولدت منها.

وأما الميسر فإن فيه تهييج أكثر الصفات الذميمة وهي الحرص والبخل والكبر والغضب والعداوة والبغض والحقد والحسد وأشباهها وبها يضل العبد عن سواء السبيل.

أقول:

كل معصية ثمرتها سوء الخلق، وأكثره ينتج من ألفة المغاير ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة.

وعلى هذا فلا بد لك أيها الأخ المؤمن من أن تحب في الله وتبغض في الله، فإذا أحببت إنساناً في الله بسبب طاعته لله ومحبته لله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه صار عاصياً وممقوتـــاً عنـــد الله عز وجل ولأن من أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض.

ولكن كل واحد من الحب والبغض دفين في القلب وإنما يترشح عند الغلبة، ويترشح بظهـــور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة، فمن كان محباً لله سبحانه وتعالى ولرسوله صـــلى الله عليه وسلّم يكون مع من كان محباً لهما، وإلا فلا.

لا بد أن تزال المشكلات إذا اختلطت الطاعة بالمعصيات فقلتَ كيف أجمع البغض والمحبة وهما متناقضان، فلا بدّ من العمل بمقتضيات الإيمان، وهو ترك المنهيات والائتمـــار بالمـــأمورات، والله المستعان.

اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة: ٩٤].

اعلم أن هذا نوع آخر من الأحكام، ووجه النظم فيه أنه تعالى كما قال: { لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة: ٨٧]، ثم استثنى الخمر والميسر عن ذلك، فكذلك استثنى هذا النوع من الصيد عن المحللات، وبين دخوله في المحرمات فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ } أي ليختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي، وكباره الرماح ، وقد نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكّنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون.

وقوله: بالحديبية سنة ست وهم محرمون أي بالعمرة، وأشيع قتل عثمان رضي الله عنه، فبايع النبي صلى الله عليه وسلّم أصحابه تحت الشجرة على أنهم يدخلون مكة حرباً، ثم حصل الصلح بين الكفار وبين رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالتحلل من العمرة بالحلق وذبح الهدايا.

قال في البحر: وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة ، وقوله: { لَيَبْلُوَنَّكُمُ } اي ليختبرن طاعاتكم من معصيتكم أي ليعاملنكم معاملة المختبر في قوله: { بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ } معنى التقليل أنه يعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي يكون التكليف فيها صعباً وشاقاً كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو ابتلاء سهل فإن الله تعالى امتحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم بصيد البر كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر، وهو صيد السمك.

وأيضاً يريد ببعض الصيد و{ مِّنَ } للتبعيض وهو صيد البر خاصة ولم يعم الصيد كله لأن للبحر صيداً.

وقوله: { تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ } بيان لحكم صغار الصيد وكباره، قال مجاهد: الأيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر والرماح تنال كبار الصيد.

{ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ } أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه ، ومعناه قيل نعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم، وقيل: ليظهر المعلوم، وهو خوف الخائف والتقدير ليعلم أولياء الله من يخافه بالغيب وفيه وجهان:

الأول: من يخافه حال إيمانه بالغيب كقوله: { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة: ٣].

الثاني: من يخاف بالغيب أي يخافه بإخلاص وتحقيق ولا يختلف الحال إلا بسبب حضور أحد أو غيبته كما في حق المنافقين الذين { وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ }.

{ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي فمن تعرض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذاب مؤلم موجع. والمراد عذاب الآخرة؛ والتعزير في الدنيا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا العذاب هو أن يضرب بطنه وظهره ضرباً وجيعاً وينزع ثوبه.

قال القفال: وهذا جائز لأن اسم العذاب قد يقع على الضرب كما سمي جلد الزانيين عذاباً قوله: { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور: ٢].

وقال حاكياً عن سليمان في الهدهد { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً } [النمل: ٢١] فيضرب ضرباً وجيعاً مفرقاً في أعضائه كلها ما خلا الوجه والرأس والفرج ويؤمر بالكفارة لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية والإشارة في الآية، إن الله جعل البلاء للولاء كاللهب للذهب فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} إيمان المحبين الذين تجردوا عن ملاذ الدنيا وشهواتها من الحلال وأحرموا بحج الوصول وعمرة الوصال { لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ } في أثناء السلوك { بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ } وهو ما سنح من المطالب النفسانية الحيوانية والمقاصد الشهوانية الدنيوية { تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ } أي ما يتعلق بشهوات نفوسكم ولذات أبدانكم {وَرِمَاحُكُمْ } أي ما يتعلق بالمال والجاه { لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ } وهو يعلم ويرى؛ أي ليظهر لكم الله ويميز بترك المطالب والمقاصد في طلب الحق من يخافه بالغيب والانقطاع عنه ويحترز عن الالتفات لغيره { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ } أي تعلق بالمطالب بعد الطلب { فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } من الرد والصد والانقطاع عن الله.

فينبغي للطالب الصادق أن يتحمل مشاق الرياضات ويزكي نفسه عن الشهوات، ويحترز عـــن أكل ما يجده من الحلال فضلاً عما حرم الله الملك المتعالي، فإن إصلاح الطبيعة والنفس وإن كان بفضل الله وعنايته لكن الصوم وتقليل الطعام من الأسباب القوية في هذا الباب.

سئل حضرة المولوي: هل يعصي الصوفي؟ قال: لا، إلا أن يأكل طعاماً قبل الاشتهاء فإنه سم له وداء. اللهم أعنا على إصلاح هذه النفس الأمارة.

أقـــول:

انتبه من الغفلة والرقدة؛ انظر كيف اختبر الله عز وجل النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم مـــع عصمته والصحابة الكرام مع تبشير الله إياهم بالجنة في الدنيا.

تمسك بشريعة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم، هذا آخر الزمان قد ظهر سوق النفـــاق، سوق الكذب، فاحذر صحبة الفاسقين الكاذبين ولا تصاحب نفسك، فهي عدوة لك منافقـــة، وكاذبة، وفاجرة، تسعى لهلاكك كيف تكون معها؟ فخالفها ولا توافقها، وقيدها ولا تطلقهـــا، احبسها وأَجرِ عليها حقها الذي لا بد لها منه، اقلعها بالمجاهدات.

وأما الهوى فاركبه ولا تدعه يركبك، واستعن بالله ودم على ذكر الله حتى تتغذى الروح فتسهل عليك الطاعة، وأخلص في العمل حتى ينفعك القليل منه، اللهم وفقنا لذلك. آمين وسلام علـــى المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [المائدة: ٩٥ ــ ٩٦].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } أي: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، (الصيد) عند أبي حنيفة اسم لكل ممتنع متوحش من الحيوانات سواء كان مأكول اللحم أو لم يكن؛ والمراد ما عدا الفواسق وهي العقرب والحية والغراب والفأرة والكلب العقور والحدأة والعادي من السباع، فإنها تقتل في الحل والحرم { وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } جمع حرام وهو المحرم(١) يقال أحرم إذا عقد الإحرام، وأحرم إذا دخل الحرم وقيل: هما مرادان في الآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم.

{ وَمَن قَتَلَهُ منكُم } ذاكراً لإحرامه أو عالماً أن ما يقتله مما يحرم قتله مع أن محظورات الإحـــرام يستوي منها العمد والخطأ لأن مورد الآية فيمن تعمد، فقد روى أنه عَنَّ لهم في عمرة الحديبيـــة حمار الوحش فحمل عليه أبو اليسر فقتله فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلـــت الآيـــة ولأن الأصل فعل المتعمد، والخطأ ملحق به للتغليظ.

وعن الزهري نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ ، قوله: { مِّنْكُمْ } أي من المـــؤمنين، ولعل المقصود من التقييد بالحال توبيخ المؤمن على عدم جريانه على مقتضى إيمانه.

قوله: { فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ } أي مَنْ قَتلَ الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النعم وهي الإبل والبقر والغنم.

قال الفقيه أبو جعفر، وإنما ذكر القتل دون الذبح للإيذان بكونه في حكم الميتة فكل ما يقتلـــه المحرم من الصيد لا يكون مذكى، وغير المذكى لا يجوز أكله، قوله: { مِّثْلُ مَا قَتَلَ } أي: مماثل لما قتله فهو صفة الجزاء والمراد به عند أبي حنيفة وأبي يوسف المثل باعتبار القيمة لا باعتبار الخلقـــة والهيئة.

{ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ } أي يحكم بالمثل حكمان عادلان من المسلمين ، {هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ} أي حال كونه هدياً ينحر ويتصدق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثل من النعم، كالعصفور والجراد فعليه قيمته.

والهدي: ما يهدى إلى البيت تقرباً إلى الله تعالى من النعم، أيسره شاة وأوسطه بقرة وأعلاه بدنة أي ناقة ، وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها وتربعها وإنما أريد بها كل الحرم لأن الذبح والنحـــر لا يقعان في الكعبة، ولا عندها ملازقاً لها، ونظير هذه الآية: { ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَـى الْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ } [الحج: ٣٣].

{ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ } أي: وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم فيقوّم الصيد المقتول ثم يشترى به طعام فيصرف لكل مسكين مدَّ منه.

{ أَو عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍّ يوماً، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام قال في التسهيل: عدّد تعالى ما يجب في قتل المحـــرم للصيد فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور أنهـا علــى التخيير، وهو الذي يقتضيه العطف بـــ { أَو }، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهمـا علــى الترتيب.

وقوله: { لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } متعلق بقوله: { فَجَزَآءٌ } فعليه أن يجازي أو يكفر ليذوق ســوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، والوبال المكروه والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء لثقلـــه عليه، من قوله تعالى: { فَأَخَذْنَـهُ أَخْذاً وَبِيلاً } والطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ (فلا يستطيبه).

{ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَف } أي من قتل الصيد قبل التحريم.

{ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ } أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة.

والانتقام المبالغة في العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء.

{ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } أي غالب على أمره منتقم ممن عصاه ، شديد ممن أصر على العصيان والاعتداء قال الله تعالى مخاطباً لخليله:

« يا إبراهيم خف مني كما تخاف من السبع الضاري »، يعني أن الله تعالى إذا أراد إجراء قضائه على أحد لا يفرق بين نبي وولي وعدو، كما لا يفرق السبع المفترس بين نَفّاع وضَرَّار، فهو تعالى شديد البطش فكيف يتخلص المجرمون من يد قهره وانتقامه. فليحذر العاقل من المخالفة والعصيان بقدر الاستطاعة والإمكان، أينما كان فإن الإنسان لا يحصد إلا ما يزرع. والعجب أن الإنسان الضعيف كيف يعصي الله القوي وليس إلا من الانهماك في الشهوات والغفلة عن الله تعالى.

{ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ } أي أحل لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين. { صَيْدُ الْبَحْرِ } ما يصاد في المياه كلها بحراً كان أو نهراً أو غديراً وهو ما لا يعيش إلا في الماء مأكولاً كان أو غير مأكول، فما يعيش في البر والبحر (كالبط والضفدع) لا يسمى صيد البحر بل كل ذلك صيد البر ويجب الجزاء على قاتله ولقد فُصّل هذا في كتب الفقه.

{ وَطَعَامُهُ مَتَـعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ } أي وما يطعم من صيده كالسمك وغيره منفعة وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم.

{ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً } اي وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم محرمين. { وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمـــالكم وهو وعيد وتهديد. ليكون المرء مواظباً على الطاعة محترزاً عن صفة المعصية، ولما كان قتل الصيد في حال الإحرام مشدداً في النهي عنه تكرر في هذه السورة أربع مرات:

أولها قوله تعالى: { غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ }.

ثانيها قوله تعالى: { لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ }.

ثالثها قوله تعالى: { لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ }.

رابعها قوله تعالى: { وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ }.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء إليه كما قال تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ } أي المنتهى والمرجع بسوق الملائكة إلى حيث أمرهم الله إما إلى الجنة وإما إلى السعير. وفي الحديث: « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومـــن أشفق من عذاب جهنم كف نفسه عن المحرمات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » ومن أراد سهولة الموت فليبادر إلى الخيرات فمن لم يترك شهوة لم يرض عنه ربه بطاعته ومن لم يتق الله في سره لم ينتفع بما أبداه من علامة التقوى.

أقـــول:

على العاقل الطالب الصادق أن ينقطع عن الالتفات إلى الغير ويتصل إلى من بيده الخـــير والله الموفق والمعين.

أيها المؤمن استح من الله عز وجل، فأنت داخل في هذا الخطاب العام الشامل للمؤمنين. اذكر وقوفك بين يدي ربك في الدنيا قبل ارتحالك إلى يوم لا ينفعك فيه الندم. فتقول المعـــروف ولا تفعله، اسمع النكير الوارد على من يأمر بما لا يفعل مثل قوله تعالى:

{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }، { كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }.

استدل علماؤنا بهذه النصوص على اشتراط العدالة في الأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكـــر. وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب.

ومما روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم؟ فقالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيـــه » رواه ابن حبان من حديث أنس رضي الله عنه.

لا بد أن تتوب إلى الله من كل ذنب وتعتذر إليه وهو أرحم الراحمين.

قال الله تعالى: { وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ } [المائدة: ١٠١ ــ ١٠٢].

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه تعالى لما قال: { مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ } صار التقدير كأنه قال: ما بلغه الرسول إليكم فخذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلّم إليكم فلا تسألوا عنه، ولا تخوضوا فيه، فإنكم إن خضتم فيما لا تكاليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الفاسد من التكاليف ما يثقل عليكم ويشق عليكم.

الثاني: أنه تعالى لما قال: { مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ } وهذا ادعاء منه للرسالة، ثم إن الكفار كانوا يطالبونه بعد ظهور المعجزات بمعجزات أخرى على سبيل التعنت كما قال تعـالى حاكيـاً عنهم: { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا } [الإسراء: ٩٠]، إلى قولـه : { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً } والمعنى: إني رسول أمرت بتبليغ الرسالة والشرائع والأحكام إليكم، والله تعالى قد أقام الدلالة على صحة دعواي في الرسالة بإظهار أنواع كثيرة من المعجزات، فبعد ذلك طلب الزيادة من باب التحكم وذلك ليس في وسعي ولعل إظهارها يوجب ما يسوءكم مثل أنها لو ظهرت فكل من خالف بعد ذلك استوجب العقـاب في الـدنيا. ثم إن المسلمين لما سمعوا الكفار يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلّم بهذه المعجزات وقع في قلوبهم ميل إلى ظهورها فعرفوا في هذه الآية أنهم لا ينبغي أن يطلبوا ذلك فربما كان ظهورها يستوجب مـا يسوءهم.

فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } أي: لا تسـألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري: أي لا تكثروا مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها ، وهذا تأديب من الله لعباده المؤمنين ونهي لهـم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلـك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سـليم الصـدر »، وقـال البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم خطبة ما سمعت مثلـها

قط، وقال فيها: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وجوههم، لهم حنين فقال رجل من أبي؟ قال: فلان فنزلت هذه الآية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وكذا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم فقال: « لا أسأل عن شيء إلا أجبت » فقال رجل: أين أبي فقال: « في النار » فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال من أبي؟ فقال: أبوك حذافة وكان يدعى لغيره فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلّم نبياً وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله حديثوا عهد بجهالة وشرك والله أعلم من آباؤنا. فسكن غضبه ونزلت: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ }.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون النبي صلى الله عليه وسلّم استهزاء فيقول الرجل من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ }.

وقال سراقة بن مالك ويُروى عكاشة بن محصن: يا رسول الله الحج علينا في كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى أعاد مرتين أو ثلاثة فقال عليه الصلاة والسلام: « ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لتركتم، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم فإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ».

فالسؤال عن الأشياء ربما يؤدي إلى ظهور أحوال مكتومة يكره ظهورها؛ وربما ترتبت عليه تكاليف شاقة صعبة؛ فالأوْلى بالعاقل أن يسكت عما لا تكليف عليه فيه. وقال أبو ثعلبة الخشني: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

{ تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ } أي: وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسوءكم فلا تسألوا عنها وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في تفسير الآية { لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ } في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال: أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأ ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بيّن لكم وأبدى.

وفي تأويل الآية أن السؤال على قسمين:

الأول: السؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه فهذا السؤال منهي عنه بقوله: { لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ }.

الثاني: السؤال عن شيء نزل به القرآن، لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي؛ فههنا السؤال واجب بقوله: { وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ } والفائدة في ذكر هذا القسم أنه لما منع في الآية السؤال أوهم أن جميع أنواع السؤال ممنوع منه، فذكر ذلك تمييزاً لهذا القسم عن ذلك القسم.

{ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها. والله واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة. وقال عطاء:{ غَفُورٌ } يعني لما كان في الجاهلية؛ { حَلِيمٌ } يعني عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم.

وقال بعض العلماء: الأشياء التي يجوز السؤال عنها هي ما يترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه.

{ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ } أي سأل أمثال هذه المسائل قوم قبلكم فلما أُعطوها وفرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال: { ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ } أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبيائهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

قال المفسرون: يعني قوم صالح عليه السلام، سألوا الناقة ثم عقروها. وقوم موسى عليه السلام قالوا: أرنا الله جهرة فكان ذلك وبالاً عليهم. وبنو إسرائيل: قالوا لنبيٍ لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال تعالى: { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ }، { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ } فسألوها ثم كفروا بها. وقوم عيسى عليه السلام سألوا المائدة ثم كفروا بها فكأنه تعالى يقول: أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم، ساءهم ذلك فلا تسألوا عن أشياء فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك.

فإن قيل: إنه تعالى قال أولاً: { لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ } ثم قال هنا: { قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ } وكان الأولى أن يقول قد سأل عنها قوم فما السبب في ذلك؟

الجواب: المتقدمون إنما سألوا من الله إخراج الناقة من الصخرة، وإنزال المائدة من السماء فهم سألوا نفس الشيء. وأما أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم فهم ما سألوا ذلك وإنما سألوا عن أحوال الأشياء وصفاتها فلما اختلف السؤالان في النوع اختلفت العبارة أيضاً. إلا أن كلا القسمين يشتركان في وصف واحد وهو أنه خوض في الفضول، وشروع فيما لا حاجة إليه وفيه خطر المفسدة.

والإشارة في الآيتين، أن الله تعالى نهى أهل الإيمان أن يتعلموا العلوم اللدنية، وحقائق الأشياء بطريق السؤال، لأنها ليست من علوم القال وإنما هي من علوم الحال، إذ لم تهتدوا إلى الحقائق ببيان القال، فتقع عقولكم المشوبة بآفات الهوى والوهم والخيال في الشبهات، فتتهالكوا في أوديتها كما كان حال طوائف الفلاسفة إذ طلبوا علوم حقائق الأشياء بطريق القال والبراهين المعقولة عن دركها، استزلهم الشيطان عند البحث عن الصراط المستقيم وأوقعهم في أودية الشبهات والهلكات فهلكوا وأهلكوا خلقاً عظيماً بتصانيفهم وقال عليه الصلاة والسلام: « أرنا الأشياء كما هي » وكما كان حال الأمة مع النبي صلى الله عليه وسلّم كان يعلمهم الكتاب بالقال والحكمة (السنة) بالحال بطريق الصحبة وتزكية نفوسهم عن شوائب آفات النفس وأخلاقها كقوله: { يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }. والحكمة اتباع السنة.

أقـــول:

أيها الأخ المؤمن إنّ تَعَلُّم علوم الحقائق يكون بتقوى الله عز وجل { وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّـــهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٨٢]. والتقوى بترك المعاصي، والقيام بالعمـــل الصـــالح، والعمل الصالح لا يكون بكثرة العدد، بل بتجرد العمل لوجه الله عز وجل، ولا عـــبرة بكثـــرة العمل بل العبرة بتجريد العمل من كل الحظوظ والشهوات، وأن يكون لوجه الله عـــز وجـــل خالصاً.

{ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلاةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: ٥].

كثرة العمل الظاهر مع عدم الإخلاص لا تنفع، فالشأن في الصفوة لا في الكثرة، وقالوا: جوهرة واحدة خير من ألف خرزة، وإن كثرة اللب لا يكون بكثرة عدد الجوز، وكثيراً ما تكسر الجوز الكثير فلا تحصل إلا على اللب القليل.

نسأل الله تعالى أن يكرمنا بما هو أهله بفضله ومنّه، آمين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة: ١٠٥].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبراً لهم، أنه من أصلح أمـــره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً أو بعيداً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، وهكذا قـــال مقاتل بن حيان.

وقال الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال أيّة آية؟ قلت: قول الله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كـــل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القـــابض علـــى

الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » وفي « رواية قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم قال: بل أجر خمسين منكم ». [ابن كثير]

قوله: «شحاً مطاعاً» الشح نهاية البخل، وقوله: مطاعاً أي يطيعه صاحبه. قوله: «وهوى» ما تميل إليه النفس من القبائح قوله: «متبعاً» أي يتبعه صاحبه، قوله: «ودنيا مؤثرة» أي يقدمها صاحبها على الآخرة، قوله: «إعجاب كل ذي رأي برأيه» أي فلا يعجبه رأي غيره ولا يقبل نصيحته(١) وفي قوله { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } أي احفظوها من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها.

{ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } أي: لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طريق الهدى لا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلّم: { فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر: ٨] وقال أبو السعود: ولا يتوهمن أحد أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن يُنكر.

وقد روي عن الصديق رضي الله عنه قال يوماً على المنبر: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها؛ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه » ويؤيده حديث : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً » الحديث ، وأولى هذه الأقوال وأصح هذه التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والأخذ على يد الظالم، لأن الله تعالى يقول: { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى } ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم حتى يرجـــع عـــن ظلمه. وقد ذكروا في أسباب الترول وجوهاً:

أحدها: ما روي عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلّم لّما قَبل من أهل الكتاب الجزية ولم يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف عير المنافقون المؤمنين بقبـــول الجزية من بعض الكفار دون البعض فترلت هذه الآية أي { لاَ يَضُرُّكُمْ } ملامة اللائمين إن كنتم على الهدى.

ثانيها: أن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالتهم فقيل لهـــم : { عَلَـــيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ }، وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى { لاَ يَضُرُّكُمْ } ضلال الضـــالين ولا جهل الجاهلين.

ثالثها: أنهم كانوا يغتمُّون لعشائرهم لما ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك والأقرب أنه لما حكـــي عن بعضهم أنه قيل لهم: { تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَـــفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَآ } ذكر تعالى هذه الآية.

والمقصود منها بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتشبهوا بهم في هذه الطريقة الفاسدة بل ينبغي أن يكونوا مصرين على دينهم، وأن يعلموا أنه لا يضرهم جهل أولئك الجاهلين إذا كانوا راسخين في دينهم ثابتين فيه.

فإن قيل: ظاهر الآية يوهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير واجب فالجواب من وجوه:

الأول: وهو الذي عليه أكثر الناس أن الآية لا تدل على ذلك بل توجب أن المطيــع لربـــه لا يكون مؤاخذاً بذنوب العاصي، أما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بالــدلائل. وإن الاهتداء لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنّ ترك ذلك مع القدرة عليه ضلال.

الثاني: الآية مخصوصة بالكفار الذين علم أنه لا ينفعهم الوعظ، ولا يتركون الكفر.

الثالث: الآية مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله، فههنا عليه نفسه لا تضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل.

وأقول: الهداية ليست عليك ولكن التبليغ من وظيفتك ما دام بظنك تُقْبَل النصيحة ولا تُنْتَقَد لئلا يكون الحقارة على الحق، لأن قول الحق عند من لم يعرف الحق نقد على الحق.

{ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، وهذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره.

والإشارة في قوله: { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } فاشتغلوا بتزكيتها فإنه: { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا } فلا تشتغلوا قبل تزكيتها بتزكية نفوس الخلق ولا تغتروا بإرادة الخلق، وبقولهم وحسن ظنهم فيكم، وتقربهم إليكم فإنها للطالب سم الساعة فقد قال تعالى: { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } فأما في زماننا هذا فقد آل الأمر إلى أن من لم يكن مريداً قط يدعي المشيخة ويخبر بالمشيخة الجهال والضلال من جهالته وضلالته حرصاً لانتشار ذكره وشهرته وكثرة مريديه فلا بد الاحتراز مـــن مثل هذا والله المستعان.

أقـــول:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يترك إلا عند العجز؛ لأنه عبادة والمحتسب يحس بفائدته، كما يحس وينتفع بالعبادة الجسمانية. وهذه الفائدة تحصل بحسب الإخلاص والتوجه والشفقة على الأمة. فعلى المحتسب أن يراعي الأحكام الشرعية، وأن يخرج نفسه من البين حـــتى يـــتم أمـــر الإخلاص وينال التبليغ وثوابه.

اللهم وفقنا لذلك بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـــه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَآ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [المائدة: ١٠٦ ــ ١٠٨].

اعلم أنه لما أمر بحفظ النفس في قوله: { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } أمر بحفظ المال في قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ }.

وقد اتفقوا على أن سبب نزول هذه الآية، أن تميماً الداري وأخاه عدياً كانا نصرانيين خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً، خرجوا للتجارة فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه ألقاه فيما بين الأقمشة، ولم يخبر صاحبه بذلك، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل فأخذا من متاعه إناء من فضة منقوشاً بالذهب ثلاثمائة مثقال، ودفعا باقي المتاع إلى أهله لما قدما، ففتشوا فوجدوا

الصحيفة، وفيها ذكر الإناء، فقالوا لتميم وعدي: أين الإناء؟ فقالا: لا ندري والذي دفع إلينا دفعناه إليكم، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ } أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت، وظهرت علائمه فينبغي أن يشهد على وصيته ، وليشهد ما بينكم لأن الشهادة إنما يحتاج إليها عند وقوع التنازع والتشاجر.

{ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } دليل على وجوب الوصية تنبيه على أن الوصية ينبغي أن لا يتهاون بها لأنه لما جعل زمان حضور الموت زمان الوصية، دل ذلك على أنه ينبغي أن يوقع الوصية في زمان حضور الموت لدلالته على أن الوصية كالموت وعدم التخلف عن ذلك الزمان كما أنه لا بد من أن يقع فيه الموت لا بد أن تقع فيه الوصية.

{ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ } أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم { ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ } هما صفتان للاثنان أي صاحبا أمانة وعقل من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له أو من أهل دينكم يا معشر المؤمنين وهذه جملة تامة تتناول حكم الشهادة على الوصية في الحضر والسفر { أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ } أو شهادة عدلين آخرين من غيركم من الأجانب أو من غير أهل دينكم أي من أهل الذمة، وقد كان ذلك في بدء الإسلام لعزة وجود المسلمين لا سيما في السفر ثم نسخ بقوله: { وَأَشْهِدُواْ ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ } [الطلاق: ٢] فلا يقبل شهادة الذمي على المسلم لعدم ولايته عليه، والشهادة من باب الولاية.

{ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ } أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى لأمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فشهادة بينكم شهادة آخرين.

وسمى الله تعالى الموت في هذه الآية: { مُّصِيبَةُ } قال علماؤنا والموت وإن كان مصيبة عظمى ورزية كبرى، فأعظم منه الغفلة عنه والإعراض عن ذكره وترك التفكر فيه وترك العمل له وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكر وروي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً »، ويروى أن أعرابياً كان يسير على جمل له فخر الجمل ميتاً فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول: مالك لا تقوم؟ مالك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة وجوارحك سالمة، ما شأنك! وما الذي كان يحملك؟ ما الذي كان يبعثك؟ ما الذي صرعك؟ ما الذي عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكراً في شأنه متعجّباً في أمره.

{ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ } اي توقفوهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم استحلف عدياً وتميماً بعد العصر عند المنبر ، { تَحْبِسُونَهُمَا } استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين فقال تحبسونهما ، { مِن بَعْدِ الصَّلاةِ } أي بعد صلاة العصر لتعيّنها عندهم للتحليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولأن جمع أهل الإيمان يعظمون ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلّم وقتئذٍ حلَّف من حلَّف.

{ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ } أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادهما قال أبو السعود: أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة أو أخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بـــالله(١) وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشـــاهد المســـلم غـــير مشروع.

{ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } أي يحلفان بالله قائلين: لا نحابي بشـــهادتنا أحـــداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدينا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نقسم له قريباً لنا؟ كأنهما قالا لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من حرمة اسمه تعالى مالاً ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء، فقد انضم إليها ما هو أقوى منها، وأَدْعى إلى الحلف كاذباً وهي صيانة حظ أنفسهما.

{ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَاً لَّمِنَ الآثِمِينَ } أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين وإنما أضاف الشهادة إليه لأنه أمر بإقامتها وهى عن كتمانها.

{ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْماً } أي فإن اطلع بعد حلفهما على خيانتـــهما أو كـــذبهما في الشهادة.

وروي أنه لما نزلت الآية الأولى صَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلّم العصر ودعا بتميم وعدي فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنه لم يوجد منا خيانة في هذا المال ولما حلفا خلّـــى رسول الله صلى الله عليه وسلّم سبيلهما، وكتما الإناء مدة، ثم ظهر.

اختلفوا: فقيل وجد بمكة فقالا: كنا قد اشتريناه منه فقالوا: ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئاً فقلتما لا؟ فقالا: لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نعثر فكتمنا فرفعوا القصة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأنزل الله { فَإِنْ عُثِرَ } فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر فدفع الرسول صلى الله عليه وسلّم الإناء إليهما وإلى أولياء الميت وكـان تمـيم الداري يقول بعدما أسلم: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله تعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الداري فلما أسلم أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال: حلفت كاذباً وأنا وصاحبي بعنا الإناء بـألف وقسمنا الثمن ثم دفع الألف إلى موالي الميت، ومعنى الآية: فإن حصل العثور والوقوف على أنهما أتيا بخيانة واستحقا الإثم بسبب اليمين الكاذبة.

{ فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ } أي فرجلان آخران من الورثـة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنيْن، ليكونا من أولى من يستحق الميراث.

{ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَآ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ } أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا.

{ وَمَا اعْتَدَيْنَآ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ } أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنا إذا كـذبنا عليهم نكون من الظالمين أي وما تجاوزنا فيها من الحق إنا إذاً من الواضعين الباطل موضع الحق أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا ومعنى الآيتين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشهد عدلين مـن ذوي نسبه أو دينه على وصيته أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفرٍ فـآخران

من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمارة ومظنة، حلف آخران من أولياء الميت والحكم منسوخ إن كـان الاثنـان شاهدين فإنه لا يحلف الشاهد، ولا يعارض يمينه بيمين الوارث وثابت إن كانا وصيين، ورد اليمين إلى الورثة، إما لظهور خيانة الوصيين أو لتغيير الدعوى.

{ ذلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ } أي ذلـك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل(١) ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فيترجروا عن الخيانة المؤدية إليه فأي الخوفين وقع حصل المقصود الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ } أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره في شهادتكم فلا تحرِّفوها وفي أيمانكم فلا تحلفـوا أيماناً كاذبة وفي أماناتكم فلا تخونوها وفيما بيّنه الله من الأحكام فلا تخالفوا حكمه.

{ وَاسْمَعُواْ } ما توعظون به كائناً ما كان سمعَ طاعةٍ وقبول.

{ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـسِقِينَ } الخارجين عن الطاعة أي فإن لم تتقوا ولم تسـمعوا كنـتم فاسقين والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم. واعلم أن الشهادة في الشرع الإخبار عن أمرٍ حضره الشهود وشاهدوه، إما معاينة كالأفعال، نحو القتل والزنى أو سماعاً كالعقود والإقرارت فلا يجوز أن يشهد إلا بما حضره وعلمه وسمعه ولهذا لا يجوز له أداء الشهادة حتى تذكر الحادثة وفي الحديث: « إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فـدع » وفي الشـهادة

إحياء حقوق الناس وصون العقود عن التجاحد وحفظ الأموال على أربابها وفي الحديث: « أكرموا شهودكم فإن الله يستخرج بهم الحقوق »، ومن تعيَّن للتحمل لا يسعه أن يمتنع إذا طلب لما فيه من تضييع الحقوق إلا أن يقوم الحق بغيره بأن يكون في الصك سواه، ممن يقوم الحق بـه، فيجوز له الامتناع، لأن الحق لا يضيع بامتناعه، وهو مخير في الحدود بين الشهادة والستر لأن إقامة الحدود حسبة، والستر على المسلم حسبة والستر أفضل، وفي الحديث: « من ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة » [روح البيان].

أقـول:

موضوع الشهادة ذيل طويل ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتب الفقه، والمهم لنا الصدق في القول والفعل، في المعاملات أينما نكون، وهو من مقتضى الإيمان الذي وعدنا ربنا تبارك وتعالى عليه وعداً منجزاً فقال: { وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا } أي وبشر المصدقين بالقرآن الذين يعملون بالأحكام وبمقتضى الإيمان أن لهم جنة أياً من كان في أي زمان ومكان، كما قال تعالى: { هَـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } في القول والفعل، عصمنا الله وإياكم من مخالفة أمره، ونسأله ألاّ يجعلنا ممن أضاع أنفاس عمره، إنه هو الموفق والمرشد والوهاب، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ١٥ ــ ١٧].

سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات، والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم الأعداء، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم، وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } كحافزٍ لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

أما النداء الأول: فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة وقد توعدت المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً } أي إذا لقيتم أعدائكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً (أي يدبون على أستهم كالصبي يمشي على مقعده)، وهو خطاب للمؤمنين بحكم كلي جارٍ فيما سيقع من الوقائع والحروب جيء به في تضاعيف القصة إظهاراً للاعتناء به وحثاً على المحافظة عليه، والمراد بالزحف ليس إلا المشي للقتال من دون اعتبار كثـرة أو قلـة، وسمي المشي كذلك به لأن الغالب عند ملاقاة الطائفتين، مشي إحداهما نحو الأخرى مشياً رويداً، والمعنى إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالهم متوجهين لمحاربتهم، أو ماشياً كل واحد منكم إلى صـاحبه فلا تدبروا وتقييد النهي بذلك لإيضاح المراد بالملاقاة، ولتفظيع أمر الإدبار لما أنه مناف لتلـك الحال، كأنه قيل: حيث أقبلتم فلا تدبروا.

{ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ } أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا(١) والمعنى يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم أعداءكم الكفرة للقتال وهم جمع جم، وأنتم عدد نزر فلا تولوهم أدباركم فضلاً عـن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم مع قِلَّتكم فضلاً عن أن تدانوهم بالعدد أو تساووهم(١) ولا تجعلوا ظهوركم مما يليهم. ثم إنه تعالى لما نهى عن هذا الانهزام بيَّن أن هذا الانهزام محرم إلا في حالتين:

إحداهما: أن يكون متحرفاً للقتال والمراد منه أن يخيل إلى عدوه أنه منهزم، ثم ينعطف عليه وهو أحد أبواب خداع الحرب ومكايدها.

الثانية: أو { أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } يقال تحيز إذا انضم واجتمع.

إذا عرفت هذا فنقول: الفئة الجماعة، فإذا كان هذا المتحيز كالمنفرد، وفي الكفار كثرة، وغلب على ظن ذلك المنفرد أنه إن ثبت قتل من غير فائدة، وإن تحيز إلى الجمع كان راجياً للخلاص وطامعاً في العدو بالكثرة، فربما وجب عليه التحيز إلى هذه الفئة فضلاً عن أن يكون جائزاً، والحاصل أن الانهزام من العدو حرام إلا في هاتين الحالتين.

{ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ } أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً.

{ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ } أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب (الحرب خدعة).

{ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم.

{ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ } أي فقد رجع بسخط عظيم، { وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ } أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم، { وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } أي بئس المرجع والمآل(١) ومعناه رجع بغضب عظيم لا يقادر قدره.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف » وجاء عَدُّه في الكبائر في كثير من الأحاديث.

واختلف العلماء في ذلك فقال أبو سعيد الخدري هذا في أهل بدر خاصة لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لأن النبي صلى الله عليه وسلّم كان معهم، ولم تكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي صلى الله عليه وسلّم، ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين؛ ولأنها أول غزاة غزاها الرسول صلى الله عليه وسلّم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر. فأما بعد ذلك اليوم فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك، قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمن فر يوم بدر، فلما كان يوم أُحد قال الله تعالى: { إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى: { ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } ثم { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَآءُ } وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كنا في جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون قال: « بل أنتم الكرارون أنا فئة المسلمين ».

وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: { الَئنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ } فليس لقوم أن يفروا من مثلَيْهم فنسخت بذلك إلا في هذه العدة، وعلى هذا أكثر أهل العلم إن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم، وإن كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاث لم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر.

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ولكن الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } أي ما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضة من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال:

شاهت الوجوه، (أي قبحت) فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين.

{ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى } أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله.

نزلت هذه الآية لما افتخر المسلمون بعد رجوعهم من بدر فكان الواحد منهم يقول: أنا قتلت كذا وأسرت كذا، فعلمهم الله الأدب بقوله: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ } وقد علمت أنّ حكمة قوله تعالى: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ } التأديب لبعض المؤمنين، وأما حكمة قوله تعالى: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } فإثبات أنها معجزة من الله لنبيه لتذكر من جملة معجزاته التي أمر بالتحديث عنها فقال تعالى: { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ }.

وفي سبب نزول هذه الآية أقوال:

الأول: وهو قول أكثر المفسرين أنها نزلت يوم بدر والمراد أنه أخذ قبضة من الحصباء ورمى بها وجوه القوم فكانت تلك الرمية سبباً للهزيمة.

الثاني: أنها نزلت يوم خيبر روى عنه أنه عليه السلام أخذ قوساً وهو على باب خيبر، فرمى سهماً فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى }.

الثالث: أنها نزلت في يوم أحد في قتل أبّي بن خلف وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلّم بعظم رميم فقال: يا محمد من يحيي هذه وهي رميم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: « يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار »، فأسر يوم بدر، فلما افتدي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إن عندي فرساً أعتلفها كل يوم فرقاً من ذرة كي أقتلك عليها، فقال صلى الله عليه وسلّم: « بل أنا أقتلك إن شاء الله » فلما كان يوم أحد أقبل أبّي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من الرسول صلى الله عليه وسلّم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه، فقال عليه الصلاة والسلام: «استأخروا» ورماه بحربة فكسر ضلعاً من أضلاعه، فحمل فمات ببعض الطريق ففي ذلك نزلت الآية، والأصح أن هذه الآية نزلت في يوم بدر.

احتج أصحابنا أهل السنة والجماعة بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى. وجه الاستدلال أنه تعالى قال: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } ومن المعلوم أنهم جَرحوا فدل هذا على أن حدوث تلك الأفعال إنما حصل من الله، وأيضاً قوله : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } أثبت كونه عليه الصلاة والسلام رامياً، ونفى عنه كونه رامياً فوجب حمله على أنه رماه كسباً وما رماه خلقاً.

فإن قيل أما قوله: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } فيه وجوه:

الأول: أن قتل الكفار إنما تيسر بمعونة الله ونصره وتأييده، فصحت هذه الإضافة.

الثاني: أن الجرح كان إليهم وإخراج الروح كان إلى الله والتقدير فلم تميتوهم ولكن الله أماتهم، وأما قوله: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى } قال القاضي فيه أشياء: منها أن الرمية الواحدة لا توجب وصول التراب إلى عيونهم، وكان إيصال أجزاء التراب إلى عيونهم ليس إلا بإيصال الله تعالى، ومنها أن التراب الذي رماه كان قليلاً، فيمتنع وصول ذلك القدر إلى عيون الكل، فدل هذا على أنه تعالى ضم إليه أشياء أخر من أجزاء التراب، وأوصلها إلى عيونهم، ومنها أن عند رميته ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم، فكان المراد من قوله: { وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى } هو أنه تعالى رمى قلوبهم بذلك الرعب.

والجواب أن كل ما ذكرتموه عدول عن الظاهر، والأصل في الكلام الحقيقة، فإن قالوا: الدلائل العقلية تمنع من القول بأن فعل العبد مخلوق لله تعالى، فنقول هيهات فإن الدلائل العقلية في جانبنا والبراهين النقلية قائمة على صحة قولنا، فلا يمكنكم أن تعدلوا عن الظاهر إلى المجاز والله أعلم.

{ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا } أي فعل ذلك ليقهر الكافرين وينعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة.

{ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم(١) والبلاء يطلق على النعمة وعلى المحنة لأن أصله الاختبار وهو كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر، يكون بالنعمة أيضاً لإظهار الشكر، والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم كما علم، لا تحصيل علم ما لم يعلم، لأنه تعالى منزه عنه.

وفي الآية إشارة إلى أن التأثير من الله تعالى، والعبد آلة في البين فينبغي للمرء المؤمن أن لا يعجب بنفسه وعمله وأن يخرج نفسه من البين ولذا قال تعالى: { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ } أظهر منتـــه علـــيهم، والعجب استعظام العمل الصالح من غير ذكر التوفيق.

أقـــول:

إذا تأملت في العالم وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وذنب واقعة في خلق الله من أول الخلق إلى يوم القيامة، من قِبَلِ هذه النفس.

فأول معصية لله تعالى كانت من إبليس وكان سببها بعد القضاء السابق هوى النفس بكبرهـــا وحسدها، ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس، وحرصهما علـــى البقـــاء والحياة وفي ذلك دليل على أنها أصعب شيء، وأعدى عدو، فدفعها ومقاومتها لا يكون إلا بثلاثة أشياء:

أحدها: منع الشهوات فإن الدابة الحرون تلين إذا نقص من علفها.

الثاني: حملها على العبادة لأن العبادة تذلل النفس.

الثالث: الاستعانة بالله تعالى والتضرع إليه بأن يعينك وإلا فلا مخلص { إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى } اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى وهو يراك واستعن به إنه أرحم الراحمين، قال في كتابه المبين: { وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } ولا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لذا عليك ألا تهمل نفسك ولا تسترسل معها في المعاصي هذا للنجاح والظفر يوم القيامة كما قال صلى الله عليه وسلّم: « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »، ما دام ربنا جل وعلا ينهانا عن الفرار والإدبار باتجاه الكافرين، هذا في الأمور الدنيوية ولو كان يترتب عليه أمور الآخرة مثل الشهادة وإعلاء كلمة الله.

وكذلك العداوة للنفس والمخالفة معها ومحاربة الشيطان يكون سبباً للسعادة الأبدية للمؤمن، وينال العبد بتلك المحاربة والمخالفة الصدق الذي رتب الله رضاءه عليه قال جل وعلا: { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } معناه عظيم لوصفه إياه { الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } وقال تعالى: { جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـرُ خَـلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رِّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ }[البينة: ٨] وبهذا الوصف يكون من الخاشعين الذين يترتب على خشوعهم رضا الله تعالى. علينا أن نتمسك بالكتاب والسنة إذ خشية الله ثابتة في الكتاب والسنة النبوية نرجو الله أن نكون من الذين وصفهم الله في قوله: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ } وإن يعصمنا من المعاصي بفضله وحفظه وكرمه، والضعف وصفنا، ولا حول لنا ولا قوة أن نتوجه إلى أوامره وننتهي عن مناهيه إلا به، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم أجمعين.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ } [الأنفال: ٢٠ ــ ٢٣].

النداء الثاني من سورة الأنفال فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله كما صورت الآيات الكريمة الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق فقال الله تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ } بحذف إحدى التائين أي لا تتولوا والتولي الإعراض، { عَنْهُ } أي عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يقل عنهما لأن طاعة الله إنما تكون بطاعة رسوله: { وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ } أي والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وتصديق.

وقد جاء في الآيات السابقة قوله تعالى: { إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: ١٨].

قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحنه اليوم أي أهلكه فـأنزل الله { إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ } فكان أبو جهل هو المستفتح { وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } أي وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خـير لكم في دنياكم وآخرتكم { وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ } أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره علـيكم { وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ } أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار { وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُـؤْمِنِينَ } أي لأن الله سـبحانه وتعالى مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكـم العز الذي حصل ببدر { وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ } أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره { وَأَنتُمْ تَسْـمَعُونَ } القرآن والمواعظ.

ولما كان الجهاد قد اشتمل على أمرين:

أحدهما: المخاطرة بالنفس.

الثاني: الفوز بالأموال.

ولما كانت المخاطرة بالنفس شاقة شديدة على كل أحد، وكان ترك المال بعد القدرة على أخذه، شاقاً شديداً لا جرم بالغ الله تعالى في التأديب في هذا الباب فقال : { أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ } في الإجابة إلى الجهاد، وفي الإجابة إلى ترك المال إذا أمر الله بتركه ، والمقصود تقرير ما ذكرنـاه في تفسير قوله تعالى: { قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } [الأنفال: ١].

فإن قيل: فلم قال: ولا تولوا عنه فجعل الكناية واحدة مع أنه تقدم ذكر الله ورسوله؟

قلنا: إنه تعالى أمر بطاعة الله وبطاعة رسوله، ثم قال: { وَلاَ تَوَلَّوْاْ } لأن التولي إنما يصح في حق الرسول صلى الله عليه وسلّم بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله وعن معونته في الجهاد.

{ وَلاَ تَكُونُواْ } بمخالفة الأمر والنهي { كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا } على جهة القبول { وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } للقبول وإنما سمعوا به للرد والإعراض عنه كالكفار الذين قالوا سمعنا وعصينا، وكالمنافقين الذين يدّعون السماع والقبول بألسنتهم ويضمرون الكفر والتكذيب ، أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعهم كلا سماعٍ لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ، والمعنى أن الإنسان لا يمكنه أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه فجعل السماع كناية عن القبول، ومنه قولهم سمع الله لمن حمده.

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ } أي شر ما يدب على الأرض فلفظ الدابة محمول على معناه اللغوي، أو شر البهائم فهو محمول على معناه العرفي والبهيمة كل ذات أربع من حيوانات البر والبحر { عِندَ اللَّهِ } أي في حكم قضائه، { الصُّمُّ } الذين لا يسمعون الحق { الْبُكْمُ } الذين لا ينطقون به { الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ } الحق عدهم من البهائم ثم جعلهم شرّها لإبطالهم ما مُيّزوا به وفُضّلوا لأجله، وإنما وصفهم بعدم العقل لأن الأصم والأبكم إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وأما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال(١)، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صم بكم عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول صلى الله عليه وسلّم مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشر من الكلب والخنزير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخس

من كل خسيس. { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا } شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى.

{ لأَسْمَعَهُمْ } سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلّم وأطاعوه وآمنوا به ، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم والمعنى أن كل ما كان حاصلاً فإنه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه، فلا جَرَم حَسُنَ التعبيرُ عن عَدمِه في نفسه بعدم علم الله بوجوده، وتقرير الكلام: لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهيم، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بها، ولتولوا وهم معرضون.

أقول: هذه الركاكة من قاعدة كلمة (لو) على قاعدة النحويين لأنها حرف امتناع. وإن أردت التفصيل فعليك بمطالعة كتب التفسير.

{ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ } سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ، { لَتَوَلَّواْ } عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط، أو ارتدوا بعدما صدقوا وصاروا كَأنْ لم يسمعوه أصلاً.

{ وَّهُم مُّعْرِضُونَ } أي لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم لعنادهم ولو فُرض أن الله أسمعهم وقد علم أن لا خير فيهم لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على عدم إيمان الكافرين ، وفيه إشارة إلى أن من قدر له الشقاوة فإنه يتولى عن المتابعة في أثناء السلوك ويعرض عن الله وطلبه ويقبل على الدنيا وزخارفها.

واعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم قابلاً للتربية والترقي مستعداًلكمال لا يبلغـه الملَـك المقرب، فهو في بدء الخلقة دون الملَك وفوق الحيوان فبتربية الشريعة يصير فوق الملك فيكون خير البرية، وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية فيؤول حـال مـن يكون خيراً من الملك إلى أن يكون شر الدواب.

فعلى العاقل أن لا يخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلّم وشريعته فإن الحيوان يستسلم لأمره فكيف بالإنسان، حكي أنه جاء رجل في بعض أسفاره صلى الله عليه وسلّم فقال يا رسـول الله: إنه كان لي حائط فيه عيشي وعيش عيالي ولي فيه ناضحان (والناضح البعير الذي يستسقى عليه) فمنعاني أنفسهما وحائطي وما فيه، فلا نقدر أن ندنَو منهما فنهض النبي صلى الله عليـه وسـلّم وأصحابه حتى أتى الحائط فقال لصاحبه: «افتح» قال: أمرهما عظيم قال: «افتح» فلما حـرك الباب أتيا، ولهما جلبة، فلما انفرج الباب نظرا إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وبركا ثم سـجدا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم رؤوسهما، ثم دفعهما إلى صاحبهما وقـال: «اسـتعملهما وأحسن إليهما» فقال القوم: تسجد لك البهائم، أفلا تأذن لنا في السجود لك فقال صـلى الله عليه وسلّم: « إن السجود ليس إلا للحي القيوم، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » وكل ما أمر به النبي عليه السلام أو نهى عنه ففيه حكمة ومصلحة ولسـت بمأمور بالتفتيش عنها وإنما يلزم عليك الإطاعة والانقياد فقط.

والناس في طاعة الله على أقسام فمطيع لخوف عقوبته، ومطيع طمعاً في مثوبته، وآخـر تحققـاً بعبوديته، وآخر تشرفاً بربوبيته وكم بين مطيع ومطيع.

أَفَتَرْضَى لنفسك إذا قال لك طبيب إن تأكل الملح يضرك فعليك بتركه، فأنت تصدق ما أمرك به، ولا تصدق سيد البشر صلى الله عليه وسلّم فيما يخبر عنه وتتوانى بحكم الكسل عن الإتيان بما أمر به وأنت تحقق أنه عليه الصلاة والسلام مكاشف من العالم بجميع الأسرار والحكم كما أخبر عن نفسه فقال: «فعلمت علم الأولين والآخرين»، ولما أخرجك الله من صلب آدم في مقام «ألست» رددت إلى أسفل السافلين ثم منه دعيت بمنة الله عليك بالإيمان لترتفع بسعيك وكسبك إلى أعلى عليين حيث ما قدر لك على حسب قابليتك، ولا يمكن ذلك إلا بأمرين:

أحدهما: بمحبته صلى الله عليه وسلّم وبأن تؤثر حبه على نفسك وأهلك ومالك.

والثاني: بمتابعته صلى الله عليه وسلّم في جميع ما أمر به ونهى عنه وبذلك تستحكم مناسبتك به وبكمال متابعتك يحصل لك الارتفاع إلى أوج الكمال ومن علامات المحبة حب القرآن وحب تلاوته وإلا كان من المعرضين عن سلوك طريقته صلى الله عليه وسلّم ومن تمام محبته إيثار الفقر والزهد في الدنيا ، اللهم اعصمنا من المهالك واجعلنا من السالكين إلى خير المسالك.

أقــول:

أيها الأخ المؤمن عليك الإطاعة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم والتمسك بالسنة النبوية صلى الله عليه وسلّم وبالشريعة المحمدية حتى تكون ببركتهما متميزاً عن الحيوان والبهائم.

كثير من الناس المؤمنين يوجد فيهم الاستعداد ولكنهم لم يستعملوا استعدادهم بل تبقى نفوسهم متعلقة بحظوظها النفسانية وحطام الدنيا، ويتركون هذا الاستعداد الذي وضعه الله فيهم لقبول الخيرات والتوجيهات الربانية، وهم مسؤولون يوم القيامة عن هذا الاستعداد. علينا أن نتمسك

بالواسطة أي الطاعة والانقياد لأمر الله وأمر رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولو لم نَتَرَقَّ إلى مقامات الأولياء الكمّل؛ لكن على الأقل أن نكون سالمين من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة قال تعالى: { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }، اللهم وفقنا لذلك آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصـــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٤ ــ ٢٥].

النداء الثالث من سورة الأنفال؛ فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلّم فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ولما ذكر تعالى الكافرين، وشبههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعـــوة الله، أمـــر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة، فقال :

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } أي أجيبوا دعاء رسوله صلى الله عليه وسلّم إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تحيون الحياة الأبدية، قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة، والثقة، والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

وتكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده مـــن الأوامر، وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك.

{ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } بحسن الطاعة { إِذَا دَعَاكُمْ } أي الرسول صلى الله عليه وسلّم، إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى مع ما أشرنا إليه آنفاً { لِمَا يُحْيِيكُمْ } أي لما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم، من العقائد والأعمال أو من الجهاد الذي أعزكم الله تعالى به بعد الذل، وقواكم به بعد الضعف ومنعكم به من عدوكم بعد القهر، وقال أبو مسلم: الجنة.

وفي الاستدلال بهذه الآية على ثبوت هذا المطلوب ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن الـــنبي صلى الله عليه وسلّم مر على باب أبيّ بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جـــاء فقال: « ما منعك عن إجابتي » قال: كنت أصلي قال: « ألم تُخبر فيما أوحي إلي اســـتجيبوا لله وللرسول » فقال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك، والاستدلال به أن النبي صلى الله عليه وسلّم لما دعاه فلم يجبه، لامه على ترك الإجابة، وتمسك في تقرير ذلك اللوم بهذه الآية، فلولا دلالة هـــذه

الآية على الوجوب، وإلا لما صح ذلك الاستدلال، وقول من يقول مسألة أن الأمر يفيد الوجوب مسألة قطعية فلا يجوز التمسك فيها بخبر الواحد ضعيف؛ لأنا لا نسلم أنّ مسألة الأمــر يفيــد الوجوب مسألة قطعية، بل هي عندنا ظنية، لأن المقصود منها العمل، والدلائل الظنية كافيــة في المطالب العملية.

وفي قوله: { إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } بمعنى إلى الذي يحييكم وهو أنواع:

النوع الأول: العلوم الدينية فإنها حياة القلب، والجهل موته وفي الخبر إن الله تعالى ليحيي القلب الميت بالعلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر، والعلوم الدينية الشرعية هي التفسير والحــديث والأصول والفقه والفرائض.

النوع الثاني: العقائد والأعمال فإنها تورث الحياة الأبدية في النعيم الدائم.

النوع الثالث: الجهاد فإنه سبب البقاء إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم كما في قوله: { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }.

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } أي إنه تعالى المتصرف في جميع الأشــياء، يصــرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان.

أقول: إذا أصغيت إلى قلبك أيها المؤمن وجدته لا يثبت في أقل من لحظة على حالة في عبـــادة وغيرها، كيف تتكل وتعتمد على نفسك، وأنت في هذا الضعف، وعلى هذا التجيء إلى ربـــك واخرج من حولك وقوتك.

وبالجملة فالسعيد من أسعده الله، والشقي من أضله الله والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشـــاء، وهذا منقول عن ابن عباس والضحاك رضي الله عنهم قال أبو حيان: وفي ذلـــك حـــضٌ علـــى المراقبة، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جل وعلا.

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله : { وَنَحْنُ أَقْـــرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها أو حثٌ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبـــه بـــالموت أو غيره وعند الفقير هذا أقرب إلى المعنى { وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } أي وأنه سبحانه إليـــه مـــرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ويثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

{ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً } أي واحذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره، واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، وتصل إلى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعـــه وســـكوته عليـــه وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعـــذاب مـــن عنده» رواه البخاري.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر بـــين أظهـــرهم فـــيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم.

وورد إذا عمت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها، كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها، إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في ذلك فإذا علمت ذلك فـــلا تشكل هذه بقوله تعالى: { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } لما علمت أن الساكت على المنكر مؤاخذ بوزر نفسه لا بوزر المباشر.

فإن قلت: ظاهر قوله تعالى: { وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً } يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره، فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من لم يذنب؟

قلت: إنه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده، وفي ملكه يتصرف فيهم ما يشـــاء { لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ } [الأنبياء: ٢٣] فيحسن ذلك منه على سبيل المالكيـــة أو لأنـــه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع المصلحة والله أعلم بمراده.

أقول في جواب السؤال: إن الله تعالى عليم بما في قلوب المؤمنين من الرضى بـــذلك الظلـــم أو الكره فالذي تصيبه الفتنة الدنيوية ويعم الفساد من حوله ويتمسك بالكتاب والسنة وتقوى الله مع دوام كرهه لها وعدم رضاه عنها ولم يستطع منعها فله أجر الصابرين مع إيمانه بأن الله مالـــك الملك وهو عبده فلا يليق برحمته جل وعلا وعدله أن يعذبه في الآخرة بظلم الظالمين مع كرهه له وإنكاره على هذا، بل هو مثاب بصبره على هذه الفتن ومأجور:

١ ــ في الدنيا بمعية الله ونصرته بقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }.

٢ ــ في الآخرة بنيل ثواب الصابرين في الجنة بقوله تعالى: { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }.

بل تكون هذا الإصابة عند أهل اليقين والفهم عين الرحمة لهذا العبد، بل هي أليق برحمته وعدله أن يمتحن العبدَ فيصبر ويتقي الله وينال على امتحانه هذا الثواب العظيم بقوله: { أَجْرَهُمْ بِغَيْـــرِ حِسَابٍ }.

عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلّم قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت: يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى» قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة الله ورضوانه » الإمام أحمد.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنـــة. إنّ الله تعـــالى يقول: { إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن) رواه ابن جرير، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح.

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه، والمراد منه الحث على لزوم الاستقامة خوفاً من عقاب الله، لذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه (الظالم وغير الظالم، أي تعم) وفيه تحذير من شدة العقوبة لمن أهاج الفتن وفي بعض الأخبار (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) ، احذروا أن ترتكبوا زلة توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطها.

وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب، ولكن قد ينفرد أحد بجرم فيحمل أقوام مـــن المختصـــين بفاعل هذا الجرم، كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم، فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم، فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ورضاه به.

وأما قوله تعالى: { اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } قيل: للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لا كرهاً، وفرق بين من يجيب لخوف أو طمع وبين من يستجيب لا بعوض ولا على ملاحظة غرضٍ.

وحق الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أن تذر من المستطاع بقية.

واختلف العلماء في جواز قطع الصلاة لإجابة غيره لأن قطعها إبطال لها وإبطال العمل حـــرام، وقال بعضهم: يجوز لكل مصلٍ أن يقطع صلاته لأمر لا يحتمل التأخير كما إذا خاف أن يســـقط أحدٌ من سطح، أو تحرقه النار، أو يغرق في الماء وجب عليه أن يقطـــع صـــلاته، وإن كـــان في الفريضة كذا في غنية الفتاوي، ويجيب في صلاة النافلة دعاء أمه دون نداء أبيه لأن مشـــقة الأم تحملها على التعب من الولد أكثر وقال بعض المشايخ: الأب يقدم على الأم بـــالاحترام والأم في الخدمة قال الطحاوي: فمصلي النافلة إذا ناداه أحد أبويه إن علم أنه في الصلاة وناداه لا بـــأس بأن لا يجيبه وإن لم يعلم يُجِبْ. وأما مصلي الفريضة إذا دعاه أحد أبويه فلا يجيب ما لم يَفرُغ من صلاته إلا أن يستغيثه بشيء فإن قطع الصلاة لا يجوز إلا لضرورة.

ثم اعلم أن استجابة الرسول صلى الله عليه وسلّم يدخل فيها بطريق الإشارة استجابة الأوليـــاء العلماء الأدباء الأمناء لأنهم الورثة وطريقتهم طريقة النبي صلى الله عليه وسلّم ولا بد لمـــن أراد الوصول إلى الله تعالى من صحبة مرشد كامل عارف بالمقامات والمراتب وقبول ما دعا إليه بشرط أن يكون موافقاً منهجه للكتاب والسنة.

وأهل الطريقة ثلاثة: عبّاد ومريدون وعارفون:

فطريق العباد: كثرة الأعمال والتجنب من الزلل والضلال.

وطريق المريدين: تخليص الباطن من الشوائب والنفور عن المشغلات.

وطريق العارفين: تخليص القلب لله وبذل الدنيا والآخرة في طلب رضاه اللـــهم اجعلنـــا مـــن المستجيبين لدعوة الحق.

أقـــول:

حتم على كل ذل حزم وهمة، آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، وأن يضيّق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ــ فإن كل أنفاس العمر جوهرة لا عوض عنـــها ــ حـــتى يمكن أخذ زمامها وردها إلى الله ورسوله لئلا يتمكن لها المخالفة ويتمكن في حقيقة الإيمان بأن الله يراه كما قال تعالى: { أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }[العلق: ١٤] وقال: { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [النساء: ١].

وإذا كان العبد بهذه الصفة، يكون قلبه مراقباً للرقيب ومشتغلاً به وملتفتاً إليه وملاحظاً إياه.

إن ثمرة هذه الحالة هي العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العبد.

ومن كان بهذه الصفة يسهل عليه الإطاعة والاتباع بعون الله إن شاء من بيده الأمر، ويكون ذا حظ عظيم كما قال تعالى في كتابه الكريم: { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَــرُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[يونس: ٩ــ١٠].

اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم بفضلك يا أكرم الأكرمين آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [الأنفال: ٢٧ ــ ٢٨].

النداء الرابع من سورة الأنفال فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلّم أيضاً فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ } نزلت هذه الآية كما أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما حاصر اليهود في بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم (سعد بن معاذ) فقالوا: أرسل لنا (أبا لبابة) هارون بن عبد المنذر الأنصاري وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله فيهم ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فلما رأوه قام إليه الرجال وفزع النساء والصبيان يبكون في وجهه فرّق لهم ، فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ قال: نعم وأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي وشد نفسه على سارية من سواري المسجد ، فلما بلغ خبره رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقد استبطأه قال: « أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه »، فأقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليالٍ وقيل: بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه وكاد يذهب بصره وكانت امرأته تأتيه في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم تربطه ثم نزلت توبته في بيت أم سلمة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم سحراً فقام يضحك فقالت أم سلمة: مم تضحك أضحك الله سنك؟! قال: «تيب على أبي لبابة» قالت: أفلا أبشره يا رسول الله قال: «بلى إن شئت» فقامت على باب حجرتها وذلك قبل نزول آية الحجاب فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فتسارع الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده فلما أصبح الصبح أطلقه ، ثم قال أبو لبابة:

إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: يجزيك الثلث أن تصدَّق به.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ } أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين.

{ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ } أي ما ائتمنتم عليه من التكاليف الشرعية كقوله تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ } [الأحزاب: ٧٢].

وأصل الخون النقص، كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه فإنك إذا خنت الرجل فقد أدخلت عليه النقصان.

فكان معنى الآية: إيجاب أداء التكاليف بأسرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال، وأما الوجوه المذكورة في سبب نزول الآية، فهي داخلة فيها، لكن لا يجب قصر الآية عليها، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خيانة الله سبحانه وتعالى بترك فرائضه، والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته. والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها عباده(١)، فلا تُظهروا من الحق ما يرضى به منكم ثم تخالفوه في السر إلى غيره فإن ذلك هلاك لأماناتكم وخيانة لأنفسكم.

قال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنتم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها (نقلاً عن الخازن).

{ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله(١)، يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو ولما نهى عن الخيانة نبه على أن الداعي إليها إنما هو حب المال والأولاد، ألا يرى أن أبا لبابة إنما حمله على ما فعل ماله وأهله وولده الذين كانوا في بني قريظة لأنه إنما ناصحهم لأجلهم وخان المسلمين بسببهم ، فقال تعالى:

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده ، ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد، نبه الله تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب فقال: { أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } لأنها تشغل القلب بالدنيا وتصير حجاباً عن خدمة المولى.

والفتنة قد تطلق على الآفة والبلاء وقد تطلق على الابتلاء والامتحان:

فالمعنى الأول: { أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } أسباب مؤدية إلى الوقوع في الآفة التي هي ارتكاب المعصية في الدنيا والوقوع في عقاب الآخرة.

وعلى الثاني أنها أسباب لوقوع العبد في محن الله تعالى واختباراته حيث يظهر من اتبع الهوى ممن آثر رضى المولى.

فعليكم أن تزهدوا في الدنيا وما يتعلق بها وتنوطوا هممكم بما يفضي إلى السعادات الروحانية الباقية ويمكن أن يتمسك بالآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل لكونه مفضياً إلى الأجر العظيم عند الله هو أفضل من الاشتغال بالنكاح. لأنه يفيد الولد ويوجب المال، وذلك فتنة، ومعلوم أن ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة.

فقال: { وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ، { أَجْرٌ عَظِيمٌ } لمن آثر رضى الله وراعى حدوده فيهم فأنيطوا أي علقوا همكم بما يؤديكم إليه ولا يحملنكم حبها على الخيانة.

وفي الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » أخرجه الشيخان، بل حب رسول الله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلّم قال: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين ».

والإشارة في الآية: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } أي يا أيها الأرواح والقلوب المنورة بنور الإيمان المستعدة بسعادات العرفان { لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ } فيما آتاكم من المواهب فتجعلوها شبكة الدنيا واصطياد أهلها { وَالرَّسُولَ } بترك السنة والقيام بالبدعة { وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ } فالأمانة هي محبة الله وخيانتها تبديلها بمحبة المخلوقات، يشير إلى أرباب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا أعلى مراتب الطاعات والقربات، ثم التفتوا إلى شيء من الدنيا وزينتها وخانوا الله بنوع من التصنع، وخانوا الرسول بالتبدع، وترك التتبع بتعدي الخيانة وآفاقا إلى الأمانة، التي هي المحبة فتسلب منهم بالتدريج، فيكون لهم ركوهم إلى الدنيا، وسكوهم إلى جمع الأموال حرصاً على الأولاد { وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } تبيعون الدين بالدنيا والمولى بالأولى { وَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ }

التي تعرضون عن الله لها { فِتْنَةٌ } يختبركم الله بها لكي يتميز الموافق من المنافق، والصدِّيق من الزنديق، فمن أعرض عن الدنيا وما فيها، صدق في طلب المولى.

{ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } فمن ترك ما عنده في طلب ما عند الله يجده عنده.

أقــول:

كن متعظاً بالمواعظ القرآنية فرضى الله في امتثال أوامره واتباع النبي صلى الله عليه وسلّم، وسخط الله في اتباع الهوى.

فالبس لباس التقوى ولباس التقوى خير عند الله { وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ }، وأخرج حب الدنيا من قلبك حتى تكون من الذين قال الله فيهم: { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ } أي وسع صدره للإسلام والإيمان والطاعات وحب الله ورسوله، واستضاء قلبه بنوره، لكي يميز بين المحبة لله ورسوله؛ وبين ما استهوى النفس الأمارة. ومدار الحكم ومناطه على التخلية والتحلية. والتخلية مقدمة على التحلية.

ولا تغرنك الشهرة والسمعة ولا تفتخر بالفانية حتى تترك ما وعد ربك بقوله تعالى: { رِّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }.

كن من المنصفين، هل أنت غريق في محبة الله عز وجل واتباع رسوله، أو استولى حب الدنيا والولد والفلوس على قلبك واحكم أنت بما في ضميرك، والله شاهد على الضمائر ومطلع على

السرائر. عصمنا الله وإياكم من المخالفة آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يِا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الأنفال: ٢٩].

النداء الخامس من سورة الأنفال: فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أســـاس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال، فقال تعالى:

{ يِا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا } أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله :{وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ} وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة.

والفرقان: مصدر بمعنى الفرق أُطلق على ما يكون سبباً للفرق والتمييز، ولما حذر الله تعالى عن الانهماك في محبة الأموال والأولاد رغب في تقوى الله بالاجتناب عن الكبائر والملازمة على الطاعات، فإن من اجتنب الخيانة ولازم الطاعة جعل الله له ما يتميز به عن الفساق والعصاة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فبأن يهدي قلبه، وينوره بنور المعرفة واليقين فتجري ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ولا يصدر عنه إلا ما هو حق وصواب. فهذه الهداية فرقان يفرق بها المتقي من أضداده، وكذا كونه منصوراً فرقان يفرق به من المبطلين، بأن ينصره ويخذل المبطلين، وبأن ينصب له براهين قاطعة يتفصى [يتخلص] بها من الشبهات في أمر الدين وبأن ينجيه مما يخافه في الدنيا والآخرة، وبأن يظهر شأنه ويعلي قدره. فهذه الأمور كما أنها فرقان يفرق بها بين المتقي وغيره، فهي أيضاً فرقان يفرق بها بين الحق والباطل، وكذا النصر إذ يفرق به أنه على الحق والمنصور عليه على الباطل وكذا المخرج والنجاة فإنهما يفرقان بينه وبين صاحب الشبهات وما يخاف منه.

وقد تقدم معنى التقوى وكان الله عالماً بأنهم يتقون أم لا يتقون فذكر بلفظ الشرط لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضاً، فإذا اتقى العبد ربه وذلك باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إمكاناً.

قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله سبحانه وتعالى: { إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا } قال: مخرجاً ثم قرأ{ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً }.

{ وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم.

{ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ، بأن لا يفضحكم في الدنيا والآخرة ، { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } أي واسع الفضل عظيم العطاء ، وهو تعليل لما قبله وتنبيه على أن وعد الله لهم على التقوى تفضلٌ وإحسان، لا أنه مما توجب التقوى، كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمل.

لذا هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة، أما في أحوال الدنيا: فإما أن يُعتبر في أحوال القلوب وهي الأحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة. أما أحوال القلوب فأمور:

أحدها: أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة.

ثانيها: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح كما قال تعالى: { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ }.

ثالثها: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، ويزيل المكر والخداع عن صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءاً من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة.

والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقاً بطاعة الله زالت عنه كل هذه الظلمات لأن معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا ظهر النور فلا بد من زوال الظلمة.

أما في الأحوال الظاهرة: فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر كما في قوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } وكما في قوله تعالى: { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } وأَمْرُ الفاسق والكافر بالعكس من ذلك. وأما في أحوال الآخرة: فالثواب والمنافع الدائمة، والتعظيم من الله والملائكة، وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان.

فعلى العاقل أن يجتهد إلى آخر العمر كي يكفر الله عنه سيئات وجوده الفاني، ويستره بـــأنوار جماله وجلاله، { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }، لمن تجاوز عما عنده راغباً فيما عند الله، والفضـــل العظيم هو البقاء بالله بعد الفناء فيه.

أقـــول:

الله جل وعلا بعد ما خاطب المؤمنين بـــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } جاء بالشرط { إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا }، وشرط هذا الفرقان بالتقوى، وإذا حصلت التقوى يحصل الفرقان ويترتب على الفرقان تكفير السيئات.

بقي هنا إشارة دقيقة، أنه إذا صارت التقوى كفارة للذنوب وبقيت بدون سترٍ فإذا لم يستر الله عليه يفضحه بين العباد يوم القيامة. وهذا لا يليق بجلاله وكماله ورحمته لذا من فضـــله قـــال : { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } فتكون المغفرة فضلاً منه وستراً على عبده، كأن لم يذنب ولم يكفر سيئاته بـــين العالم، ولو كانت في الحقيقة في علم الله جل وعلا لكن من فضله لا يفضح بين الناس؛ ويستر.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نستحيي من هذا الكرم، ومن هذا الفضل بدون استحقاق منا لـــذلك الفضل، وإذا أعطي أحد من العباد مالاً فإنه يصير أسيراً لصاحبه لا يمكن أن يخالفه لأجل هـــذا

العطاء، يستحيي من الذي تفضل عليه فكيف لا نستحيي من أكرم الأكرمين وأرحم الــراحمين غافر الذنب العظيم وهو يسيرنا في الدنيا والآخرة حتى يحفظ حرمتنا بعدم الفضاحة، ارجــع إلى أصلك، أصلك من العدم وأنت مقبل على الأبد، تفكر بين هذا الأبد وهذا العدم الآن لك الثانية التي أنت تعيش فيها ولا تغتر بنفسك ولا بمالــك ولا بولــدك كــن متقــي الله {فَــإِنَّ اللَّــهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }، { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }.

فاتق الله تحشر مع المتقين بفضل الله. اللهم اجعلنا من المتقين واحشرنا مع المتقين وأدخلنا بفضلك وكرمك في رحمتك مع عبادك الصالحين. اللهم وفقنا آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَــازَعُواْ فَتَفْشَــلُواْ وَتَــذْهَبَ رِيحُكُــمْ وَاصْــبِرُواْ إِنَّ اللَّــهَ مَــعَ الصَّــابِرِينَ } [الأنفال: ٤٥ ــ ٤٦].

النداء السادس من سورة الأنفال: هو النداء الأخير فقد وضح لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء والصبر عند اللقاء واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ، قال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ } أي حاربتم جماعة كافرة لأن اللقاء مما غلب في الحرب والقتال، وهم ما كانوا يحاربون إلا الكفار.

قوله: { فَاثْبُتُواْ } وقت لقائهم وقتالهم ولا تنهزموا.

وفي هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيها فقال: « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي صلى الله عليه وسلّم وقال: « اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم »، وفي رواية: « فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا، فعليكم بالصمت ».

عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة ».

وإنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والوثوق بالقوة، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم هذا يخالف الاحتياط، كما قالوا في آداب المناظرة: إنه ينبغي أن لا يحسب المناظر الخصم حقيراً أي صغيراً ذليلاً لأن استحقار الخصم ربما يؤدي إلى صدور الكلام الضعيف من المناظر لعدم المبالاة فيكون سبباً لغلبة الخصم الضعيف عليه فيكون الضعيف قوياً والقوي ضعيفاً.

{ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً } أي في تضاعيف القتال ومواطن الشدة، بالتكبير والتهليل وغيرهما وادعوه بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، وفي الآية { يا أَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ } إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا، { وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً } أي أكثروا من ذكر الله لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم.

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع نعمه على الرسول صلى الله عليه وسلّم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة (الجماعة) من المحاربين نوعين من الأدب:

الأول: الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدّثوها بالتولي.

الثاني: أن يذكروا الله كثيراً، أي أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم ذاكرين الله.

قال ابن عباس: أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز له أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله. ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاءً والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله، كان الذاكر أعظم أجراً.

{ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم، من النصرة والمثوبة ، فإن قلـــت: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز.

قلت: المراد من الثبات الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز. وفي الآية تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يلتجيء إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بالكلية، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال وعلى أن ذكـــر الله تعالى له تأثير عظيم في دفع المضار وجلب المنافع.

وفي الحديث: « إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى - وهو يعلم بكل شيء – فيقولون : ربنا أتينا على عبادٍ من عبادك يعظمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويصلون على نبيك محمد صلى الله عليه وسلّم ويسألونك لآخرتهم ودنياهم فيقول الله تبارك وتعالى: غشوهم رحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهـــم جليسهم » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي بنحوه ورواه أحمد في المسند بـــاختلاف يسير وانظر (الفتح الكبير).

قال بعض الحكماء: إن لله جنة في الدنيا من دخلها يطيب عيشه وهي مجالس الذكر.

قال في أنوار المشارق: وكما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله، والعادة جرت في حلق الذكر بالعلانية، إذ لم يعرف في كرّ الدهور حلقة ذكر اجتمع عليهـــا قـــوم ذاكـــرون في أنفسهم، فالذكر برفع الصوت أشد تأثيراً في قمع الخواطر الراسخة في قلب المبتدىء، وأيضـــاً

يغتنم الناس بإظهار الدين بركة الذكر من السامعين، في الدور والبيوت، ويشهد له يوم القيامة كل رطب ويابس سمع صوته خصوصاً في مواضع الازدحام بين الغافلين من العوام لتنبيه الغافلين وتوفيق الفاسقين.

وقد نهى عن أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكر الله فيه، ولا يصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم، ويكون ذلك المجلس حسرة عليه يوم القيامة، وفي الحديث : « من جلس مجلساً كثر فيه لغطه فقال: قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات وحسّنه ورواه ابن حبان في صحيحه.

فعلى العاقل أن يكون رطب اللسان بالذكر والدعاء والاستغفار دائماً، خصوصاً في الأوقات المباركة. والذكر الكثير - ما كان بصفاء القلب - جنة العارف في الدنيا فإنه يجاوز بذكر الله تعالى عن جحيم النفس الأمارة وهاويتها، فيترقى إلى نعيم الحضور، قال أبو بكر الفرغاني: كنت أسقط في بعض الأيام عن القافلة، فقلت يا رب لو علمتني الاسم الأعظم فدخل علي رجلان وقال أحدهما للآخر: الاسم الأعظم أن تقول: يا الله ففرحت به فقال: ليس كما تقول بل بصدق الالتجاء والاضطرار، كما يقول من كان في لجة البحر ليس له ملجأ غير الله.

واعلم أن الجهاد من أعظم الطاعات، ولذلك لا يجتمع غبار المجاهد مع دخان جهنم، وبخطوة من المجاهد يغفر ذنب وبأخرى تكتب حسنة، ولكن ينبغي للمجاهد أن يصحح نيته ويثبت في مواطن الحرب، فإن بثبات القلب والقدم يتبين أقدار الرجال، كما كان للصدّيق رضي الله عنه حين

صدمته الوجيعة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حين قال : (من كان يعبد محمداً صلى الله عليه وسلّم فإن محمداً صلى الله عليه وسلّم قد مات ومن كان يعبد رب محمد صلى الله عليه وسلّم فإنه حي لا يموت) ، والغلبة على الأعداء بالقوة القدسية والتأييد الإلهي، لا بالقوة الجسمانية وكثرة العدد.

وفي تفسير قوله تعالى: { وَللَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: ١٨٠] على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله، والمخلص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى وأصحاب الأذواق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله تعالى وأقبل على الدنيا وشهواهّا وقع في باب الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله ومعرفة الله تخلص عن نيران الآفات، وعن حسرات الخسارات واستشعر بمعرفة رب الأرض والسموات.

فقد قال سهل: (ما أعلم معصية أقبح من ترك ذكر هذا الرب)، وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (من علامة النفاق ثقل الذكر على اللسان، فتب إلى الله تعالى يُخَفَّف الذكر على لسانك) حقائق عن التصوف.

وقال الجنيد رحمه الله: (ذاكر هذا الاسم (الله) ذاهب عن نفسه، متصل بربه قائم بأداء حقه، ناظر إليه بقلبه قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته) [نور التحقيق ص١٧٤].

ثم اعلم أن الفئة الباغية، ظاهرة كالطائفة الكافرة والجماعة الفاجرة، وباطنة كطائفة القوى النفسانية وجماعة النفس الأمارة بالسوء، فكما أن المؤمن مأمور بالثبات عند ظهور الفئة الباغية

الظاهرة فكذلك مأمور بالثبات عند ظهور الفئة الباغية الباطنة بالمجاهدات، والجهاد مع الكفار جهاد أصغر، والجهاد مع النفس جهاد أكبر، والأكبر أفضل من الأصغر، ولذلك يكون القتيل في الأكبر صدِّيقاً وفي الأصغر شهيداً، فالصدِّيق فوق الشهيد كما قال تعالى: { فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ } [النساء: ٦٩].

والخلاص من ظلمات الخلقية والفوز بأنوار الذكر الذي الاشتغال به من أكبر أنواع الجهاد، وأسرع قدم في الوصول إلى رب العباد، نسأل الله تعالى أن يحققنا بحقائق الذكر والتوحيد.

قوله تعالى: { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفروا ولا يتكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } أي قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال { وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار، بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول صلى الله عليه وسلّم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم إنه كريم تواب ، فقال تعالى مؤكداً ذلك.

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } في سائر ما يأمر به لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات.

{ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ } ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن، { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } يعني قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال: وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلّم حين نازعوه يوم أحد.

والريح هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد، وقال قتادة وابن زيد: هي ريح النصر ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى يضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم : «نصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور ».

وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فكان إذا لم يقاتل من أول النهار، أخّر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر. أخرجه أبو داوود.

{ وَاصْبِرُواْ } يعني عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } يعني بالنصر والمعونة ، وما يفهم من كلمة { مَعَ } من أصالتهم إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر، فهم متبوعون من تلك الحيثية، ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة ، وفي الآية تنبيهان:

التنبيه الأول: الموافقة بين المسلمين أصل الدين؛ وأول الفساد ورأس الزلل الاختلافُ، وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة، قال تعالى في صفة الكفار { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى } وإنما تتحد العزائم للمسلمين لأنهم كلهم يجمعهم التبري من حولهم وقوتهم، ويتمحضون في رجوعهم إلى الله، وشهودهم التقدير، فيتحدون في هذه الحالة.

وأما الذين توهموا الحادثات من أنفسهم فضلوا في ساحات حسبانهم، وأجروا الأمور على ما يسنح لرأيهم، فكلٌّ يبني على ما يقع له ويختار، فإذا تنازعوا تشعبت بهم الآراء، وافترقت بهم الطرق، فيضعفون وتختلف طرقهم.

وكما تجب في الدين طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم تجب طاعة أولي الأمر، ولهذا يجب في كل وقت نصب إمام للمسلمين، ثم لا تجوز مخالفته، قال عليه الصلاة والسلام: « أطيعوه ولو كان عبداً مجدعاً » (المجدّع: مقطوع الأذنين)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا بعث سرية أَمَّرَ عليهم أميراً وقال: « عليكم بالسواد الأعظم ».

وإجماع المسلمين حجة وصلاة الجماعة سنة مؤكدة، والاتباع محمود والابتداع ضلالة.

قوله تعالى: { وَاصْبِرُواْ } والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثبات وحسن التفويض.

التنبيه الثاني: الثبات إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها منه، فعند ذلك يستسلم لله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حسن الإعانة، ولهذا أحالهم على الذكر فقال: { وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً }.

ويقال إن جميع الخيرات في ثبات القلب، وبه تبين أقدار الرجال، فإذا ورد على الإنسان خاطر يزعجه أو هاجس في نفسه يهيجه فمن كان صاحب بصيرة، توقف ريثما تتبين له حقيقة الوارد، فيثبت لكونه رابط الجأش [النفس أو القلب ويقال هو رابط الجأش: ثابت عند الشدائد]، ساكن القلب، صافي اللب، وهذا نعت الأكابر.

أقـــول:

لا تنس نصيبك من هذه العبادة، واقبل ما وعد ربك، واعتمد عليه جل وعلا، أنت مـــؤمن إن شاء الله.

قال ربك عز من قائل: {الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

اسمع ما قال الله جل جلاله والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم وعلماء الدين من المفسرين وغيرهم، ولا تتبع نفسك وهواك فإنهما عدوان لك، ولا نطول عليك وأحسن الكلام مـــا قـــل ودل، اللهم وفقنا لذلك، آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: ٢٣ ـ ٢٤].

لما ذكر تعالى قبائح المشركين، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر.

وقال الكلبي: لما أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا من غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة ، فترلت الآية تعاتبهم.

قال الإمام الفخر الرازي: والصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية على إيجاب الهجرة، والحال أن الهجرة إنما كانت واجبة قبل فتح مكة، والأقـــرب أن تكون هذه الآية محمولة على إيجاب التبري من أقربائهم المشركين، وترك المولاة معهم باتخـــاذهم بطانة وأصدقاء، بحيث يفشون إليهم أسرارهم، ويؤثرون المقام بين أظهرهم على الهجـــرة إلى دار الإسلام.

فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ } النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله، قال ابن مسعود رضي الله عنه: [إذا سمعـــت الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها (لاحظها واحفظها وراقبها وأصغ إليها) سمعك، فإنه خيرٌ تؤمر به، أو شرٌ تنهى عنه]، والمعنى لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكـــافرين أنصـــاراً وأعوانـــاً تودونهم وتحبونهم.

{ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ } أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليـــه إصراراً.

{ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك ، وظاهر الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكـــم إلى يـــوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين.

وخص الله سبحانه وتعالى الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها، فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ } ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، ولم يذكر الأبناء في هذه الآية، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء، والإحسان والهبة مستثناة من الولاية، قالت أسماء رضي الله عنها: (يا رسول الله، إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفأصلها؟) قال صلى الله عليه وسلّم: «صلي أمك» أخرجه البخاري.

{ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }.

اعلم أن هذه الآية هي تقرير الجواب الذي ذكره في الآية الأولى وذلك أن جماعة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، كيف يمكن البراءة منهم بالكلية؟ وأن هذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا، وهلاك أموالنا وخراب ديارنا، وإبقائنا ضائعين، فبين تعالى أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليماً، وذكر أنه إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم ومن المجاهدة في سبيل الله، فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بأمره، أي بعقوبة عاجلة أو آجلة، والمقصود منه الوعيد(١)، قوله: { قُلْ } أي يا محمد صلى الله عليه وسلّم للذين تركوا الهجرة { إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } العشيرة: الأهل الأدنون أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ،

{ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا } أي اكتسبتموها وأصبتموها بمكة، { وَتِجَارَةٌ } أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح

{ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا } بفوات وقت رواجها في أيام المواسم، { وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ } أي منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين.

{ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } أي من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم، بالهجرة إلى المدينة، { وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ } أي وأحب إليكم من الجهاد في طاعة الله، والمراد: الحب الاختياري (ومعه إرادة سواء ثقل على النفس أو لا إذا ما كان موافقاً لأمر الله) المستتبع لأثره الذي هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبليّ الذي (ليس فيه إرادة للعبد ولا يسأل عنه) ولا يخلو عنه البشر، فإنه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة.

واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار، وهي أربعة:

أولها: مخالطة الأقارب وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ثم ذكر البقية بلفظ واحدٍ يتناول الكل، وهي لفظ العشيرة.

ثانيها: الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.

ثالثها: الرغبة في تحصل الأموال بالتجارة.

رابعها: الرغبة في المساكن، ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة: القرابة، ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة، ثم إنــه يتوصــل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التي هي غير حاصلة، وفي آخر المراتب الرغبة في البناء في الأوطان والدور التي بنيت لأجل السكنى، فذكر تعالى هذه الأشياء على هذا الترتيب الواجــب، وبــيّن بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور.

فقال: { فَتَرَبَّصُواْ } أي انتظروا { حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } بعقوبة عاجلة أو آجلة وهو وعيد لمن آثر حظوظ نفسه على مصلحة دينه.

{ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أي لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم ، أي الخارجين عن طاعته إلى معصيته وهذا أيضاً تهديد، وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع تعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا، وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا.

أقول: وهذا الترجيح ثابت في القلوب النورانية، والروح العلوية، والعقلية القدســية الإلهيــة المتيقظة بترك حب الدنيا، وملازمة خدمة المولى، والله نسأل التوفيق والاستقامة، اللهم لا تجعــل الدنيا أكبر همنا.

وفي الآية وعيد شديد لا يتخلص منه إلا أقل قليل، فإنك لو تتبعت إخوان زماننا من الزهــاد الورعين لوجدهم يتحيرون ويتحزنون بفوات أحقر شيء من الأمور الدنيوية، ولا يبالون بفوات أجلّ حظ من الحظوظ الدينية فإن محصول الآية أن من آثر هذه المشتهيات الدنيوية على طاعــة

الرحمن، فليستعد لنزول عقوبة آجلة أو عاجلة ولينظر أن ما آثره من الحظوظ العاجلة هل يخلص من الأهوال والدواهي النازلة؟ اللهم عفوك وغفرانك يا أرحم الراحمين.

وفي الحديث الشريف: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين » أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد في المسند.

قال ابن ملك: المراد به نفي كمال الإيمان، وبالحب الحب الاختياري مثلاً لو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم مؤمناً بأن يقاتل الكافر حتى يكون شهيداً أو أمر بقتل أبويه وأولاده الكافرين لأحب أن يختار ذلك، لعلمه أن السلامة في امتثال أمره عليه الصلاة والسلام، وأن لا يخير، كما أن المريض ينفر بطبعه عن الدواء ولكن يميل إليه ويفعله لظنه أن صلاحه فيه، كيف ونبينا عليه الصلاة والسلام أعطف علينا منا ومن آبائنا وأولادنا، لأنه عليه الصلاة والسلام يسعى لا لغرض، ومن محبته عليه الصلاة والسلام نصرة سنته والذَبّ (أي المنع) والدفع عن شريعته.

وأصل الدين هو محبة الله تعالى وإنَّ صَرْفَ استعداد محبة الله في هذه الأشياء المذكورة فيه فسق وهو الخروج من محبة الخالق إلى محبة المخلوق. وإن من آثر محبة المخلوق على محبة الخالق فقد أبطل الاستعداد الفطري لقبول الفيض الإلهي، واستوجب الحرمان وأدركه القهر والخذلان { فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } أي بقهره { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } الخارجين عن حسن الاستعداد يعني لا يهديهم إلى حضرة جلاله وقبول فيض جماله بعد إبطال حسن الاستعداد.

وروى الحافظ من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: { لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَـئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة: ٢٢].

وعن بشر بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم في المنام، فقال لي: « يا بشر أتدري لم رفعك الله تعالى على أقرانك » قلت: لا يا رسول الله قال: « باتباعك لسنتي، وخدمتك الصالحين، ونصحك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي هو الذي بلّغك منازل الأبرار ».

أقول: المحبة باب عظيم لا يفتح إلا لأهل القلوب السليمة، وتأثيرها غريب وأمرها عجيب نسأل الله تعالى سبحانه أن يجعلنا من الذين آثروا حب الله وحب رسوله على حب ما سواهما آمين.

أقـــول:

لو يتفكر الإنسان في مقتضى هذه الآية، كيف أمر ربنا جلّ وعلا ووجّهنا أن نترك الأولاد، والأزواج.. إلخ، ونرجح أمر الله على فراقهم، وإن لم نفعل هكذا، نعوذ بالله، فالذين أُمروا بهذه الآية يخرجون من الدين ويلحقون بالكفار، إن لم يفعلوا ما أمروا به.

فكيف حالنا؟! لحطام الدنيا نرجح الكذب على مقتضى الإيمان، ولا نقول حقاً، ولا نعطي الصدقات، ونجمع المال بطريق شرعي أو غير شرعي فإن نُصِحتَ قلت: إني أتفكر في أولادي لئلا يصيبهم الفقر، أقول: كيف حال إيماننا بهذه الأمور، فلا بد علينا معشر المؤمنين أن نؤمن بالقرآن وبالأحكام التي أمرنا بها حتى نكون من المؤمنين الصادقين والله متكفلٌ لرزقك وليس متكفلاً بالعفو عنك.

فإن قلت: { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [المائدة: ٧٤] أقول: الله يغفر لمن يشاء لا لمن نشاء، يجب عليك أن لا تُغرَّ بمغفرة الله جل وعلا مع عدم العمل بمقتضى الإيمان، المؤمن يفعل ويرجو مغفرته، والفاسق لا يعمل ويعتمد على المغفرة قال ربنا جل وعلا: { وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهْتَدَى } [طه: ٨٢] ويبقى على الاستقامة، علينا أن لا نغر ولا نترك أمر الله مهملاً، اللهم وفقنا لذلك آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة: ٢٨].

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما أمر عليًّا أن يقرأ على مشركي مكة أول سورة براءة وينبذ إليهم عهدهم وأن الله بريء من المشركين ورسوله، قال أناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقونه من الشدة لانقطاع السبل وفقد الحمولات، فنزلت الآية لدفع هذه الشبهة، وأجاب الله تعالى عنها بقوله: { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } أي فقراً وحاجة { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } فهذا وجه النظم وهو حسن موافق.

فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } أي قذر لخبث باطنهم قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال الحسن: من صافح مشركاً فليتوضأ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم: عليّ أسد أي كالأسد(١)، وأما الفقهاء فقد اتفقوا على طهارة أبدانهم.

{ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا } أي فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله.

قال أبو السعود: وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد عامهم هـــذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث: « وألاّ يحج بعد هذا العام مشرك » وهو العام الـــذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم.

قال الشافعي رضي الله عنه: الكفار يُمنَعون من المسجد الحرام خاصة، وعن مالك: يمنعون من كل المساجد، وعن أبي حنيفة رحمه الله: لا يمنعون من المسجد الحرام ولا من سائر المساجد، والآية بمنطوقها تبطل قول أبي حنيفة رحمه الله؛ وبمفهومها تبطل قول مالك، أو نقول: الأصل عدم المنع، وخالفناه في المسجد الحرام لهذا النص الصريح القاطع، فوجب أن يبقى في غيره على وفق الأصل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً »، وأوصى فقال: « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه؛ وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم ».

قال العلماء جملة بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة:

أحدها: الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحالٍ.

الثاني: الحجاز فلا يجوز للكافر دخوله إلا بإذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما في الحديث : « لا يبقين دينان في جزيرة العرب » .

الثالث: سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمةٍ أو أمان لكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم لحاجة.

{ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه، قال المفسرون لما منع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات إليهم في المواسم ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون؟ وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ورزقهم الغنائم والجزية.

وفي الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز، وليس بمنافٍ للتوكل، وإن كان الرزق مقدراً، وأمر الله وقسمه مفعولاً، ولكنه علّقه بالأسباب حكمة، لِيَعْلَم القلوب التي تتعلق بالأسباب من القلوب التي تتوكل على رب الأرباب، وقد تقدم أن السبب لا ينافي التوكل، قال صلى الله عليه وسلّم: « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » أخرجه البخاري، والصحيح ما أحكمته السنة عند فقهاء الظاهر، وهو العمل بالأسباب الدنيوية، من الحرث والتجارة في الأسواق والعمارة للأموال وغرس الثمار.

وقد كانت الصحابة رضي الله عنهم تفعل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلّم بين أظهرهم قال أبو الحسن بن بطال: أمر الله سبحانه عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا إلى غير ذلك من الآي وقال: { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ } فأحل للمضطر ما كان حرم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاغتذاء به ولم يأمره بانتظار طعامٍ ينزل عليه من السماء، ولو ترك

السعي في ترك ما يتغذى به لكان لنفسه قاتلاً، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله ولم يترل عليه طعام من السماء وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح. وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلّم ببعير فقال: يا رسول الله أعقله وأتوكل أو أطلقه وأتوكل، قال: «اعقل وتوكل» وأهل الصفة فإنهم كانوا فقراء يقعدون في المسجد ما يحرثون ولا يتجرون ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان ومع ذلك فإنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويقرؤون القرآن بالليل ويصلون، هكذا وصفهم البخاري وغيره، فكانوا يتسببون وكان صلى الله عليه وسلّم إذا جاءته هدية أكلها معهم وإن كانت صدقة خصهم بها فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمّروا (كأبي هريرة رضي الله عنه وغيره) وما قعدوا.

ثم قيل: الأسباب التي يطلب بها الرزق ستة أنواع:

أعلاها: كسب نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم قال: « جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري » أخرجه الترمذي وصححه، فجعل الله رزق نبيه صلى الله عليه وسلّم في كسبه لفضله وخصه بأفضل أنواع الكسب.

الثاني: أكل الرجل من عمل يده، قال صلى الله عليه وسلّم: « إن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » البخاري، قال تعالى: { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ }، وروي أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه.

لثالث: التجارة وهي كانت عملَ جُلِّ الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة المهاجرين وقـــد دل عليها التتريل في غير موضع.

الرابع: الحرث والغرس.

الخامس: إقراء القرآن وتعليمه والرقي.

السادس: يأخذ بنية الأداء إذا احتاج، قال صلى الله عليه وسلّم: « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله ». أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

{ إِن شَآءَ } أي يغنيكم قيده بالمشيئة مع أن التقييد بها ينافي ما هو المقصود من الآية وهو إزالـــة خوفهم من العيلة لفوائد:

الأولى: أن لا يتعلق القلب بتحقيق الموعود بل يتعلق بكرم من وعد به ويتضرع إليه في نيل جميع المهمات، ودفع جميع الآفات والبليات.

الثانية: التنبيه على أن الإغناء الموعود ليس يجب على الله تعالى بل هو متفضـــل في ذلـــك، لا يتفضل به إلا بمشيئته وإرادته.

الثالثة: التنبيه على أن الموعودَ ليس بموعود بالنسبة إلى جميع الأشخاص ولا بالنسبة إلى جميـــع الأمكنة والأزمان.

{ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ } بمصالحكم { حَكِيمٌ } فيما يعطي ويمنع.

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى قد رفع قلم التكليف عن الإنسان إلى أن يبلغ استكمال القالب ففي تلك المدة كانت النفس وصفاها يطفن حول كعبة القلب مستمدة مـــن القـــوى العقليـــة والروحانية وبهذا يظفرن بمشتهياهن من الدنيا ونعيمها حتى صار تعبد الدنيا دأبهن والإشراك بالله طبعهن وبذلك تكامل القالب واستوت أوصاف البشرية الحيوانية عند ظهور الشهوة بالبلوغ ثم أجرى الله عليهم قلم التكليف ونهى القلب عن اتباع النفس وأمره بقتلها ونهاها عن تطوافها لئلا تنجس كعبة القلب بنجاسة شرك النفس والأوصاف الذميمة فلما منعت النفس عـــن تطوافهـــا بحوالي القلب خاف القلب من فوات حظوظه من الشهوات بتبعية النفس فأغناه الله عـــن تلـــك الحظوظ بما يفتح عليه من فضل مواهبه من الواردات الربانية والشواهد والكشوف الرحمانية وفي قوله تعالى: { إِن شَآءَ } إشارة إلى أن ما عند الله لا ينال إلا بمشيئة الله.

أقـــول:

اترك ما تريد إلى ما هو مريد، احذر من اختيارك، وإذا حصل لك التسليم التام بالقلب ولـــب السر، لا بالقول فقط حينئذ أنت عبد لربك، لا تبقى معك الحظوظ النفسانية واضمحلت منك الطبيعة البشرية وما حصل لك ومنك من الاستفادة يكون به لا بك، تأمل فيما قـــال خالقـــك سبحانه { إِن شَآءَ } بدت لك الحقيقة.

اللهم ألحقنا بأهل التحقيق. والمحب على الحقيقة مَنْ لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ولا مشيئة له غير مشيئته، اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة: ٣٤ ــ ٣٥].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ } أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيراً من علماء اليهود { الأَحْبَارِ } وعلماء النصارى { وَالرُّهْبَانِ }.

{ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } أي ليأخذون أموال الناس بالحرام، ويمنعوهم عن الدخول في دين الإسلام.

قال ابن كثير: والمقصود التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال.

قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا كان فيه شبه من النصارى.

اعلم أنه تعالى لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس، تنبيهاً على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر، أخذ أموال الناس بالباطل وتحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم، لأنهم اتخذوا الدين مطيةً لنيل الدنيا وذلك نهاية الذل والدناءة.

ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس أي الفساد والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدّعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله وهذه الخصال بأسرها في زماننا وهو الطريق لأكثر الجهال والمزورين إلى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها ويوهمون الناس أنهم حذاق مهرة في تأويل الآية وبيان مراد الله تعالى منها.

{ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } لأنهم كانوا يقتلون على متابعتهم ويمنعون عن متابعة الأخيار من الخلق، والعلماء في الزمان، وفي زمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم كانوا يبالغون في المنع عن متابعته بجميع وجوه المكر والخداع.

قال المصنف رضي الله عنه: غاية مطلوب الخلق في الدنيا المال والجاه ، فبيّن تعالى في صفة الأحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الأمرين، فالمال هو المراد بقوله: { لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ } وأما الجاه فهو المراد بقوله: { وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ } أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات { وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير، قال ابن عمر رضي الله عنه: الكنز ما لم تؤد زكاته، وما أديت زكاته فليس بكنز.

{ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } أسلوب تهكم، أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم، قال الزمخشري: وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم.

وفي صحيح مسلم: « ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ».

روي أن أعربياً قال لابن عمر رضي الله عنهما: أخبرني عن قول الله تعالى: { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ } فقال ابن عمر رضي الله عنه: من كنزهما فلم يؤد زكاتهما فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرة للأموال، وما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزكيه، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى، رواه ابن ماجه.

قال الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « تباً للذهب، تباً للفضة » يقولها ثلاثاً فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم قالوا : فأي المال نتخذ؟ قال عمر رضي الله عنه : فأنا أعلم لكم ذلك؛ فقال: يا رسول الله إن أصحابك

قد شق عليهم وقالوا أي المال نتخذ؟ قال: « لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه ».

قوله: { يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ } أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية.

{ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ } أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها.

قال ابن مسعود: والذي لا إله إلا غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته فإذا جاءه أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره ، والكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء.

{ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هـذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه.

واعلم أن طريق الحق أن يقال: الأولى ألا يجمع الرجل الطالب للدين المالَ الكثير، إلا أنه لم يمنع عنه في ظاهر الشرع، فالأول محمول على التقوى؛ والثاني محمول على ظاهر الفتوى، أما بيان أن الأَوْلى الاحتراز عن طلب المال الكثير فبوجوه:

الوجه الأول: أن الإنسان إذا أحب شيئاً فكلما كان وصوله إليه أكثر والتذاذه بوجدانه أكثر، كان حبه له أشد وميله أقوى، فالإنسان إذا كان فقيراً فكأنه لم يذق لذة الانتفاع بالمال وكأنـه

غافل عن تلك اللذة، فإذا ملك القليل من المال وجد بقدره اللذة، فصار ميله أشـــد، فكلمـــا صارت أمواله أزيد، كان التذاذه به أكثر، وكان حرصه في طلبه وميله إلى تحصيله أشد فثبت أن تكثير المال سبب لتكثير الحرص في الطلب، فالحرص متعبٌ للروح والنفس والقلب وضرره شديد فوجب على العاقل أن يحترز عن الإضرار بالنفس، وأيضاً قد بينا أنه كلما كان المال أكثر كـــان الحرص أشد، فلو قدرنا أنه كان ينتهي طلب المال إلى حد ينقطع عنده الطلب ويزول الحـــرص، لقد كان الإنسان يسعى في الوصول إلى ذلك الحد، أما لما ثبت بالدليل أنه كلما كـــان تملـــك الأموال أكثر كان الضرر الناشيء من الحرص أكبر، وأنه لا نهاية لهذا الضرر ولهذا الطلب فوجب على الإنسان أن يتركه في أول الأمر.

الوجه الثاني: أن كسب المال شاق شديد، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصـــعب، فيبقـــى الإنسان طول عمره تارة في طلب التحصيل، وأخرى في تعب الحفظ ثم إنه لا ينتفع بها إلا بالقليل وبالآخر يتركها مع الحسرات والزفرات، وذلك هو الخسران المبين.

الوجه الثالث: أن كثرة المال والجاه تورث الطغيان، كما قال تعالى: { كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى } [العلق: ٦] والطغيان يمنع من وصول العبد إلى مقام رضوان الرحمن، ويوقعه في الخسران والخذلان.

الوجه الرابع: أنه تعالى أوجب الزكاة وذلك سعيٌ في تنقيص المال ولو كان تكثيره فضيلة لمـــا سعى الشرع في تنقيصه.

فإن قيل: لم قال عليه السلام: « اليد العليا خير من اليد السفلى »؟ قلنا: اليد العليا إنما أفادَتْـــه صفة الخيرية لأنه أعطى ذلك القليل، فبسبب أنه حصل في ماله ذلك النقصان القليل حصلت له الخيرية، وبسبب أنه حصل للفقير تلك الزيادة القليلة حصلت المرجوحية.

وقد جاءت الأخبار الكثيرة في وعيد مانعي الزكاة، أما منع زكاة النقود فقوله في هذه الآيـــة : { يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ } وأما منع زكاة المواشي فما روي في الحديث: أنه تعالى يعذب أصحاب المواشي إذا لم يؤدوا زكاتها بأن يسوق إليهم تلك المواشي كأعظم ما تكون في أجسامها فتمر على أربابها فتطؤهم بأظلافها وتنطحهم بقرونها كلما نفدت أخراها عادت إليهم أولاها فلا يزال كذلك حتى يفرغ الناس من الحساب.

أقـــول:

خير المال ما استعملته في الحلال، وأنت للمال إذا أمسكته، فإذا أنفقته فهو لك، وأَحلُّ المال ما أتاك من غير مسألة، والواحد من الخلق يتفكر في الدنيا حتى لا يكون محتاجاً لأحد مـــن النـــاس فيعمل ليلاً ونهاراً حتى لا يكون فقيراً، وهذا الصنف كثير، أما من يتفكر في آخرته حتى لا يكون فقيراً فيها هؤلاء قلة في الناس، مع أن الدنيا مضمونة لأهلها كلٌ حَسْب ما قَدّر اللهُ له من الرزق، وأما الآخرة فليست بمضمونة لأحد إلا لمن ضمن الله لهم حسن الخاتمة كالأنبياء والمبشرين بالجنة وهؤلاء كانوا يعملون عمل الخائف من ربه تبارك وتعالى، فكان الذين دخلوا في الولاية لله عـــز وجل دخلوا من باب مخالفتهم لأنفسهم لأن كل خبث مصدره من النفس الأمارة، فلا بد مـــن معرفة خفاياها ومحاسبتها في الأنفاس حتى لا تخدع.

نسأل الله السلامة والتوفيق في أعمالنا ظاهراً وباطناً، إنه سميع مجيب، اللهم وفقنا لذلك آمين. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التوبة : ٣٨ ــ ٣٩].

إن الله تعالى لما شرح معايب هؤلاء الكفار وفضائحهم، عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم وقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ } استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك، والمعنى: ما لكم

أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تثاقلتم وتباطأتم، وملتم إلى الدنيا وشـــهواها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه؟!.

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة أسباباً كثيرة موجبة لقتالهم، وذكر منافع كثيرة تحصل من مقاتلتهم كقوله: { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ } [التوبـــة: ١٤] وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا، وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع مـــن قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة، فبين تعالى أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الـــدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة من البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه.

والمروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك، وذلك لأنه عليـــه السلام لما رجع من الطائف أقام بالمدينة وأمر بجهاد الروم، وكان ذلك الوقت زمان شدة الحـــر، وطابت ثمار المدينة وأينعت فاستعظموا غزو الروم وهابوه، فترلت الآية.

قال المحققون وإنما استثقل الناس ذلك لوجوه:

أحدها: شدة الزمان في الصيف والقحط.

الثاني: بُعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت بـــه العـــادة في ســـائر الغزوات.

الثالث: إدراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت.

الرابع: شدة الحر في ذلك الوقت.

الخامس: مهابة عسكر الروم، فهذه الجهات الكثيرة اجتمعت فاقتضت تثاقل الناس عن ذلك الغزو، والله أعلم.

{ أَرَضِيتُم بِالْحَياةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي، فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له أليس أن معبودكم يأمركم بمقاتلتهم وتعلمون أن طاعة معبودكم توجب الثواب العظيم في الآخرة؟ فهل يليق بالعاقل ترك الثواب العظيم في الآخرة لأجل المنفعة اليسيرة الحاصلة في الدنيا؟ والدليل على أن متاع الدنيا في الآخرة قليل، أن لذات الدنيا خسيسة في أَنْفَسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قريب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن كل الآفات، ودائمة سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا قليل حقير خسيس.

قال الثوري عن الأعمش في الآية: { فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } قال كزاد الراكب، وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه، أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ولّى ظهره فبكى وهو يقول: أفٍ لك من دارٍ إن كان كثيرك لقليل وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة، إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنَصَبِ (تعب) الدنيا قال صلى الله عليه وسلّم لعائشة وقد طافت راكبة: « أجرك على قدر نصبك » خرّجه البخاري.

{ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو حبس المطر عنهم.

اعلم أنه يحتمل أن يكون المراد منه عذاب الدنيا، وأن يكون المراد منه عذاب الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلّم القوم فتثاقلوا فأمسك عنهم المطر، وقال الحسن: الله أعلم بالعذاب الذي كان يترل عليهم، وقيل: المراد منه عذاب الآخرة إذ «الأليم» لا يليق إلا به، وقيل: إنه تهديد بكل الأقسام وهي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقطع منافع الدنيا وقطع منافع الآخرة.

{ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم يكونون أسرع استجابة لرسوله صلى الله عليه وسلّم وأطوع.

نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلّم، وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استُنفِروا حصلت النصرة بهم، ووقع أجرهم على الله عز وجل، وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونصرته لا تحصل إلا بهم، وهو قوله: { وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا } والضمير راجع إلى الله تعالى يعني لا تضروا الله شيئاً لأنه غني عن العالمين، وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقيل: الضمير راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يعني ولا تضروا محمداً صلى الله عليه وسلّم شيئاً فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله.

{ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } يعني أنه قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينـــه، وقـــال الجمهور: هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وســـلّم فلـــم ينفروا.

اعلم أن البطالة تقسي القلب فلا بد من الحركة، فإن البركات في الحركات الحضرية والسفرية والسفر على نوعين:

سفر الدنيا وسفر الآخرة، في كليهمـــا مشـــقة وإن كـــان الثـــاني أشـــق، وفي الحـــديث : « السفر قطعة من العذاب » فعلى المرء أن يغتنم أيام حياته، ويجتهد في تحصيل مرضاة ربه.

وفي الحديث: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » شبه النبي عليه الصلاة والسلام المكلف بالتاجر والصحة والفراغ برأس المال، لأنهما من أسباب الأرواح ومقدمات نيل النجاح، فمن عامل الله تعالى بامتثال أوامره يربح، كما قال تعالى: { هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَـــى تِجَـــارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [الصف: ١٠ ــ ١١].

ومن عامل الشيطان باتباعه يضيع رأس ماله ولا ينفعه ندم، وفي امتثال أمر الله عاقبة حميـــدة إذ رُبَّ شيء تكرهه النفس كالجهاد وهو عند الله محبوب فبترك الراحة واختيار المشقة ينال العبـــد أمانيه الدنيوية والأخروية والتوفيق إليه من الله تعالى وليس كل أحد من لا يبالي بانتقاص دنياه إذا كان التكامل في طرف دينه.

اعلم أنه كما أن الله تعالى يستبدل بذواتٍ ذواتاً أخر كذلك يستبدل بصفات صفاتٍ أخـــر، فالذاهب خلف مشتهياته، والتابع لهواه في كل حركاته وسكناته يهلك في وادي الطبيعة والنفس ولا يصل إلى مقامات رجال عالم القدس والأنس ولا يتفق له معهم الصحبة في مقالهم ومقـــامهم وحالهم إذ بينهما بون بعيد من حيث إن صفاته صفات النفس وأحواله أحوال الطبيعة، وصفاقم صفات الروح وأخلاقهم أخلاق الله؛ ولذا يحشر كثير من الناس في صورة صفاته الغالبة المذمومة إلا أن يتداركه الله تعالى بفضله ويكسوه كسوة الوجود الإنساني على الحقيقة.

أقـــول:

عليك أن تنتبه وتحذر وتستعد ليوم الحشر { يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً } نرجو الله ألا نكون من الأصناف العشرة الذين سئل عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهو بين أصحابه.

فعن معاذ رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله: أرأيت قول الله تعالى: { يَوْمَ يُـــنفَخُ فِـــي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً } [النبأ: ١٠٨] فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: « يا معاذ بن جبل لقـــد سألت عن أمر عظيم » ثم أرسل عينيه باكياً ثم قال: « يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قـــد ميزهم الله من جماعات المسلمين، وبدل صورهم فمنهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكّسون: أرجهلم أعلاهم، ووجوههم يسحبون عليهـــا، وبعضـــهم عمـــيٌ يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صـــدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع النار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم مُلْبَسون جلابيب سابغةً من القطران لاصقة بجلودهم.

فأما الذين على صورة القردة: فالفتّان بين الناس (يعني النمام).

وأما الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت والحرام والمكس (المَكْسُ: النقص والظلم).

وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم: فأَكَلَةُ الربا.

والعمي: من يجور في الحكم.

والصم والبكم: الذين يعجبون بأعمالهم.

والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقُصاص الذين يخالف قولُهم فعلَهم.

والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران.

والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان.

والذين هم أشد نتناً من الجيف: فالذين يتمتعون في الشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم.

والذين يلبسون الجلابيب: فأهل الكبر والفخر والخيلاء ».

نسأل الله النجاة من عذاب الله، ولا يُمكِنُ لنا النجاة إلا بالله. اللهم وفقنا لذلك آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة:١١٩].

أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً.

إنه تعالى لما حكم بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى، وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الجهاد.

فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ } في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلّم: { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } يعني مع الرسول صلى الله عليه وسلّم في الغزوات، ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت.

وإنه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت وذلك يمنع من إطباق الكل على الباطل، ومتى

امتنع إطباق الكل على الباطل، وجب إذا أطبقوا على الشيء أن يكونوا محقين فهذا يدل على أن إجماع الأمة حجة والآية دالة على فضل الصدق وكمال درجته، والذي يؤيده ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: عليكم بالصدق فإنه يقرب إلى البر والبر يقرب إلى الجنة، وإن

العبد ليصدق فيكتب عند الله صدّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يقرب إلى الفجور، والفجور يقرب إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً، ألا ترى أنه يقال: صدقت وبررت.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال المراد بقوله: { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } أي كونوا على طريقة الصادقين؟

الجواب: أن قوله كونوا مع الصادقين أمر بموافقة الصادقين، ونهي عن مفارقتهم..

من فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات.

ومن معايب الكذب أن الكفر منه لا من سائر الذنوب.

واختلف الناس في أن المقتضى لقبحه ما هو؟

فقال أصحابنا: المقتضى لقبحه هو كونه مخلاً لمصالح العالم ومصالح النفس.

وقيل: هم الموفون إذا عاهدوا لقوله: { رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً } [الأحزاب: ٢٣] وهم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم إن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل.

حَقُ مَنْ فَهِمَ عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار. فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة، وقد ردّ صلى الله عليه وسلّم شهادة رجل في كذبة كذبها.

قال معمر: لا أدري أكذب على الله، أم كذب على رسوله أو كذب على أحد الناس، وعن عبد الله بن مسعود: أن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم شيئاً ثم لا ينجزه اقرؤوا إن شئتم { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } هل ترون في الكذب رخصة ؟.

في قوله: { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: مع الذين صدقت نياهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى تبوك بإخلاص نية، مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة وهم الثلاثة الذين خُلِّفوا ثم تابوا فتاب الله عليهم.

فقد أخرج ابن شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلّم كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها.

وهو خطاب لجميع المؤمنين والمراد بقوله: { لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَآءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة: ١٧٧].

{ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } الذين صَدَّقوا الميثاق فيما أجابوا الله عند خطاب { أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ } وصَدَّقوا الله على ما عاهدوا عليه، أن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً من مقاصد الدنيا والآخرة عن كل حادث.

وفي الآية دلالة على شرف أهل الصدق وعلو درجتهم ألا ترى إلى إبليس كيف استنكف عن الكذب حيث ذكر الاستثناء في قوله: { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص: ٨٢] فإنه لو لم يذكر الاستثناء لكان كاذباً في ادعاء إغواء الكل وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف عنه إبليس اللعين فالمسلم أولى أن يستنكف عنه.

وروي أن واحداً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال له: أريد أن أومن بك ولكني أحب الخمر والزنى والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها وإن قنعت بترك واحد منها آمنت فقال صلى الله عليه وسلّم: اترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عنده صلى الله عليه وسلّم عرضوا عليه الخمر فقال: إن أنا شربت فسألني الرسول صلى الله عليه وسلّم وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها، ثم عرضوا عليه الزنى فجاء ذلك الخاطر فترك وكذا في السرقة فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي وتاب عن الكل رأساً.

ثم الصادقون هم المرشدون إلى طريق الوصول فإذا كان السالك في جملة أحبابهم، ومن زمرة الخدام في عتبة بابهم فقد بلغ بمحبتهم وتربيتهم وقوة ولايتهم إلى مراتب في السير إلى الله وترك ما سواه.

قال حضرة الشيخ الأكبر رحمه الله: إن لم تجر أفعالك على مراد غيرك لم يصح لك انتقال عن هواك ولو جاهدت نفسك عمرك فإذا وجدت من يحصل في نفسك حرمته فاخدمه وكن ميتاً بين يديه يصرفك كيف يشاء لا تدبير لك في نفسك معه تعش سعيداً مبادراً لامتثال ما يأمرك به وينهاك عنه فاسع يا بني في طلب شيخ ليرشدك ويعصم خواطرك حتى تكمل ذاتك بالوجود الإلهي.

عليكم بالصدق مطلقاً نية وعملاً وهو يرجع إلى الإخلاص جداً، بأن لا يكون للعبد أصلاً باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل الصدق، ويجوز أن يسمى كاذباً، ودرجاته لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً.

أقول:

مراتب الصدق كثيرة، أقلها أن يكون السر والعلانية متفقين، وتكون صادقاً في موافقة ربك أمراً ونهياً في اتباع رسولك صلى الله عليه وسلّم؛ حتى تتحقق بالعبودية لله تعالى، فهي أمنية السالكين، فمن راقب الله تعالى في الحركات والسكنات، وآمن بأنه يعلم السر وأخفى، لا بد أن يحذر من تلك القبيحة، والله نسألُ العصمةَ.

وبمجرد الإيمان لا يكون المؤمن صادقاً، فلا بد له أن يعمل بمقتضى الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان الصدق، الله تعالى يقول: { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَـئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } فالآية تدل على أن الإيمان بالله ورسله يجعل الإنسان من الصديقين، ولكن لا بد من العمل بمقتضى

الإيمان، وإلا فكيف يكذب وهو من الصديقين؟ كيف يأكل الربا وهو من الصـــديقين؟ كيـــف يرتكب المخالفات مع الإصرار وهو من الصديقين؟ إذاً فلا بد من العمل بمقتضى الإيمان والمقبول عند الله الصادق، والصادق له أوصاف.

١ ـــ أن يكون صادقاً في نيته، لا يبتغي إلا مرضاة الله.

٢ ـــ أن يكون صادقاً بلسانه ويكون باستواء السريرة مع العلانية.

٣ ـــ أن يكون صادقاً في الوفاء بالعزم، ويكون توكله على الله تعالى.

٤ ـــ أن يكون صادقاً في عزمه على خير نواه، فلا يسول ولا يسوف.

٥ ـــ أن يكون صادقاً في مقاماته، من خوف ورجاء وحب وشوق.

٦ ـــ أن يكون صادقاً في مناجاته لربه تبارك وتعالى.

والإنسان يعرف نفسه بعد الله تبارك وتعالى هل هو صادق أم لا؟ فيجب عليه أن لا يغتر بمدح الناس وباجتماعهم عليه، ويكتفي بعلم الله عز وجل وبوجوده، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ١٢٣].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ } أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم. والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد(١) كما هو أمر الدعوة حيث وقع على هذا الترتيب قال تعالى:

{ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } [الشعراء: ٢١٤].

وكذلك أَمْرُ الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه عليه السلام حارب قومه، ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب وذلك لأن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة.

قوله: { وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً } أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم وهذه الآية تدل على الأمر بالتغليظ عليهم، ونظيرُه قوله: { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة: ٧٣] وقوله: { وَلاَ تَهِنُوا } [آل عمران: ١٣٩] وقوله في صفة الصحابة رضي الله عنهم: { أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة: ٥٤].

واعلم أن الغلظة ضد الرقة، وهي الشدة في إحلال النقمة، والفائدة فيها أنها أقــوى تــأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح، ثم إن الأمر في هذا الباب لا يكون مطرداً، بل قد يحتاج تارة إلى الرفق واللطف وأخرى إلى العنف، ولهذا السبب قال: { وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً } تنبيهاً على أنه لا يجوز الاقتصار على الغلظة البتة فإنه ينفر ويوجب تفرق القوم، فقوله: { وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً } يدل على تقليل الغلظة، كأنه قيل: لا بد وأن يكونوا بحيث لو فتشوا على أخلاقكم وطبائعكم لوجدوا فيكم غلظة وهذا الكلام إنما يصح فيمن أكثر أحواله الرحمة والرأفة، ومع ذلك فلا يخلو عن نوع غلظة.

ثم قال: { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } بالحراسة والإعانة، ووضع المُظْهَر موضعَ المضــمر أي معكم، إشارة إلى علة النصرة وهي التقوى، كأنه قيل: واعلموا أن نصرة الله معكــم، بســبب تقواكم: بالتوحيد والإسلام والإيمان، والطاعة عن الإشراك والكفر والنفاق والعصيان في مرتبــة الشريعة.

وبالله عن جميع ما سوى الله في مرتبة الحقيقة، لا مع الكفار المشركين المنــافقين العاصــين وإن أعطاهم لوازم القتال مكراً واستدراجاً كما أعطاكموها كرماً وإحساناً. وبقدر تقواكم بالحق عن الخلق يسخر الله لكم الخلق، وبقدر تسخيركم لله قواكم النفسانية يسخر الله لكم الكفار. وبقدر تسخيركم لله قواكم الروحانية يسخر الله لكم المؤمنين.

قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه في مواقع النجوم: اعلم يا بني أن الله جل ثناؤه لما أراد أن يرقي عبده الخصوصي إلى المقامات العلية قرب منه أعداءه حتى يعظم جهاده لهم ويشتغل بمحاربتــهم أولاً قبل محاربة غيرهم من الأعداء الذين هم منه أبعد.

قال الله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }، وحظ الصوفي وكل موفق من هذه الآية أن ينظر فيها إلى نفسه الأمارة بالسوء التي تحمله على كل محظور ومكروه وتعدل به عن كل واجب ومندوب للمخالفة التي جبلها الله عليها، وهي أقرب الكفار والأعداء إليه، فإذا جاهدها وقتلها أو أسرها، فحينئذ يصح له أن ينظر في الأغيار، على حسب ما يقتضيه مقامه، وتعطيه منزلته.

فالنفس أشد الأعداء شكيمة، وأقواهم عزيمة، فجهادها هو الجهاد الأكبر ومعنى الجهاد مخالفة هواها وتبديل صفاتها وحملها على طاعة الله.

وللنفس سيفان تُقطعُ بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم وهما شهوتا البطن والفرج، وشهوة البطن أقوى وأشد من شهوة الفرج لأنه ليس لها تأييد إلا من سلطان شهوة البطن، فما ملىء وعاء شراً من بطن ملىء بالحلال، هذا إذا كان القوت حلالاً، فكيف إذا كان حراماً؟! فالطعام والإكثار منه قاطع عن الطريق، وكذا الكلام، وكذا التأذي بأذى الأنام فعليه بالصبر وألا يجدهم مؤذين لأنه موحد فيستوي عنده المسيء والمحسن في حقه، بل ينبغي أن يرى المسيء محسناً.

قال بعض العلماء من سهر أربعين ليلة خالصة كوشف بملكوت السموات. أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغفلة إنه مجيب الدعوة.

أقول:

كلنا نؤمن ونقر بعداوة النفس الأمارة منذ القديم، وبأنها عدوة لله وعدوة لنا، ومع ذلك فهي محبوبة لنا وندافع عنها، ولا نخالفها، فعداوتها تبقى منحصرة على لساننا، وما طبقنا بالفعل، ونبقى

في القوة كمثل الطفل الرضيع، وهل يمكن له فعل الكتابة؟ ولكن بالقوة والتعليم يمكن، قال الله تعالى: { وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } [التوبة: ٩٤] صيغة الأمر متضمنة للوعيد، ما قال اعلموا لأن العلم بدون العمل لا ينفع بل وباله أكثر.

الرضا والسخط مترتبان على العمل لا على العلم، كما أن الدَّيْن لا يقضى بمجرد القول، بل بالفعل، هذا أمر بديهي لا يخفى على العاقل.

وكذلك الرياء، وحب الجاه، والدنيا، والكرامات، وغيرها من الأخلاق الذميمة اللهم اهدنا إلى ما كان فيه صلاحنا آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. استغفر الله العظيم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج: ٧٧ ــ ٧٨].

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات، من سورة الحج اتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربع أوجه:

أولها: تعيين المأمور. الثاني: أقسام المأمور به.

الثالث: ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر. الرابع: تأكيد ذلك التكليف.

النوع الأول: وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ }: إن المراد بذلك المؤمنون فقط:

أما أولاً، فلأن اللفظ صريح فيه.

وأما ثانياً: فلأن قوله: { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } وقوله:{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } وقوله: { وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين.

وخصهم الله تعالى بهذا الخطاب، ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله، وكالتشريف لهم في ذلك.

أما النوع الثاني: وهو المأمور به فقد ذكر الله أموراً أربعة:

الأول: الصلاة، وهو المراد من قوله: { ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ } وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود، والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جارياً مجرى ذكر الصلاة أي صلوا لربكم خاشعين. وذكر ابن عباس رضي الله عنهما: أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت الآية.

الثاني: { وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ } وذكر فيه وجوهاً:

أحدها: اعبدوه ولا تعبدوا غيره.

ثانيها: واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات.

ثالثها: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود.

الثالث: { وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد به صـــلة الـــرحم ومكـــارم الأخلاق { وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ } أي افعلوا ما يقربكم من الله تعالى من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والصلاة بالليل والناس نيام ومداومة الذكر الكثير حتى يستشعر القلب بقربه تعالى له وينتبه من الغفلة إلى الحضرة وقيل: فعل الخيرات ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله تعالى ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن الخلق والقول وغير ذلك من أعمال البر.

أما قوله: { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } فقيل: معناه لتفلحوا والفلاح: الظفر بنعيم الآخرة. وقال الإمام أبو قاسم الأنصاري: لعل كلمة للترجية، فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى، والعواقب أيضاً مســـتورة قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « وكل ميسر لما خلق له ».

أقول: أي من توجه إلى الله بقدر وسعه وطاقته نرجو الله جل وعلا أن يعفو عن تقصيره ويدخله بفضله كرمه مع المفلحين.

والمعنى افعلوا هذه كلّها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم.

الرابع: قوله: { وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ }، { وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ } قال صاحب الكشاف: { فِى اللَّهِ } أي في ذات الله: « أي لوجه الله لأن العقول لا تتوصل إلى معرفة ذات الله » ومـــن أجله.

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ } أي أعداءكم الظاهرية والباطنية. فالظاهرية فرق الضلال والكفر ومجاهدتها معلومة، ويسمى الجهاد الأصغر. والباطنية النفس والهوى والشيطان ومجاهدتها الامتناع من شهواتها شيئاً فشيئاً ويسمى الجهاد الأكبر. كما في الحديث رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلّم لما رجع من غزوة تبوك قال :«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ذكره البغوي بغير سند.

قيل: أراد بالأصغر جهاد الكفار، وبالأكبر جهاد النفس. ووجه تسميته أكبر، أن الأعداء الظاهرية تحضر تارة وتغيب أخرى وتصالح، وإذا قتلها الشخص أو قتلته فهو في الجنة بخلاف الأعداء الباطنية فلا تغيب أصلاً، ولا يمكن الصلح معها وإذا قتلت صاحبها وغلبته فهو في النار.

{ حَقَّ جِهَادِهِ } وهو أن لا يخاف في الله لومة لائم. قال عبد الله بن المبارك: { حَقَّ جِهَادِهِ } مجاهدة النفس والهوى والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف، فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد باستفراغ الوسع والطاقة.

النوع الثالث بيان ما يوجب قبول هذه الأوامر وهو ثلاثة:

الأول قوله: { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم).

ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا؟ ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير.

وقوله: { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } أي ما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة ولا كلفكم ما لا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال: { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ }والمراد بالدين أصوله وفروعه حيث لم يشدد عليهم كما شدد على من قبلهم فمن ذلك قبول توبتهم إذا ندموا وأقلعوا، ولم يجعل توبتهم قتل أنفسهم، وإذا أذنب الشخص منهم ذنباً ستره الله ولم يفضحه في الدنيا بأن يجده مكتوباً في جبهته أو على باب داره كما كان فيمن قبلهم، وجعل النجاسة تزال بالماء دون قطع محلها وغير ذلك.

إن قلت: كيف لا حرج في الدين مع أن اليد تقطع بسرقة ربع دينار؟ والمحصن يرجم بزنا مرة ونحو ذلك؟

أجيب: بأن رفع الحرج لمن استقام على منهاج الشرع وأما السرُّاق وأصحاب الحدود فقد انتهكوا حرمة الشرع وانتقلوا من السهولة للصعوبة لأن الله لم يحرم المال مطلقاً ولا النكاح مطلقاً، أحل أشياء وحرم أشياء فما جزاء من يتعدى الحدود إلا التشديد عليه.

الثاني { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَهِيمَ هُوَ سَمَّـكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـذَا } أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم عليه السلام فالزموه لأنه الدين القيم كقوله { دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن { وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِيناً }وهنا سؤالات :

السؤال الأول: لم قال: { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } ولم يدخل في الخطاب المؤمنين الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلّم ولم يكونوا من ولده؟

الجواب من وجهين:

أحدهما: لما كان أكثرهم من ولده كالرسول صلى الله عليه وسلّم ورهطه وجميع العرب جاز ذلك.

ثانيهما: وهو قول الحسن أن الله تعالى جعل حرمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده، ومنه قوله تعالى: { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [الأحزاب: ٦]، فجعل حرمته كحرمة الوالد على الولد، وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال الله تعالى: { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }.

السؤال الثاني: هذا يقتضي أن تكون ملَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم كملَّةِ سيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام سواء فيكون الرسول صلى الله عليه وسلّم ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى: { أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَهِيمَ حَنِيفًا } [النحل: ١٢٣] ؟، الجواب: هذا الكلام إنما وقع مع عبدة الأوثان، فكأنه تعالى قال: عبادة الله وترك الأوثان هي ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ }؟

الجواب: فيه قولان:

الأول: أن الكناية راجعة إلى إبراهيم عليه السلام، فإن لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } [البقرة: ١٢٨] فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم،

وروي أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم بمثل ملته وأنه ستسمى أمته بالمسلمين.

والثاني: أن الكناية راجعة إلى الله تعالى في قوله: { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ } أي في كل الكتب، { وَفِي هَـذَا } أي في القرآن، وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى قال: { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله.

والمعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضاً، بيّن فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم، لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه.

الثالث: { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ }، { لِيَكُونَ الرَّسُولُ } يعني حضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم يوم القيامة :{ شَهِيداً عَلَيْكُمْ } بأنه قد بلغكم فيدل على شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى { وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } بتبليغ الرسل.

أي إنما جعلناكم أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة { شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة

أنه بلغها ذلك كما في قوله: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَـــكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }.

النوع الرابع: شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى:

قوله تعالى: { فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَـــوْلَى وَنِعْـــمَ النَّصِيرُ }.

{ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ } أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بالشكر فأدوا حـــق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة، وإيتـــاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من مالـــه في السنة للضعفاء والمحاويج. وتخصيصهما بالذكر لفضلهما فالأول دال على تعظيم أمر الله والثاني على الشفقة على الخلق.

{ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ } أي ثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه.

{ هُوَ مَوْلاكُمْ } ناصركم ومتولي أموركم.

{ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } إذ لا مثل له في الولاية والنصرة بل لا ولي ولا نصير في الحقيقـــة سواه تعالى.

وشكا رجل إلى أخيه الحاجة والضيق؛ فقال: يا أخي أغير تدبير ربك تريد لا تسأل الناس وسل من أنت له.

ودخل سليمان بن عبد الملك الكعبة فقال لسالم بن عبد الله: ارفع حوائجك فقال: والله لا أسأل في بيت الله غير الله.

فينبغي للعبد الطالب لعصمة الله تعالى أن يعتصم به في كل الأمور ويجتهد في رضاه في الخفاء والظهور ولا يقول إن هذا الأمر عسير فإن ذلك على الله يسير فإنه هو المولى فنعم المولى ونعم النصير.

قلت: قول الله تعالى يكفينا { وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت: ٦٩].

الذين زينوا ظواهرهم بالمجاهدات حسنت سرائرهم بالمشاهدات.

الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف.

الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات، ويقال الجهاد فيه:

أولاً: بترك المحرمات، ثم بترك الشبهات، ثم بترك الفَضْلات، ثم بقطع العلاقات، والتنقي من الشواغل في جميع الأوقات. ويقال بحفظ الحواس لله، وبعدّ الأنفاس مع الله، ويقال لوّن عليهم العبادة، وأمرهم بها؛ ثم جميعها عبادة واحدة ووعد عليها من الثواب الكثير ما تقصُرُ عن علمه البصائر.

ويقال عَلِمَ أنّ الأحباب يحبون سماع كلامه فطوّل عليهم القول إلى آخر الآية، ليزدادوا عنــد سماع ذلك أنساً على أنس، ورَوْحاً على رَوْح ومُعَادُ خطابِ الأحباب هو رَوْح روحهم وكمــال راحتهم.

ويقال المجاهدة على أقسام: مجاهدة النفس، ومجاهدة القلب، ومجاهدة بالمال. فالمجاهدة بالنفس ألا يدّخر العبد ميسوراً إلا بذله في الطاعة بتحمل المشاق ولا يطلب الرخص والإرفاق.

والمجاهدة بالقلب صونه عن الخواطر الرديئة مثل الغفلة، والعزم على المخالفات وتذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات.

والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار.

أقــول:

نورُ اللهِ جل جلاله لائح غير زائل البتة، والأرواح البشرية لا تكون محرومة من تلك الأنوار إلا بسبب الحجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله عز وجل، فبمقدار ما يزول الحجاب، يكون التجلي، فالأمر متوقف على طلب العبد، فإذا لم يطلب العبد لا يعطى شيئاً، وبعضــهم لا يطلب ربه لأنه تمسك بنفسه، واجتمع شيطانه مع نفسه، لذلك هذا الصنف لا يترقى.

فكن صاحب جد والله ولي الصالحين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَـكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور: ٢١].

إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة حادثة الإفك، وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر وهي أنواع:

النوع الأول: قوله تعالى: { لَّوْلآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَـذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ }.

النوع الثاني: قوله تعالى: { لَّوْلاَ جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ } وهذه الآداب من آية ١٢ إلى ٢١ وهذه الآية من جملة الآداب التي كان يلزمهم الإتيان بها.

ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة يقول لهم: علموا نساءكم سورة النور. وسميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب والفضائل الإنسانية التي هي قبس من نور الله سبحانه على عباده وفيض من فيوضات رحمته وجوده.

والله تعالى خص المؤمنين بذلك لأنه توعّدهم على اتباع خطواته بقوله: { وَمَن يَتَّبِعْ خُطُـوَاتِ الشَّيْطَانِ } وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه، ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه، فكأنه سبحانه لما بيّن ما على أهل الإفك من الوعيد أدّب المؤمنين أيضاً، بأن خصهم بالذكر ليتشددوا في تـــرك المعصية، لئلا يكون حالهم كحال أهل الإفك.

فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } أي يا من صدقتم بالله ورســـوله لا تتبعوا آثار الشيطان، ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به.

{ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته.

{ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة.

وهذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس رضي الله عنهم { خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } عمله وقال عكرمة: نزغاته وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان.

{ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } أي بالقبائح من الأقوال والأفعال وكل ما يكره الله عز وجـــل والآية عامة في حق كل واحد لأن كل مكلف ممنوع من ذلك ، والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، وكذلك { وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ } أي صار فيه خاصة الشيطان وهي الأمر بهما. لأنه لما ضل في نفسه صار يضل غيره. وعبارة أبي السعود: فإن المتبـــع

للشيطان يأمر الناس بهما، فإن شأن الشيطان هو الإضلال، فمن اتبعه فإنه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد.

{ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بـــالتوفيق للتوبـــة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا.

{ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً } ما تطهر أحد منكم من الأوزار أبد الدهر.

{ وَلَـــكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ } أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقـــه للتوبـــة النصوح وقبولها منه ، والغرض أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم.

وليعلم أن أهل الإفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقاب بما أســـروه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجـــوب كف الجوارح والقول عما يضرُّ بهم.

واعلم أن الزكي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع، فإذا بلغ المؤمن مـــن الصلاح في الدين إلى ما يرضاه الله تعالى سمي زكياً، ولا يقال زكى إلا إذا وجد زكياً، كمـــا لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقاً، بل يقال: هداه الله فلم يهتد.

والحاصل أن الآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا: أخبر الله تعالى أنه لولا فضله ورحمتـــه بالعصمة ما صلح منكم أحد، وقيل الخطاب للذين خاضوا في الإفك وهذا يفيد أنهم تابوا وطهروا وهم كذلك إلا عبد الله بن أبيّ فإنه استمر على النفاق حتى هلك كافراً.

{ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } فالمراد أنه يسمع أقوالكم في القذف، وأقوالكم في إثبات البراءة، عليم بما في قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو من كراهيتها، وإذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته.

وفي الآية أمور:

منها: أن خطوات الشيطان كثيرة وهي جملة ما يطلق عليه الفحشاء والمنكر ومن جملته القذف والشتم والكذب وتفتيش عيوب الناس. الحديث: « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » والحديث: « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله » والحديث: « كثرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له كاذب ».

ومنها: أن أمر التزكية إنما هو إلى الله فإنه بفضله ورحمته، وفّق العبد للطاعات والأسباب ولكن لا بد للعبد من أستاذ يتعلم منه كيفية التزكية على مراد الله وأعظم الوسائل هو النبي عليه الصلاة والسلام ثم من أرشده إلى الله تعالى.

قال شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري قدس الله سره: مشايخي في علم الحديث وعلم الشريعة كثيرة وأما شيخي في الطريقة فالشيخ أبو الحسن الخرقاني، فلولا رأيته ما عرفت الحقيقة فأهل الإرشاد هداة طريق الدين ومفاتيح اليقين، فوجود الإنسان الكامل غنيمة ومجالسته نعمة عظيمة.

ثم إن التزكية الحقيقية تطهر القلب عن تعلقات الأغيار بعد تطهيره عن الميل إلى المعاصي والأوزار.

قوله: { مَن يَشَآءُ } إنما هو لأن كل أحد ليس بأهل للتزكية كالمنافقين وأهل الرين والرعونة.

ومنها: الإشارة إلى مغفرة من خاض في حديث الإفك من أهل بدر كمسطح ويدل عليه الاعتناء بشأنه في الآية الآتية وقد ثبت أن الله اطلع على أهل بدر يعني نظر إليهم بنظر الرحمة والمغفـــرة فقال: « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » والمراد به إظهار العناية بهـــم وإعـــلاء رتبتـــهم لا الترخيص لهم في كل فعل كما يقال للمحبوب: اصنع ما شئت.

إذا تنقى القلب عن الوساوس، وصفا عن الهواجس بدت فيه أنوار الخواطر، فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر، وبدت فيه أحاديث الحق سبحانه كما قال في الخبر: « لقد كـــان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر » وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج، وصاحبه يجب أن يكون أميناً، غير مظهرٍ لسِرٍّ مـــا كُوشِفَ به.

{ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } إلخ... ردهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منّ الحق في قســـمي النفع والدفع، وحالتي العسر واليسر، والزكى من الله والنعمى من الله، والآلاء من الله، قال تعالى: { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ }.

أقـــول:

إياكم إياكم أن تتبعوا خطوات الشيطان، فإنه يدخل بينكم وبين ربكم، وبينكم وبـــين نبيكم، وبينكم وبين شيخكم، وبينكم وبين إخوانكم، وإذا أورد إشكالاً لا يمكنكم أن تجـــادلوه

وتعاندوه لأنه يسترسل معكم، وينقلكم من إشكال لآخر، بل عليكم أن تستعيذوا بالله تعالى منه: { وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } [الأعراف: ٢٠٠].

ففي هذه الحال أنت مأمور بالاستعاذة، لا بالمجادلة والمعاندة له قال تعالى: { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً } [النساء: ٨٣] التبعية للشيطان إما كلية وإما جزئية قال تعالى: { فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ } [الأعراف: ٣٠] أما الكلية: فهي للكفار، وهذه حكمة الله في خلقه، وأما الجزئية فهي للمؤمنين.

والاستثناء في قوله تعالى: { إِلاَّ قَلِيلاً } للمؤمنين فهو يشمل المؤمن ممن كان قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلّم ويشمل الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين؛ وهم مطهرون بنور النبوة - والتابعين وهكذا إلى عصرنا هذا وإلى يوم الدين. والمؤمنون لا يخلون من الوساوس والخطرات السيئة بطبيعتهم البشرية، ولو كانوا من المتقين فلولا فضل الله علينا لاتبعنا تلك الخطرات والوساوس وهلكنا حتى في استخدام الجزء الاختياري الذي وهبه الله تعالى بحكمته للإنسان فلولا فضل الله تعالى ورحمته لم يستخدم الإنسان الجزء الاختياري في الاستقامة؛ وفي التزام أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن العبد ليس مالكاً لمصلحته الدينية ولا الدنيوية وكل ما أوتيه الإنسان فهو بمجرد فضل الله ورحمته تعالى.

والذي يصل إلى قلب المؤمن من المخالفات والخطرات والوساوس كل هذه مـــن الشـــيطان؛ بواسطة النفس يصل إلى القلب؛ ولكن الإنسان ليس له تمييز حتى يميز بين خطـــرات الشـــيطان وفضائل الرحمن؛ إلا بتقوى الله وبفضل الله كما قال تعالى: { إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًـــا } [الأنفال: ٢٩].

نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العـــالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَـــاحٌ أَن تَـــدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [النور: ٢٧ ــ ٢٩].

اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف، وما يتعلق بهما من الحكم إلى ما يليق به، لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم، من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمــة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به. فقال:{ يا أَيُّهَا الَّــذِينَ ءَامَنُــواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } لما حذر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلــوات أرشــد تعــالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول والتسليم بعده.

{ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا } أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المترل.

{ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ } بالإذن وذلك لأنهم إذا استأذنوا وسلموا أَنِسَ أهل البيت، ولو دخلوا بغــير إذن لاستوحشوا وشق عليهم وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في إيجاب تقديم الاستئذان؟

الجواب: تلك الحكمة هي التي نبه الله تعالى عليها في قوله: { لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ } فدل بذلك على أن الذي لأجله حَرُم الدخول إلا على هذا الشرط هــو كــون البيوت مسكونة، إذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظــر إليه من عورة أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الأحوال، وهذا من باب العلل المنبــه عليها بالنص، ولأنه تصرف في ملك الغير فلا بد وأن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب.

السؤال الثاني: كيف يكون الاستئذان؟

الجواب: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: أألج؟ فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة: « قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن أن يستأذن قولي له: «السلام عليكم أأدخل» فسمعها الرجل فقالها فقال: «ادخل» فدخل وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أشياء وكان يجيب، فقال: هل في العلم ما لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد آتاني الله خيراً كثيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله وتلا: { إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } إلى آخره.

والمعنى الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة؛ أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حييتم صباحاً، وحُيّيتم مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف.

وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلّم أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم» قال: ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عُريانة»؟ قال: لا قال: «فاستأذن عليها».

السؤال الثالث: كم عدد الاستئذان؟

الجواب: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « الاستئذان ثلاث: بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردون » وعن جندب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع ».

ويجب في الاستئذان ثلاثاً ألا يكون متصلاً، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت، فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذاك حرام لأنه يتضمن الإيذاء والإيحاش، وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى: { إَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَــرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } [الحجرات: ٣].

السؤال الرابع: كيف يقف على الباب؟

روي أن أبا سعيد استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو مستقبل الباب، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا تستأذن وأنت مستقبل الباب » وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم».

وأخيراً: ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه؟

قال الشافعي رحمه الله: لو فقئت عينه فهي هدر.

ولما خصص الله سبحانه ابن آدم الذي كرَّمَه وفَضَّلهُ بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار وملكهم الاستمتاع بها على الانفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة. وفي صــــحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « من اطلع في بيت قـــوم من غير إذنهم حل لهم أن يفقؤوا عينه ». وقد اختلف في تأويله فقال بعض العلماء : ليس هــــذا على ظاهره فإن فقأ فعليه الضمان، والخـــبر منســـوخ، وكـــان قبـــل نـــزول قولـــه تعـــالى :

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ } ويحتمل أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم والخبر إذا كان مخالفاً لكتاب الله، لا يجوز العمل به.

{ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة فالدخول بالإذن من الآداب الجميلة والأفعال المرضية المستتبعة لسعادة الدارين.

اعلم أن السلام من سنة المسلمين وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة، وناف للحقد، وروي عنه عليه الصلاة والسلام قال: « حق المسلم على المسلم ست، قيل: ما هن يا رسول الله، قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه » أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال صاحب الكشاف: وكم من باب من أبواب الدين وهو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل بها وباب الاستئذان من ذلك.

{ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً } أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها { فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ } أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها { وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ } أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحوا { هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم؛ وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } أي هو

تعالى عالم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها وفيه توعد لأهل التجسس على البيوت. ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال : { لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } أي ليس عليكم إثم وحرج { أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ } أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات. قال مجاهد: هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة ليأتي إليها كل ابن سبيل { فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ } أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر، وإيواء الأمتعة والرحال { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } أي يعلم ما تظهرون وما تسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال أبو السعود: وهذا وعيد لمن يدخل مدخلاً لفساد أو اطلاع على عورات.

وفي الآية إشارة إلى ترك الدخول والسكون في البيوت المَجَازِيَّة الفانية من الأجساد، وترك الاطمئنان بها بل لا بد من سلام الوداع للخلاص، فإذا ترك العبد الركون إلى الدنيا الفانية وشهواتها وأعرض عن البيوت التي ليست بدار قرار فقد رجع إلى الوطن الحقيقي الذي حبه من الإيمان.

أقول: (الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لَه، إلا أنها مزرعة الآخرة، ومحل الامتحان، نرجو الله تعالى أن يحفظنا من الدنيا حتى لا تلعب بنا).

الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً يتفردون به لا من الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة، فمن فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم منع ولا زجر ولا حَجْبٌ لأحد ولا حظر... هذا فيما نيط بهم، أما فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرضون لمن هي في أيديهم لا باستشراف طمع ولا بطريق سؤال، ولا على وجه الانبساط. فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك

فالحق يلجىء من في يده الشيء ليحمله إليه بحكم التواضع والتقرب، والولي يأخذ ذلك بنعت التعزز، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة، أي بأرباب الطريق الصوفي.

أقـــول:

التمسك بالشريعة خيرُ الدنيا والآخرة والمخالفاتُ ضَرَرُهما فلا بد للمؤمن العاقل أن لا يضيع أوقاته، وأن لا ينسى مرجعه، ويتذكر وقوفه بين قدرة ربه، وأن لا يعتمد على عمله، لأن العمل لا بد له من شرطين موافقته للشريعة، والإخلاص، والعبد لا يخلو من تقصير ما. وإن كنت في شك انظر إلى صلاتك التي هي من أركان دينك كيف أنت معها بحضورك تعرف مقدار مناجاتك لربك...

نسأل الله العفو عن تقصيرنا، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَآءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَابَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [النور: ٥٨ ــ ٥٩].

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في النداء الثامن والخمسين من سورة النور فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض فأمر الله تعالى أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } وسبب نزول هذه الآية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعث غلاماً من الأنصار إلى عمر ليدعوه فوجده نائماً في البيت، فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ فقال الغلام: اللهم أيقظه لي ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام، فانكشف من عمر شيء وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال: وددت أن الله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فوجده وقد نزل عليه

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } فحمد الله تعالى عمر رضي الله عنه عند ذلك؛ فقال عليه الصلاة والسلام وما ذاك يا عمر؟ فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه، وقال: إن الله يحب الحليم الحييَّ العفيف المتعفف ويبغض البذيء الجريء السائل الملحف. فهذه الآية إحدى الآيات المترلة بسبب عمر رضي الله عنه.

وقال بعضهم: نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد، وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالت إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فترلت الآية.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } أي يا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله ورسوله، وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيد والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين.

قال القاضي قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } وإن كان ظاهر الآية الرجال، فالمراد به الرجال والنساء لأن التذكير يغلب على التأنيث فإذا لم يميز فيدخل تحت قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ } الكل ويبين ذلك قوله : { الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } لأن ذلك يقال في الرجال والنساء.

والأولى أن الحكم ثابت في النساء بقياس جلي، وذلك أن النساء في باب حفظ العورة أشد حالاً من الرجال، فهذا الحكم لّما ثبت في الرجال فثبوته في النساء بطريق الأولى.

ظاهر قوله تعالى: { الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } يدخل فيه البالغون والصغار وإن أريد به العبيد والإماء إذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمراً لهم في الحقيقة، وإن أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمراً لهم، ويجب أن يكون أمراً لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم علَيْهم، كما أمرنا بأمر الصبي وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم، لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ.

قوله: { لِيَسْتَأْذِنكُمُ } على الندب والاستحباب ومنهم، من قال إنه على الإيجاب وهذا أولى، بما ثبت أن ظاهر الأمر للوجوب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي في الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار. والصحيح أنه يجب إثبات هذا الحكم في النساء، لأن الإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضاً اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت في النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه.

قوله: { وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ } أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضاً يعنب الأحرار.

وقد اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلّم مـــن جهـــات كثيرة: « رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم » وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء بل المراد الذين عرفوا أمر النساء، ولكنهم لم يبلغوا الحلم، وهو سن التمييز والعقل وغيرهما، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم.

فقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يكون بالغاً حتى يبلغ ثمان عشرة سنة ويستكملها، والجارية ســـبع عشرة سنة.

وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد رحمهم الله: في الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفاً وتجري عليه الأحكام وإن لم يحتلم.

قال أبو بكر الرازي دلت الآية على أن من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرع وينـــهى عـــن ارتكاب القبائح، فإن الله أمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات، وقال عليه الصـــلاة والســـلام : « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ».

وعن ابن مسعود قال: إذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات حتى يحتلم. ثم قال أبو بكر الرازي: إنما يؤمر بذلك على وجه التعليم وليعتاده، ويتمـــرن عليـــه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ، وأقل نفوراً منه، وينهى عن سائر المحظورات لأنه لو لم يمنـــع في الصغر ليصعب عليه الامتناع في الكبر. وقال الله تعالى: { قُـــواْ أَنفُسَـــكُمْ وَأَهْلِـــيكُمْ نَـــاراً } [التحريم: ٦].

{ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ } أي في ثلاثة أوقات { مِّن قَبْلِ صَـلاةِ الْفَجْرِ } أي في الليل وقـت نـومكم وخلودكم إلى الراحة { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَـبَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ } أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيلولة { وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَآءِ } أي وقت إرادتكم النوم واستعدادكم له.

{ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ } أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، العوراتُ فيها باديةٌ والتكشف فيها غالب، فعلِّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات، إلا بعـد الاستئذان.

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ } أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرج في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة.

{ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ } أي لأنهم خدمكم يطوفون عليكم بالخدمة وغير ذلـك، قال أبو حيان: أي يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات. والطواف: الدوران حول الشيء، { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأْيَاتِ } أي هم يطوفـون عليكم للخدمة وأنتم تطوفون للاستخدام ولو كلفهم الاستئذان في كل طوفة أي في هذه الأوقات الثلاثة وغيرها لضاق الأمر عليهم فلذا رخص لكم في ترك الاستئذان فيما وراء هذه الأوقات.

{ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأْيَاتِ } أي مثل ذلك التوضيح والبيان بين الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا وتتمسكوا بها وتعملوا بها لتَبْيَضُّوا وجوهاً في ذلك اليوم الرهيب والهول العظيم { وَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي عالم بأمور خلقه حكيم في تدبيره لهم فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشاً

ومعاداً ، لذا قال تعالى: { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [الأحزاب: ٢].

اتَّبع ولا تبتدع واقتد بما نأمرك به، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك ولا تعرّج في أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك.

ضيق الله الأمر من وجه ووسعه من وجه، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحرام، والتحرر من مخاوف الفتنة وإذا كانت الجوانب محروسة صارت المخاوف مأمونة.

قال عمر رضي الله عنه: إذا وسع الله عليكم فوسعوا على أنفسكم. ويقال: اليسار مفسدة للنساء لاستيلاء شهوتهن على عقولهن. وفي الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» يعني إذا آتى الله عبده نعمة من نعم الدنيا فليظهرها من نفسه وليلبس لباساً نظيفاً يليق بحاله ولتكن نيته في لبسه إظهار نعمة الله عليه ليقصده المحتاجون لطلب الزكاة والصدقات، وليس لُبْسُ الخَلَقِ [الخلق: البالي] مع اليسار من التواضع.

{ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الْحُلُمَ } أي الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف { فَلْيَسْتَأْذِنُواْ } أي يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم { كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } أي الذين بلغوا من قبلهم وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ } الآية... [سورة النور: ٢٧].

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير استئذان إلا في العورات الثلاث، فــإذا اعتــاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا علــى أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بالإذن؛ والنــاس عن هذا غافلون.

{ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي يفصل لكم أمور الشريعة والــدين؛ والله عليم في خلقه حكيم في تشريعه وكرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

أقــول:

سيف الشريعة الطاهرة مسلط على عاتق المؤمن، فإذا لم يتقيد بالأوامر والنواهي الشرعية، فإن سيف الشريعة يقطع عزته ويسلمه إلى نفسه الأمارة بالسوء والعياذ بالله تعالى، فيضــيع عمــره بالمخالفات، ويكون مثله مثل البهائم التي تأكل وترعى في المرعى، ثم ترجع إلى المأوى، فالقانون الإلَهي في الأرض هو القرآن الكريم فلا يجوز للمسلم أن يخالف مواد هذا القانون كما أن الدول لا تسمح لأي شخص كان أن يخالف مواد قانونها.

والأخذ بالشريعة ضمان لحسن الخاتمة إن شاء الله تعالى. لأنها الوحي السماوي الذي بُلِّغَ علــى لسان سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، فليس هناك أفضل منها للتقرب إلى الله عز وجل ولا تباع مبلِّغ الشريعة صلى الله عليه وسلّم جزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم بما هــو أهله.

اللهم احشرنا تحت لوائه يا رب العالمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَاْ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً } [الأحزاب: ٩ ــ ١٢].

تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى غزوة الأحزاب، وصورتها تصويراً دقيقاً بتآلب (بتجمع) قوى البغي والشر على المؤمنين، وكشفت عن خفايا المنافقين، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط، فلم تبق لهم ستراً، ولم تخف لهم مكراً، وذكّرَت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في رد كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلّم وعندما شرع تعالى في ذكر غزوة

الأحزاب بدأ بذكر ما فيها من نعم فائضة، وآيات باهرة للمؤمنين فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم { إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ } أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتَأَلُّبِهم عليكم. قال أبو السعود: والمراد بالجنودِ: الأحزابُ وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة وبني النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة (سلمان الفارسي) رضي الله عنه؛ ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندق بينه وبين المشركين، واشتد الخوف وظنّ المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق في المنافقين حتى قال (معتب بن قشير) يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط.

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا } أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف.

قال المفسرون: بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وكفأت قدورهم وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم ولم تقاتل بل ألقت في قلوبهم الرعب حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل والحكاية مشهورة.

{ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً } أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق، والثبات على معاونة النبي صلى الله عليه وسلّم في ذلك الوقت وفيه إشارة إلى أن الله عَلِمَ التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فإن قوله :{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا } أي الله يقضي حاجتكم

وأنتم لا ترون، فإن كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافوا غير الله فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره { إِنَّهُ بِكُلِّ شَــيْءٍ بَصِــيرٌ } [الملك: ١٩].

وقال تعالى في الآية التي قبلها { لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً } يعني أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب، وإما عذاب، لأن الصادق محاسب والكافر معــذب، وهذا كما قال علي رضي الله عنه: « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما يوجــب الخوف العام فيتأكد قوله: { يا أَيُّهَا النَّبِيِّ اتَّقِ اللَّهَ } [الأحزاب: ١]، وتحقيقاً لما سبق من الأمــر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد، وذلك لأن في واقعة اجتماع الأحزاب واشــتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم، ونزلوا على المدينة وعمل النبي صلى الله عليه وسلّم الخندق، كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغاً الغاية، والله تعالى دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف، فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره، ولا يأمن مكره، فإنه قادر على كل ممكن، فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهــم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم.

وذكر { نِعْمَةَ اللَّهِ } مقابلتها بالشكر، ولو تذكرت ما دفع عنك فيما سلف لهانــت عليــك مقاساة البلاء في الحال، ولو تذكرت ما أولاك في الماضي لقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ في إيصــال مــا تؤمله في المستقبل. ومن جملة ما ذكرهم به قوله تعالى: { إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ }... كم بلاءٍ صرفه عن العبد وهو لم يشعر! وكم شغل كان يقصده فصده عنه ولم يعلم! وكم أمرٍ عوّقه والعبد يضجّ

وهو (سبحانه) يعلم أن في تيسيره له هلاك العبد فمنعه منه رحمة به والعبد يتهم ويضيق صـــدره بذلك ، اللهم ارزقنا الرضا والتسليم مع المحبة والصبر عليها.

{ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ } أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعـــلاه قِبَـــلَ المشرق، ومنه جاءت أسد وغطفان.

{ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ } أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قبل المغرب ومنه جاءت قريش وكنانـــة وأوباش العرب، والغرض أن المشركين جاؤوهم من جهة المشرق والمغرب وأحاطوا بالمســـلمين إحاطة السوار بالمعصم، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلّم وانضموا إلى المشركين، فاشتد الخوف وعظم البلاء.

{ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ } أي وحين مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصـــاً لشدة الهول والرعب { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } أي زالت عن أماكنها من الصـــدور حـــتى كادت تبلغ الحناجر وهذا تمثيل لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم حتى كأن أحدهم قد وصـــل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقيه من الهول. وهذا القول منقول معناه عن عكرمة. والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة ؛ وذلك لأن القلب عنـــد الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضي إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس، ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى عن الروح { فَلَـــوْلاَ إِذَا بَلَغَـــتِ الْحُلْقُومَ } [الواقعة: ٨٣].

{ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة، تظنون الظنون المختلفة.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم ينصرون. فالمؤمنون ظنوا خيراً، والمنافقون ظنوا شراً، قال ابن عطية: كاد المؤمنون يضطربون ويقولون: ما هذا الخلف بالوعد؟! وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا، وقالوا { مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً } [الأحزاب: ١٢].

{ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ } أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا، ليتميز المخلص الصادق من المنافق. وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال. { وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً } أي وحركوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهاهم حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم، قال ابن جزي: وأصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها.

{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } أي واذكر حين يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضُ النفاقِ لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم. { مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً } أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً. والقائل هو (معتب بن قشير) الذي قال: يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فَرَقاً ما هذا إلا وعد غرور، يَغرُّنا به محمد.

أقـــول:

صدق الصادقين وكذب الكاذبين لا يظهـــر إلا إذا طـــرح في نـــار الـــبلاء، قـــال تعـــالى: { الـــم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: ١] فـــإذا طرح في نار البلاء خرجت روائح الصبر من جوهر الصادقين، وروائح كفران النعم من الكاذبين، فيجب على المؤمن أن يعلم أن الابتلاء كاللهب للذهب، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبـــاً، ومـــا جرى لأصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم أكبر دليل على ما قلناه. نســـأل الله الحفـــظ والسلامة، وأن يثبتنا بقوله الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بحرمة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلّم، وبحرمة وراثه الكاملين آمين. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } [الأحزاب: ٤١ ــ ٤٣].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً } أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم، وجعل تعالى ذلك دون حدٍ لسهولته على العبد، ولعظم الأجر فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله، وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلّم: « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » وقيل: الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان.

والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده، كما أدب نبيه، بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً } كما قال لنبيه: { يا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ } [الأحزاب: ١].

ثم ههنا لطيفة: وهي أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر، أما النبي عليه الصلاة والسلام لكونه من المقربين لا ينسى، ولكن قد يغتر المقرب من المَلِك بقربه منه، فَيقلُّ خوفه فقال: { اتَّقِ اللَّهَ } فإن المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء.

أقول: كل ما جاء من الآيات الكريمة في حق النبي صلى الله عليه وسلّم هو تعليم للأمة لأن الرسول صلى الله عليه وسلّم مرآة لأمته وهو المعصوم والثابت على التقوى كقوله تعالى : { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ }.

{ اذْكُرُواْ اللَّهَ } بما هو أهله من التهليل والتحميد والتكبير ونحوها، والذكر إحضار الشيء في القلب أو القول، وهو ذكر عن نسيان كقوله تعالى: { وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } وهو حالة العامة؛ أو إدامة الحضور والحفظ وهو حال الخاصة، إذ ليس لهم نسيان أصلاً وهم عند مذكورهم مطلقاً.

{ ذِكْراً كَثِيراً } إن الله تعالى في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة، إذ لا مانع من الذكر في كل الحالات على ما بيَّنا ، اي في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، وفي عموم الأمكنة، براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وفي كل الأحوال حضراً وسفراً، صحةً وسقماً، سراً وعلانيةً، قياماً وقعوداً، وعلى الجنب، وفي الطاعة بالإخلاص وسؤال القبول والتوفيق، وفي المعصية بالامتناع عنها، وبالتوبة والاستغفار، وفي النعمة بالشكر، وفي الشدة بالصبر.

وأحوال الذاكرين متفاوتة بتفاوت أذكارهم:

١ ــ ذِكْرُ بعضهم بمجرد اللسان بدون فِكْرِ مذكورهِ، ومطالعة آثاره بعقله وبــدون حضــور مذكوره ومكاشفة أطواره بقلبه، وبدون أنس مذكوره، ومشاهدة أنواره بروحه، وبدون فنائه في مذكوره، ومعاينة أسراره بسره، وهذا مردود مطلقاً.

أقول: هذا ليس مقبولاً لأن الذكر باللسان لا يُترك عسى أن ينتقل من اللسان إلى القلب.

٢ ــ وذكر بعضهم باللسان والعقل، فقد يذكر بلسانه ويتفكر مذكوره ويطالع آثاره بعقلــه ولكن ليس له الحضور والأنس والفناء بالمذكور، وهو ذكر الأبرار مقبول بالنسبة إلى الأول.

٣ ــ وذكر بعضهم باللسان والعقل والقلب فقط بدون الأنس والفناء بالمذكور، وهو ذكر أهل البداية من المقربين مقبول بالنسبة إلى ذكر الأبرار وما تحته.

٤ ــ وذكر بعضهم باللسان والعقل والقلب والروح والسر جميعاً وهو ذكر أرباب النهاية من المقربين من الأنبياء والمرسلين، والأولياء الأكملين وهو مقبول مطلقاً.

وللإرشاد إلى هذه الترقيات قال عليه الصلاة والسلام: « إن هذه القلوب لتصدأ كما يصــدأ الحديد. قيل يا رسول الله: فما جلاؤها؟ قال: تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره ».

فبكثرة الذكر يترقى السالك من مرتبة اللسان إلى ما فوقها من المراتب العالية ويصــقل مــرآة القلب من ظلماتها وأكدارها، ثم إن ذكر الله وإن كان يشتمل الصلاة والتلاوة والدراسة ونحوها،

إلا أن أفضل الأذكار لا إله إلا الله فالاشتغال به منفرداً ومع الجماعة محافظاً على الآداب الظاهرة والباطنة ليس كالاشتغال بغيره.

قوله: { وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } تخصيصهما بالذكر ليس لِقَصْرِ التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لإظهار فضلهما لكونهما مشهودين بتنزل الملائكة. كما أن إفراد التسبيح من بين سائر الأذكار مع اندراجه فيها إنما هو لكونه العمدة فيها وإذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح.

{ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ } وفي أسباب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ } قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصة، وليس لنا فيه شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليل على فضلها على سائر الأمم، وقد قال تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ }.

والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه، وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم كما قال تعالى: { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ }(١) والمعنى هو جل جلاله يرحمكم على الدوام ويعتني بأمركم، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم، { وَمَلاَئِكَتُهُ } يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة. قال ابن كثير والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة والله يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكْرُ صلاتِه تحريضٌ للمؤمنين على الذكر.

{ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }، { لِيُخْرِجَكُمْ } الله تعالى بتلك الصلاة والعناية، وإنما لم يقل ليخرجاكم لئلا يكون للملائكة منةٌ عليهم بالإخراج، ولأنهم لا يقدرون على ذلـــك لأن الله هو الهادي في الحقيقة لا غير.

{ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } والظلمة عدم النور، ويعبر بها عن الجهـــل، والشـــرك، والفســـق، والمعصية، والضلالة، والبشرية وصفاتها { إِلَى } نور العلم والتوحيد والطاعة واليقين والهـــدى والروحانية وصفاتها والربوبية بجذبات تجلي ذاته وصفاته. والمعنى برحمة الله وبسبب دعاء الملائكة واستغفارهم فزتم بالمقصود، ونلتم الشهود، وتنورتم بنور الشريعة، وتحققتم بسر الحقيقة.

قوله: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } أي واسع الرحمة بالمؤمنين حيث يقبل القليل مـــن أعمـــالهم ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم في إيمانهم والمعنى { وَكَانَ } في الأزل قبل إيجاد الملائكة المقربين { بِالْمُؤْمِنِينَ } بكافتهم قبل وجوداتهم العينية { رَحِيماً } ولذلك فعل بهم ما فعـــل مـــن الاعتناء بصلاحهم بالذات وبواسطة الملائكة فلا تتغير رحمته بتغير أحوال مَنْ سَعِدَ في الأزل.

أقول: الذين يفهمون عن الله تعالى جل جلاله يخافون من الأزل لأن علم الله ومشيئته لا تـــتغير وذلك كان قبل وجود القوالب ثم بعد دخول الروح لا يعرف أسبقت بهم الرحمة والعناية الأزلية أم الشقاوة والعياذ بالله. وهذا العلم الأزلي يجعل العبد في وَجَلٍ وخَشيةٍ من رب الأرباب تحثه على العمل، والمهم بأن العناية الإلَهية الأزليّة بالنسبة إلينا مجهولة، فبقي علينا التكاليف الشرعية فلا بد أن نتمسك بها وإن سبقت العناية الأزلية بالسعادة، فبها ونِعْمَ، وإن لم توافق، نحن تمسكنا بالشريعة مع القيام بوظيفة العبودية. ليس لنا حقٌ أن نقول لِمَ هذا هكذا؟ ولم ذاك هكذا لأن الخالق هـــو يتصرف في عباده كيف يشاء. الحديث: « كـــل ميســـر لمـــا خلـــق لـــه » وقـــال تعـــالى :

{ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَـــبِ } [الرعد: ٣٩] أي يمحـــو الله الشـــقاوة إذا تعلقت مشيئة الله بمحوها، ولم تكن أزلية. وإذا كانت الشقاوة أزلية ولم تتعلق المشيئة بمحوها تبقى ثابتة.

فالمشيئة لا تتعلق بالحدوث. والمحو والإثبات متصلان بالحدوث، فصفات ذات الحق سبحانه، من كلامه، وعلمه، وقوله وحكمه، لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبـــات مـــن صفات فعله. المحو يرجع إلى العدم، والإثبات إلى الإحداث.

فهو يمحو من قلوب الزهاد حب الدنيا ويثبت بدله الزهد فيها كما في خبر حارثة حيث ســـأل النبي صلى الله عليه وسلّم حارثة فقال: « لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ » قال: عزفـــت نفسي عن الدنيا.

اضطررنا لكتابة هذا الأمر المتعلق بالأزلية، اتركوا على ما كان إن لم تفهموا، تأمل.

أقـــول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » خادم المؤمنين يقول: هذا لأنه جرى علينا ورُبِّينا هكذا، من أراد أن يحسن ما بينه وبين ربه جل وعلا، بعد تصحيح العبادات المفروضة من الصلاة وغيرها. عليه أن يذكر الله جل وعلا. بالقلب والعقل مع الحضور التام، وبسره وبلبه حتى يثبت له نور أمر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم: « أن تعبد الله كأنك تراه » وإذا ثبت لك هذا المعنى ببركة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم، فبها

ونعم، حينذاك تصدِّق القوم، وأما إذا لم يثبت لك، فعليك بالاعتقاد الصحيح والإيمان الغيبي بأن الله يراك.

في كلا الوجهين تذوق معنى قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم عندما سئل عن الإحسان فقال: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

وإذا تذوقت لا يثبت في قلبك غير حب الله بالعبودية. يكون عندك الجوهر والحجر سواء، ولكن هذا ليس رخيصاً. فيمكن أن ينسبك الخلق إلى الجنون عليك أن تقبل، ويمكن أن ينسبوك إلى الجهل فاقبل لأنك جاهل. لا تغتر بنفسك ولا تتمسك بها. كن لله وبالله وتخلَّص من شرها بالله؛ عليك بأخذ الشريعة واذهب قبل أن تذهب، وتفكر في ذاك السفر، بعد الرجوع. وبالنسبة إلى هذا اعمل كما قال تعالى: { لِمِثْلِ هَـذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } [الصافات: ٦١] وقوله تعالى: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين: ٢٦].

اللهم وجه قلوبنا إليك باتباعنا حَبِيبَكَ الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام، ورد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً، حتى ترضى منهم بالشريعة، وبالاتباع للرسول صلى الله عليه وسلّم نرجو رضاك. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [الأحزاب: ٤٩].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى في هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدّب نبيه صلى اللّه عليه وسلّم على ما ذكرناه، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر نبيه المرسل، فكلما ذكر للنبي صلى الله عليه وسلّم مكرمة، وعلمه أدباً، ذكر للمؤمنين ما يناسبه.

فكما بدأ الله بتأديب النبي عليه الصلاة والسلام، بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله: { يا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ }.

وثنى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت يده من أزواجه بقوله بعد: { يا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَِزْوَاجِكَ } وثلث بجانب العامة بقوله: { يا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً } كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً } ثم ثنى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } ثم كما ثلث في تأديب النبي بجانب الأمة، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِىِّ }.

وقد خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذِّكْرِ، حيث فيها إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها، وبيانه أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد. ولهذا قال تعالى في حق الممسوسة: { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً }.

وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليهما بالإفضاء، أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما.

والقرآن الكريم في الحجم صغير، ولكن لو استُنبطت معانيه لا تفي بها الأقلام ولا تكفي لها الأوراق، وهذا مثل قوله: { فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ } [الإسراء: ٢٣] لو قال: لا تضربهما أو لا تشتمهما ظن أنه حرام، أما إذا قال: { فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ } عُلِم منه معان كثيرة، وكذلك ههنا كما أمر بالإحسان مع من لا مودة معها، عُلِم منه الإحسان مع الممسوسة، ومن لم تطلق بعد، ومن ولدت عنده منه.

قوله: { إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } وإنما خص المؤمنات بالذكر مع أنّ الكتابيات يدخلن في الحكم للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة.

{ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ } يمكن التمسك به في أنَّ تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح، لأن التطليق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح، والله تعالى ذَكَرَه بكلمة ثم وهي للتراخي ، { مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ } أي تجامعوهن، والخلوة الصحيحة بها تقوم مقام المساس عند الحنفية وهي أن يخلو بها، من غير أن يكون في أحد الزوجين مانع شرعي، كالإحرام، والصوم الفرض،

والحيض، أو مانع حسي كالمرض، أو مانع عقلي بأن يكون هناك شخص يستحي منه الزوج فلو خلا بها على هذا الوجه، ثم طلقها قبل الدخول بها يجب على الزوج المهر كاملاً وعليهـــا العـــدة احتياطاً.

وأما إذا خلا بها مع أحد الموانع المذكورة ثم طلقها قبل الدخول عليها، فعليه نصف المهر وعليها العدة احتياطاً.

{ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } أيام يتربصن فيها تستوفون عددها أي فما لكم علـــيهن حق في العدة لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم.

{ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً }، { فَمَتِّعُوهُنَّ } أي إن لم تكن مفروضاً لها، فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة وهي سُنَّة.

إن لم تكن مفروضاً لها يعني أن الأمر للوجوب، ولا تجب المتعة إلا لمن لم يسم لها مهر، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هذا إذا لم يكن سمي لها صداق فإنه تجب لهـــا المتعـــة إن طلقت قبل المسيس، وإن كان قد فرض لها صداق، فلها نصف الصداق، ولا متعة لها.

ويجوز أن يؤول التمتع بما يعمهما أول الأمر بالمشترك بين الوجوب والندب، فإن المتعـــة ســـنة للمفروض لها. بأن لا يكون الأمر بالتمتيع مشروطاً بأن لا تكون مفروضاً لها بل يكون في حق من طلقت قبل الدخول مطلقاً، سواء سمي لها أو لم يُسمّ، بأن يؤول قوله: { فَمَتِّعُوهُنَّ } بإعطاء مـــا يستمتعن به، وهو يتناول المتعة المتعارفة ونصف المفروض، أو بأن يحمل الأمر على ما يعم الإيجاب

والندب، فإن من سمِّي لها مهر حين العقد إن طلقت قبل وطء يستحب تمتيعها بشيء زائد علـــى نصف المسمى، والمذكور في كتب الحنفية أن المطلقات أربع:

١ ــ مطلقة لم توطأ ولم يسمَّ لها مهر، فتجب لها المتعة، وهي درع وخمار وملحفة.

٢ ــ ومطلقة لم توطأ وقد سمي لها فهي التي لم تُستحبَ لها المتعة، بل يجب لها نصف المسمى.

٣ ــ ومطلقة قد وطئت ولم يسم لها مهر.

٤ ــ ومطلقة قد وطئت وسمي لها مهر فهاتان يُستحبَ لهما المتعة.

فالحاصل أنه إذا وطئها يستحب لها المتعة سواء سمي لها مهر أو لم يسم لأنه أوحشها بالطلاق بعد ما سَلَّمت إليه المعقود عليه، وهو البضع، فيستحب أن يعطيها شيئاً زائداً على الواجـــب وهـــو المسمى في صورة التسمية، ومهر المثل في صورة عدم التسمية.

وإذا لم يطأها ففي صورة التسمية تأخذ نِصفَ المسمى من غير تسليم البضع، فلا يستحب لهـــا شيء آخر، وفي صورة عدم التسمية تجب المتعة لأنها لم تأخذ شيئاً.

{ وَسَرِّحُوهُنَّ } أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة.

{ سَرَاحاً جَمِيلاً } من غير ضرار ولا منعِ حقٍ ، والجَمَالُ في التسريح ألا يطالبها بما آتاها.

أقــول:

وإذا كانت المطالبة من الله سبحانه وتعالى بالسراح الجميل من غير إضرار ولا إيذاء ولا هضم لحقوقهن فكيف بالتظالم! لذا قال ربنا في الحديث القدسي: « يا عبادي إني حرمت الظلم علـى نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ».

وهذا نص على تحريم أحد نوعي الظلم إذ الظلم: ظلم النفس، وظلم الآخرين؛ فظلم الـنفس بالمعاصـي، وأعظمهـا الشـرك بـالله تعـالى، قـال تعـالى: { إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْـمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣] وقوله: { وَمَـا ظَلَمْنَـاهُمْ وَلَـكِن كَـانُواْ أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ } [النحل: ١١٨] وظلم الآخرين بالقول والفعل مما يشمل نوعي الظلم عن أبي موسى الأشـعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلّم: « إن الله عز وجل ليملي للظالم حتى إذا أخـذه لم يفلته. ثم قرأ { وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَـالِمَةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِـيمٌ شَـدِيدٌ } [هود: ١٠٢] » فهو شامل للظالم لنفسه بالمعاصي على اختلاف مراتبها، وشامل للظالم للآخرين وكذلك حال أهل القرى، منهم الظالم لنفسه، ومنهم الظالم لغيره.

وإن يومَ القيامة يومٌ يكون فيه كمال مظهر العدل الإلَهي: فلن يدخل الجنة مؤمن هو من أهلها ما دام عليه حق لعبد، ولو كان هذا العبد من أهل النار، وفي الحديث القدسي لعبد الله بن أنيس الذي رواه أحمد: « ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وَلِأحدٍ من أهل النار عنده حق حتى أقصّه منه حتى اللطمة ».

فاحذر من الظلم، ولا تظلم أحداً من خلق الله تعالى، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة: { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ } [إبراهيم: ٤٢] **فلا تكن ظالماً لنفسك وللآخرين قال تعالى:** { حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: ١٠٠]، **هذا السؤال في تلك الساعة لا ينفع الظالمين كما أن توبته لا تقبل.**

قال تعالى: { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ } [النساء: ١٨].

نسأل الله أن يحفظنا من شر الظالمين، وأن يجعلنا من أهل الفضل والعناية بحرمة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلّم ،وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُـؤْذِى النَّبِـيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْـأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَـابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً } [الأحزاب: ٥٣].

{ يا أَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ } لما ذكر تعالى هذا النداء الثالث: { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً } [الأحزاب: ٤٥] بياناً لحاله مع أمته العامة، قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبي عليه الصلاة والسلام من الاحترام، ثم إن حال الأمة مع النبي عليه الصلاة والسلام على وجهين:

أحدهما: في حال الخلوة. والواجب عدم إزعاجه وبيّن ذلك بقوله: { لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ }.

ثانيهما: في الملأ. والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْـهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب: ٥٦].

والإضافة للتشريف والتكريم، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه الصلاة والسلام، مراعاة لحقوق نسائه، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه.

{ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين لنضجه ، أي لا تدخلوا بيوت النبي إلى طعام إلا أن يؤذن لكم.

{ وَلَـكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ } ولكن إذا دعيتم وأذن لكم

في الدخول فادخلوا فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا، { وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } معطوف على { غَيْرَ نَاظِرِينَ } أي لا تدخلوا بيوته منتظرين الطعام ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً، قال أبو حيان: نهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به.

لما بين حال النبي صلى الله عليه وسلّم أنه داع إلى الله بقوله: { وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ } [الأحزاب: ٤٦] قال ههنا: لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه.

هذه الآية تضمنت قصتين:

إحداهما: الأدب في أمر الطعام والجلوس. الثانية: أمر الحجاب.

وأما القصة الأولى قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم [متفق عليه] عن أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين، فقدم النبي صلى الله عليه وسلّم المدينة، قال: فكانت أم هانىء تواظبني على خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فخدمته عشر سنين، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأنا ابن عشرين سنة، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش حين أصبح النبي صلى الله عليه وسلّم بها عروساً فدعا القوم، فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهط عند النبي صلى الله عليه وسلّم فأطالوا المكث فقام النبي صلى الله عليه وسلّم فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي صلى الله عليه وسلّم ومشيت معه، حتى جاء عَتَبَةَ حُجْرةِ عائشة رضي الله عنها ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي صلى الله عليه وسلّم ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه، فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلّم بيني وبينه الستر وأنزل الحجاب زاد في رواية: قال: دخل يعني النبي صلى الله عليه وسلّم البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة وهو يقول :{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ } إلى قوله : { وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ } [متفق عليه].

عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلّم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلّم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلّم يفعل فخرجت سودة بنت زمعه زوج النبي صلى الله عليه وسلّم

ليلة من الليالي عشاءً وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصاً علـــى أن يتزل الحجاب فأنزل الله الحجاب [متفق عليه].

المناصع: المواضع الخالية لقضاء الحاجة من البول أو الغائط.

الصعيد: وجه الأرض. الأفيح: الواسع.

عن أنس وابن عمر رضي الله عنهم أن عمر رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث قلت يـــا رسول الله لو اتخدت من مقام إبراهيم مصلى فترلت: { وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } وقلت يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرهن أن يحتجبن فترلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلّم في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فترلت كذلك.

{ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيِّ } أي إنَّ صنيعكم هذا يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلّم ويضايقه ويثقل عليه ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره.

{ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ } أي فيستحي من إخراجكم، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصـــراف لخُلُقِـــه الرفيع وقلبه الرحيم.

{ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ } أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ولا يمنعه مانع من إظهـــار الحق وتبيانه لكم وهذا أدَبٌ أدَّبَ اللهُ به الثقلاء. وفي كتاب الثعلبي: حسبك مـــن الـــثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. أي إن الله لم يحتملهم ، فالله لا يستحي أن يبين لهم فقال: { فَـــإِذَا طَعِمْـــتُمْ فَانْتَشِرُواْ }.

قوله: { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْـــَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ } لما منع الله الناس مـــن دخـــول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام وكان في ذلك تعذر الوصول إلى الماعون، بيَّن أن ذلـــك غـــير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب.

{ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } يعني العين روزنة القلب [الروزنةُ: الكُوَّةُ]، أي برؤية العـــين يتأثر القلب، فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب، أما إن رأت العين فقد يشتهي القلـــب، وقـــد لا يشتهي، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر.

وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، فإن مجانبة ذلـــك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.

أقول: فإن قيل كيف يُظَنّ ظنُّ السوءِ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟

الجواب: الحق تبارك وتعالى نقلهم من مألوف العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبـــادة، وبيَّن أن البشر بشر، وإن كانوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم لأن حرمـــة رســـول الله صلى الله عليه وسلّم أعظم من حرمة الصحابة رضي الله عنهم، وحرمتهم أعظم من حرمة البشر بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام، وغيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم مشار إليها في حديث البخاري كما جاء عن سيدنا سعد بن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وســـلّم قال: « تعجبون من غَيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني » فَلِحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلّم أَدَّبَ الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقولـــه: { وَإِذَا سَـــأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْـــَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } وهم الأطهار الأخيار أهـــل

التقى، كما قال تعالى: { وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا } [الفتح: ٢٦] أَدَّبَهم بذلك ليكونوا قدوة صالحة للبشرية جمعاء في مراعاة الغيرة في نفوس الناس، بل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « بينا أنا نائم رَأيتُني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فذكرت غيرته، فوليت مدبراً » فبكى عمر رضي الله عنه وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟ رواه البخاري.

فإذا كان هذا في حق الصحابة الأطهار رضي الله عنهم فكيف بحالنا؟ فيجب ألا يأمن أحد على نفسه من الرجال والنساء ولهذا شُدِّدَ الأمرُ في الشريعة بأن لا يخلوَ رجل بامرأة ليس بينهما محرمية.

أخرج البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت » الحمو: أقارب الزوج ومعنى قوله: «الحمو الموت» أي فلتمت ولا تفعلن ذلك، هذا إذا كان في أقارب الزوج من أخ وعم وابن عم فكيف بالغريب؟ وفي حديث آخر رواه كذلك البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: « لا يخلونّ أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم ».

وكان عمر رضي الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة وكان يذكره كثيراً، ويود أن يُنْزَلَ فيه، وكان يقول: لو أُطاعُ فيكُنَّ ما رأتْكُنَّ عين.

ثم قال تعالى: { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ } أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته والمعنى وما صح وما استقام لكم أن تفعلوا فعلاً يكرهه ويتأذى به كاللبث والاستئناس بالحديث الذي كنتم تفعلونه وغير ذلك.

وفي الآية تكرار للعلة وتأكيد لحكمها وتأكيد العلل أقوى في الأحكام.

قوله: { وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً } روى إسماعيل بن إسحاق قال قتادة: أن رجلاً قال لو قبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم تزوجت عائشة، فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ } ونزلت: { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } وجعل لهن حكم الأمهات، هذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته صلى الله عليه وسلّم.

قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه صلى الله عليه وسلّم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافراً وقد قيل: إنما منع من التزوج بزوجاته لأنهن أزواجه في الجنة، وإن المرأة في الجنة لآخرِ أزواجها. وقد قال عليه الصلاة والسلام: « زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة ».

قوله: { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً } يعني أن إيذاءه ونكاح نسائه كان ذنباً عظيماً وفيه تعظيم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلّم وإيجاب لحرمته حياً وميتاً ولذلك بالغ في الوعيد عليه.

أقـــول:

إنَّ باستشعارك عظمة الله تبارك وتعالى يكون حجاباً بينك وبين معاصيه، وترك المعاصي مقـــدم على فعل الطاعات، فإذا خَرَجْتَ من المعاصي عملتَ بمقتضى الإيمان، ومن مقتضـــيات الإيمـــان تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومن تعظيمه صلى الله عليه وسلّم متابعتك لـــه ظـــاهراً وباطناً، وليس هناك أثقل على النفوس من اتباعه فيما أمر، فكن على حذر مـــن فتنـــة الـــدنيا والنساء، فالغاية من السلوك مع وراث رسول الله صلى الله عليه وسلّم هـــو اتبـــاع الشـــرع الشريف، والذي يقطعك عن الطريق المستقيم أكل أموال الناس بالباطل، وبسيف الحياء، والنظر إلى النساء والاختلاط بهن. اجعل شرع رسول الله صلى الله عليه وسلّم نصب عينيك، وتمسك به سائلاً المولى لنا ولك حسن الخاتمة.

اللهم منّ علينا بمتابعته صلى الله عليه وسلّم وبترك الهوى، برحمتك يا أرحم الراحمين، وســـلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله علـــى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَـتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَـا الَّـذِينَ ءَامَنُـواْ صَـلُّواْ عَلَيْـهِ وَسَـلِّمُواْ تَسْلِيماً } [الأحزاب: ٥٦].

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَـتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه، احتراماً كمَّل بيان حرمته، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين: حال خلوته، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله { لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ } وحالة يكون في ملأ، والملأ إما الملأ الأعلى، وإما الملأ الأدنى.

أما في الملأ الأعلى: فهو محترم، فإن الله وملائكته يصلون عليه.

وأما في الملأ الأدنى: فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَـلُّواْ عَلَيْـهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } أي إن الله جل وعلا يرحم نبيه ويعظم شأنه ويرفع مقامه، وملائكته الأبـرار يدعون للنبي ويستغفرون له، ويطلبون من الله أن يمجد عبده ورسوله ويُنيله أعلـى المراتـب. والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظـيم لأمره وهذه الآية أعظم الدليل على أنه مهبط الرحمات وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير الـنبي مطلـق الرحمـة

كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاٰئِكَتُهُ } فانظر الفرق بين الصلاتين، والفضل بين المقامين، وبذلك صار منبع الرحمات ومنبع التجليات.

قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقه عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور، فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف (اللهم صلِّ على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً).

عن كعب بن عجرة قلنا يا رسول الله: قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقال: « قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ».

وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلّم تشريفهم بذلك حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم وحقٌ على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته صلى الله عليه وسلم، طلبوا من الله القادر الملك أن يكافئه، وهذا هو السر في قولهم (اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم) وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.

قال الزمخشري: فإن قلت: الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم واجبة أم مندوب إليها؟ قلت: بل واجبة.

وقد اختلفوا في حال وجوبها، فمنهم مـــن أوجبـــها كلمـــا جـــرى ذكـــره وفي الحـــديث: « من ذُكرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليّ فدخل النار فأبعده الله » ويروى أنه قيل له: يا رســـول الله، أرأيت قول الله عز وجل: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَـــتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } فقال النبي صلى الله عليـــه وسلّم: « هذا من العلم المكنون ولولا أُنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعـــالى وكَّـــلَ بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليَّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لـــك، وقـــال الله تعـــالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليَّ إلا قـــال ذلـــك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملكين آمين ».

ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، كما قال في آية السجدة وتشـــميت العاطس، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره.

ومنهم من أوجبها في العمر، وكذلك قال في إظهار الشهادتين والذي يقتضيه الاحتياط، الصلاة عند كل ذكر لما ورد من الأخبار في ذلك.

المسألة الثانية: في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم ثبت عنه صلى الله عليه وســـلّم أنه قال: « من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً » وقال سهل بن عبد الله: الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بهـــا المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك.

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم مِنْ أن يرد ما بينهما.

وروي عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء يحجب دون السماء حتى يُصَلّى على النبي صلى الله عليه وسلّم فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم رفع الدعاء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلّم: « من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب ».

المسألة الثالثة: واختلف العلماء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم في الصلاة، فالذي عليه الجم الغفير والجمهور الكثير، أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها، قال ابن المنذر يستحب ألا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

المسألة الرابعة: قوله: { وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } قال القاضي أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلّم، فأمر أصحابه أن يسلموا عليه، وكذلك من بعدهم أُمِروا أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره صلى الله عليه وسلّم.

وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه، فقلت: إنا لنرى البشرى في وجهك! فقال: « إنه أتاني الملك فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً ».

وروى النسائي عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام ».

قال القشيري: والتسليم قولك: سلام عليك.

أقــول:

جدير بك أن لا تترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، وحاول أن تحافظ على الصلاة عليه صلى الله عليه وسلّم في يومك وليلتك ألف مرة فهو صلى الله عليه وسلّم: { أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [الأحزاب: ٦] فهذا من حقه صلى الله عليه وسلّم علينا لأنه بكثرة الصلاة والسلام عليه مع الحضور التام معه صلى الله عليه وسلّم نعرف شيئاً من قوله: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران: ٣١]، وهذا من خوارق العادات أن يرتب الله تعالى محبته لعباده على اتباع رجل واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويجعل متابعته دليلاً على صدق محبة العبد لله، فإذا لم يوجد الاتباع له صلى الله عليه وسلّم من قِبَلِ العباد، فقد حَرَموا أنفسهم محبة الله تعالى، وكذبوا في ادعاء محبتهم لله تعالى وكذا في محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلّم.

نسأل الله بِمَنِّــه وكرمه أن يكرمنا بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله صــلى الله عليــه وسلّم، وأن يوفقنا لاتباعه قلباً، وروحاً، وسراً، وظاهراً وباطناً، إنه على ما يشاء قدير، وســلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله علــى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَى فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً} [الأحزاب: ٦٩].

لّما بين الله تعالى أن من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاءٍ هو كفــر، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاءٍ هو دونه وهو لا يورث كفراً، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي صلى الله عليه وسلّم وبحكمه بالفيء لبعض وغير ذلك.

فقال { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَى } واختلف الناس فيم أوذي به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم وسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فحكى النقاش أن أذيتهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم، قولهم: زيد بن محمد، وقال أبو وائل: أذيته أنه صلى الله عليه وسلّم قسم قَسْماً. فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلّم فغضب وقال : « رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك » وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالاْخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً }.

فقد اختلف العلماء في أذية الله فقال الجمهور: معناه بالكفر، ونسبة الصاحبة، والولد والشريك إليه، ووصْفه بما لا يليق كقول اليهود لعنهم الله { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ } والنصارى : { وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } والمشركون: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه.

وأما أذية رسول الله صلى الله عليه وسلّم فهي كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال وأما قولهم: (فساحر، شاعر، كاهن، مجنون).

وأما فعلهم فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد، وبمكة إلقاء السلى [السلى: جلدة فيها الولد من الناس والمواشي ويطلق عليها عند الإنسان المشيمة] على ظهره صلى الله عليه وسلّم وهو ساجد.

{ كَالَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَى } وحديث إيذاء موسى مختلف فيه، قال بعضهم: وهو إيـــذاؤهم إيـــاه بنسبته إلى عيب في بدنه، وقال بعضهم: إن قارون قرّر مع امرأة فاحشة حتى تقول عنـــد بـــني إسرائيل إن موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها أنها صدقت ولم تقل ما لقنت به وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كافٍ وهو أنهم قالوا له: { فَاذْهَـــبْ أَنـــتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ } [المائدة: ٢٤] وقولهم : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } [البقرة: ٥٥]، وقولهم: { لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ } [البقرة: ٦١]، إلى غير ذلك فقال للمؤمنين: لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى القتال أي لا تقولوا: { فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّـــكَ فَقَاتِلاَ } ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه وإذا أمركم الرسول بشيء فاتوا منه ما استطعتم.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قـــال: إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه مـــن بـــني إسرائيل فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أُدْرةٍ ــ انتفاخ الخصية ــ وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجـــر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصـــاه وطلـــب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى مر على ملأٍ من بني إسرائيل فرأوه أحسن مـــا خلق الله عرياناً، وأبرأه الله مما يقولون.

{ فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ } والمراد به مدلوله بتبرئة الله تعالى إياه من ذلك وإظهار براءَتـــه عليـــه الصلاة والسلام منه، وكذبهم فيما أسندوه إليه لأن المرتب على أذاهم ظهور براءَته لا براءَتُه لأنها مقدمة عليه.

{ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً } كان ذا جاه ومنزلة عنده عز وجل، وأخرج ابن حاتم عن الحسن أنه قال: وجيهاً مستجاب الدعوة وزاد بعضهم ما سأل شيئاً إلا أعطي إلا الرؤية في الدنيا، ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع رفعة القَدْرِ.

أقـــول:

إن دليل محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، اتباعك له صلى الله عليه وسلّم، ظاهراً وباطناً مع التسليم الكامل، وأن تترك هواك وتتابع النبي صلى الله عليه وسلّم لأن اتباع الهوى من أخطر الأمور على المؤمن، وأَشدُّه أن تؤيد هواك بالحجة الشرعية، فإذا ما تركت هواك واتبعت الـــنبي صلى الله عليه وسلّم فلا تطلب مكانة ولا وجاهة عند الخلق، إن فعلت ذلك أكلت الدنيا بدينك والعياذ بالله.

اطلب من الله القبول؛ فإذا قبلك الله تعالى كنت عنده وجيهاً ويلقى لك القبول في الأرض وفي السماء، نسأل الله أن يكرمنا بمقام العبودية إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: ٧١].

قال في الكشاف وهذه الآية يعني: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } إلى آخرها مُقرِّرَةٌ للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع إتْبَاعِ النهي ما يتضمن الوعيد من قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن وَصْفَهُ بوجاهته عند الله تعالى متضمن أنه تعالى انتقم له ممن آذاه، وإتْبَاعُ الأمرِ الوعدَ البليغَ فيقوى الصارفُ عن الأذى والداعي إلى تركه فلا تغفل.

إنه تعالى أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال، وأما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق، لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله. ومن قال الصدق قال قولاً سديداً(١) أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله. قولاً قاصداً غير جائرٍ، حقاً غير باطل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صواباً. وقال قتادة ومقاتل: قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد ولا تنسبوا النبي صلى الله عليه وسلّم إلى ما لا يحل. قال عكرمة وابن عباس رضي الله عنهم القول السداد لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهرُه باطنَه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره. وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين. وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض. والقول السداد يعم الخيرات؛ فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك.

{ اتَّقُواْ اللَّهَ } في رعاية حقوقه وحقوق عباده، فمن الأول الامتثال لأمره، ومن الثاني ترك الأذى لا سيما في حق رسول الله صلى الله عليه وسلّم. قال الواسطي: التقوى على أربعة أوجه:

١ ـ للعامة ترك الشرك: أي الرياء في الأعمال كما في قوله تعالى: { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا }.

٢ـ للخاصة تقوى المعاصي.

٣ ـ للخاص من الأولياء تقوى التوصل بالأفعال.

٤ ـ للأنبياء تقواهم منه إليه.

يقول الله تعالى آمراً عباده بتقواه وأن يعبدوه عبادة مَنْ كأنه يراه وأن يقولوا قولاً سديداً مستقيماً لا عوج فيه ولا انحراف.

عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم صلاة الظهـــر، فلمـــا انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال: « إن الله أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال: « إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً » وقال ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما قام رسول الله صلى الله عليه وســـلّم على المنبر إلا سمعته يقول: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }.

قوله تعالى: { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } لقد وعدهم الله على الأمرين بقوله : { اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } بأمرين:

١ ــ على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن تقوى الله يصلح العمل، والعمل الصالح يرفع ويبقى، فيبقى فاعله خالداً في الجنة.

٢ ــ على القول السديد بمغفرة الذنوب أي يعف لكم عن ذنوبكم كما أنه يغفـــر الـــذنوب الماضية، وما قد يقع في المستقبل يلهمهم التوبة منها.

وفي الآية إشارة أن من وفقه الله لصالح الأعمال فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه.

قوله تعالى: { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } فطاعة الله هي طاعة الرسول صلى الله عليه وسلّم ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع، فإنه إنْ يفعله الواحد اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يداً { فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } أي جعله عظيماً من وجهين:

أحدهما: أنه نجا من عذاب عظيم، والنجاة من العذاب تَعظُمُ بِعِظَمِ العذاب حتى إن من أراد أن يضرب غيره سوطاً، ثم نجا منه، لا يقال: فاز فوزاً عظيماً، لأن العذاب الذي نجا منه لو وقع مـــا كان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً.

ثانيهما: أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الأبدي الدائم ، وظفر بالكرامة العظمى من الله ، وعاش في الدنيا محموداً وفي الآخرة مسعوداً، ونجا من كل ما يخاف ووصل إلى كل ما يرجـــو ، وذلك لأنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

اعلم أن طاعة الله في تحصيل مراتب التوحيد، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلّم بالاستمساك بحبل الشريعة، فإن النجاة من بحر الجحود وظلمة الشرك، إما بنور الكشف، أو بسفينة الشريعة.

أما الأول: فهو أن يعتصم الطالب في طلبه بالله حتى يهتدي إليه بنوره ويؤتيه الله العلم من لدنه.

أما الثاني: فهو أن يكتفي بالإقرار بالوحدانية والإيمان التقليدي والعمل بظواهر الشرع.

روي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لما راعى الشريعة بين جماعة كشفوا العورة في الحمام قيل له في المنام: إن الله جعلك للناس إماماً برعايتك الشريعة.

أقـــول:

اجعل الشريعة نصب عينيك، خذ كتاب الله بيدٍ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم باليـــد الثانية، واجعل لسانك رطباً بذكر الله تعالى، ولا تلتفت إلى الخلق مدحاً ولا ذماً، تكن عنـــد الله وجيهاً، ويصلح لك عملك، ويغفر لك ذنبك، وإن شاء الله تعالى تضمن لنفسك حسن الخاتمـــة،

واحذر الانحراف عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلّم، لأن من انحرف فهو محروم ولا يشم رائحة الحقيقة، وليس هناك مرتبة أعلى من التمسك بالشريعة، عليك بالتقوى، وبكثرة الذكر تسعد إن شاء الله تعالى.

اللهم وفقنا لذلك بحرمة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلّم، وبحرمة وراثه الكرام آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:٧] .

بينت هذه الآية طريق العزة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين وذلك بالتمسك بشريعته، وبنصرة دينه فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ } وفي نصر الله وجوه:

الأول: أن تنصروا دين الله وطريقه (أي شريعته).

الثاني: أن تنصروا حزب الله وفريقه.

الثالث: المراد نصرة الله حقيقة، فنقول:

النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله، وإفناء من اختار الإشراك بجهله، فمن حقق نصرة الله فقد حقق مطلوبه، لا تقل حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره، ومطلوبه عند أهل السنة والجماعة غير مراده، فإنه تعالى طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع.

أقول مثلاً: كما أن العبد يعصي سيِّدَه فيضربه سيِّدُه والعبد يشكوه إلى القاضي يقول: ضربني سيدي بدون ذنب، والقاضي يحضِرُ السيدَ ويسأله عن ذاك الضرب بدون ذنب فيقـول سـيده للحاكم: هو يعصيني وأنا أمامك آمره فإن ائتمر بأمري فهو محق، وقال للعبد: أسرج فرسي مثلاً، فأبى العبد ولكن السيد ليس مطلوبه أن يأتمر بأمره، مطلوبه أن لا يقبل أمره؛ وإذا ائتمر العبد بأمر سيده يكون السيد تجاه القاضي ظالماً والسيد لا يريد هذا، ومع عدم إرادته يأمره، هذا الفرق بين مطلوبه وأمره.

فالمؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدّامه.

واعلم أن النصرة على وجهين:

الأول: نصرة العبد: وذلك بإيضاح دلائل الدين، وإزالة شبهة القاصرين، وشرح أحكامه وفرائضه وسننه وحلاله وحرامه والعمل بها، ثم الغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله، وقمع أعداء الدين إما حقيقةً، كمباشرة المحاربة بنفسه، وإما حكماً، بتكثير سواد المجاهدين بالوقوف تحت لوائهم، أو بالدعاء لنصرة المسلمين وخذلان الكافرين، ثم بالجهاد الأكبر بأن يكون عوناً لله على النفس حتى يصرعها ويقتلها فلا يبقى من هواها أثر.

الثاني: نصرة الله تعالى: وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار الآيات والمعجزات وتبيين السبل إلى النعيم والجحيم وحضرة الكريم، والأمر بالجهاد الأصغر والأكبر والتوفيق للسعي فيهما طلباً لرضاه لا تبعاً لهواه، وبإظهاره على أعداء الدين وقهرهم في إعلاء كلمة الله العليا وإيتاء رشده في إفناء وجوده الفاني في الوجود الباقي بتجلي صفات جماله وجلاله.

{ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } ينصركم على الكفار، وقال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم الله ويثبت أقدامكم أي عند القتال. وقيل: على الإسلام. والمراد تثبيت القلوب بالأمن فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب وقيل: على الصراط فقد جاء في الحديث: « من بلّغ ذا سلطان حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغها ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة » قوله (يثبتكم في المعترك) أشار به إلى التجوز في قوله أقدامكم فالمراد بها: الذوات بتمامها وعبّر عنها بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها.

قال بعض الكبار زلل الأقدام بثلاثة أشياء:

١ ــ بشرك السر لمواهب الله تعالى.

٢ ــ الخوف من غير الله عز وجل.

٣ ــ الأمل بغير الله سبحانه وتعالى.

وثبات الأقدام بثلاثة أشياء:

١ ــ بدوام رؤية المفضل، والشكر على النعم ورؤية التقصير في جميع الأحوال.

٢ ــ الخوف منه تبارك وتعالى.

٣ ــ السكون إلى ضمان الله فيما ضمن من غير انزعاج ولا احتياج، فعلى العاقل نصرة الدين على مقتضى العهد المتين.

ويثبت أقدامكم بإدامة التوفيق لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين.

أقــول:

أَجْرِ الأحكام الشرعية على جوارحك الظاهرة والباطنة، وكن ناصراً وغالباً وقاهراً نفسك حتى يموت هواك، وتكون عبداً لربك وتكون معه قالاً، وحالاً، وفعلاً، فتكون ناصراً للــدين فتفيــد المؤمنين بحالك، ولذا يقولون: حال رجل في ألف رجل، أفضل من قال ألف رجل في رجل، لأن المسلم مُقْدِمٌ إلى الأبد، ولا بد من اكتساب مؤونة الأبد، ألا وهي التقوى، كالمسافر الذي يتزود

بمؤونة المال والطعام في سفره من مكان إلى آخر في دنياه، ولا تُغرَّ بهذه الحياة الفانيـــة، واجعـــل دنياك مزرعة للآخرة.

عليك أن تكتسب زاد الآخرة منها بالتقوى والمجاهدات، من لم يقدر أن يكون منتصـــراً علـــى نفسه لا يمكن أن ينصر غيره، إذا لم ينتصر على نفسه، ولم يصلحها كيف ينصر غيره؟! وبالنصرة على النفس تتحقق نصرة الدين، والإفادة لعباد الله، أي من استطاع أن ينتصر علـــى نفســـه، ويصلحها يمكن له أن ينصر دين الله بتوجيه المؤمنين إلى دين الله وإلى إطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بصدق وإخلاص.

نسأل الله تعالى التوفيق لذلك آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ }**[محمد: ٣٣].**

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } أي امتثلوا أوامر الله وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلّم في العقائد والشرائع كلها فلا تشاقوا الله ورسوله في شيء منها إذ طاعة الله تحمل على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلّم { مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النســاء: ٨٠] وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم كأنه تعالى قال: يا أيها الذين علمتم الحق فافعلوا الخير ، وذلك أنه لما ذكر في الآيات التي قبلها أحوال الكفار ومخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم وبالجملة فهذه السورة اشتملت على ذكر أوصاف المؤمنين والكافرين على أحسن ترتيب.

قوله تعالى: { وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ } بالمعاصي مثلاً أي:

كالردة: فإنها تبطل جميع الأعمال الصالحة من أصلها.

والعجب والرياء: فإنهما يبطلان ثواب الأعمال.

والمن والأذى: فإنهما يبطلان ثواب الصدقات، والمن مذموم إلا من الله على عباده فلا تبطلــوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى وغيرها وليس فيــه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر أي على بطلانها بضياع ثوابها، بسبب ارتكاب الكبائر، وذلك لأن عطف قوله { وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ } على الإطاعتين وإن كان من قبيل عطف المسبب علــى السبب كقولك اجلس واسترح، وقم وامش، وفُهم منه أن الإطاعة سبب لعدم إحباط الأعمال، وأن المخالفة سبب لإحباطها إلا أنه ليس فيه دلالة على أنّ المخالفة بارتكاب الكبــائر مطلقــاً

يحبطها، وقد ثبت بقوله: { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨].

إن ما دون الشرك لا يحبط العمل بل الأمر فيه منوط بمشيئة الله تعالى، فلا وجه للقطع بأن ارتكاب الكبائر مطلقاً يبطل العمل وإنما يجزم بإحباط ما يَثْبُتُ كونه محبطاً بالنصوص القاطعة والآثار الصحيحة، وهو الكفر والنفاق، وقد ورد أن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وورد في الحديث القدسي في حق السمعة والرياء: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن أشرك بي غيري في عملٍ عمله لي تركته وشركه ». وثبت به أن الإخلاص شرط لقبول العمل وما وقع منه رياء وسمعة فهو مردود على صاحبه وما لم يقبل ابتداءً لا يكون عملاً، فكيف يحبط؟!

وقد ورد في حق المن والأذى أنهما يبطلان الصدقة، فإن صاحب المن كأنه يقول في امتنانه: فعلت هذا لأجلك، وقصدت به إصلاح حالك، ولولا ذلك لما فعلته، وهذا منافٍ للإخلاص، فلهذا لا يثاب على صدقته، ويقال له: اطلب جزاءك ممن فعلته لأجله، ولا يقبل الله تعالى إلا ما كان خالصاً له.

وعن مقاتل أنه قال: أن أسداً وخزيمة أتوا النبي صلى الله عليه وسلّم فأسلموا وقالوا: أتيناك بأولادنا وتركنا أموالنا وعشائرنا، وإن العرب لم يؤمنوا بك إلا من بعد ما قاتلوك، ولم نقاتلك، فلنا عليك منة، فنزل قوله تعالى: { وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ } أي بالمنّ.

وقالت المعتزلة: الكبيرة تحبط الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر، فلهذا فسر الزمخشري هذه الآية بقوله أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر.

وذهب أهل السنة إلى أن كل عمل صدر من أهله مستجمعاً لجميع أركانه وشرائطه، فارتكاب الكبائر لا يحبطه ولا يزيل ثوابه، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [النساء: ٤٠] { وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة: ٨] ولا يُحبَط العمل بعد استكمال أركانه وشَرائِطِ صِحَّتِهِ وقبوله، إذ لا دليل عليه عقلاً ولا نقلاً. وإن أرادوا بإحباط الكبيرةِ الحسنةَ، أن المؤمن يرى ثواب حسناته كما يرى عقاب سيئاته، إلا أنه قد تكثر السيئات على الحسنات عند الموازنة، فلا يبقى في حسناته ما يعادل تلك السيئات ولا من ثواب حسناته ما يقابل عقاب السيئات، فحينئذ يصدق أن يقال: إن سيئاته أحبطت ثواب حسناته، بمعنى أنه لم يبق من ثواب الحسنات ما يدفع عقوبة السيئات، فنحن نقول بهذا المعنى وليس النزاع فيه فلا تبطلوا أعمالكم بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله.

وفي الاية إشارة إلى أن كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله فهو باطل لم يكن له ثمرة، لأنه صدر عن الطبع، والطبع ظلماني، وإنما جاء الشرع وهو نوراني ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع فيكون مثمراً وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور، أي من ظلمات الطبع إلى نور الحق فعليك بالإطاعة، واستعمال الشريعة وإياك والمخالفة والإهمال.

أقــول:

رأس كل العبادات الإخلاص، والبناء على الصحيح صحيح، والبناء علـى الفاسـد فاسـد، والإخلاص محله القلب، فلا بد من تفتيش القلب عن إرادته بالكلية، فإن وجـد فيـه خـلاف الإخلاص وجب رميه، لأن العبد قد يقوم بالعبادات، وتكون في شبحها موافقة للشرع، ونحـن نقول صلى، وصام، وذكر، وأمر، ونهى، ولكن ماذا ينفعه ذلك إذا فقد من تلك الأعمال روحها، وروحها سر الإخلاص فيها. فلا بد لك أيها التقي من صحبة الصادقين حتى يسري إليك سرهم، فالجليس متأثر من جليسه، ولو لم يكن ذلك لما قال ربنا جل وعلا: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُـواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: ١١٩] نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتمسـكين بأذيـال الصادقين الصديقين لنفوز بسعادة الدارين، إنه على كل شيء قدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّـهَ سَـمِيعٌ عَلِـيمٌ } [الحجرات: ١].

هذه السورة الكريمة مدنية، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقـائق التربيـة الخالدة، وأسس المدنيّة الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين سورة الأخلاق.

ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين تجاه شريعة الله وأمر رسـوله، وهو ألا يبرموا أمراً، أو يبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلّم حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة.

فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ذكر الله تعالى هذه اللفظة { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } في هذه السورة خمس مرات، اعتناء بشأن المؤمنين من الأوامر والنواهي نظير خطابات لقمان لابن { يَا بُنَيَّ } ولئلا يتوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب أولاً، وذكر { يا أَيُّهَا النَّاسُ } مرة واحدة خطاباً لما يعم المؤمن والكافر لمناسبة ما يترتب عليه من قوله تعالى : { إِنَّـا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى }.

وقد جمعت هذه السورة آداباً ظاهرية وباطنية، عامة وخاصة، فهي متضمنة طريقة الصوفية التي من تمسك بها وصل. ثم أَتْبَعَ النداء بالأمر ، وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المؤمنين المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير، يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصـــفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه، ورادعٌ عن الإخلال به.

قوله: { لاَ تُقَدِّمُواْ } أي يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، لا تقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه صلى الله عليه وسلّم لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عبـــاس رضي الله عنهما: نهوا أن يتكلموا بين يدي الله ورسوله وقال الضحاك: لا تقضوا أمـــراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، ومن قدّم قوله أو فعله على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقد قدّمه على الله تعالى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلّم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل لأن التقدم بـــين يدي المرء خروج عن صفة المتابعة، وإشعار بالاستقلال في الأمر فيكون التقدم بـــين يـــدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم منافياً للإيمان. وهذا النهي مستلزم بالتمسك بالكتاب والسنة حتى يحفظ المرء بهما حدود الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلّم فلا تجعلوا لأنفسكم تقدماً ورأيـــاً عنده.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومعنى الآية لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. يقول الفقير (أي البروسوي): لعله من باب الاكتفاء، والمقصود: ولا تفعلوا خلافهما أيضاً، فإن كلاً منهما مـــن قبيل التقدم لحدود الله وحدود رسوله، وبهذا المعنى في هذه الآية أُلهِمْتُ بين النوم واليقظـــة والله

أعلم. وفي الآية بيان رأفة الله على عباده حيث سماهم المؤمنين مع معصيتهم، فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ }، ولم يقل: يا أيها الذين عصوا، وهذا نداء مدح كما في تفسير أبي الليث.

{ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } فيه فوائد:

أحدها: أن قول القائل فلان بين يدي فلان، إشارة إلى كون كل واحد منهما حاضراً عند الآخر، مع أن لأحدهما علو الشأن، وللآخر درجة العبيد والغلمان، لأن من يجلس بجنب الإنسان يكلفه تقليب الحدقة إليه، وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر، ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك، ولأن اليدين تنبيء عن القدرة، يقول القائل هو بين يدي فلان، أي يقلبه كيف شاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه، وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم وتقديم النفس، لأن من يكون كمتاع يقلبه الإنسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم.

ثانيها: ذِكْر اللهِ إشارةٌ إلى وجوب احترام الرسول صلى الله عليه وسلّم والانقياد لأوامره، وذلك لأن احترام الرسول صلى الله عليه وسلّم قد يُترك على بُعْدِ الْمُرْسِل وعدم اطلاعه على ما يُفْعَلُ برسوله فقال: { بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ } أي أنتم بحضرةٍ مِنَ الله تعالى وهو ناظر إليكم، وفي مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله صلى الله عليه وسلّم.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ } لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يَفعلُ به ما يشاء يكون جديراً بأن يتقيه. والمعنى لا تتقدموا عنده، وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا ؛ بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه، وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام فاتقوا الله في كل ما تأتون وتَذَرون من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما نحن فيه.

{ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }، { سَمِيعٌ } لكل مسموع ومنه أقوالكم { عَلِيمٌ } بكـــل المعلومـــات ومنها أفعالكم ونياتكم وأحوالكم فمن حق المؤمن أن يتقي ويراقب.

فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما في قلوبهم من التقوى والخيانة فلا ينبغي أن يختلف قـــولكم وفعلكم وضمير قلبكم، بل ينبغي أن يتم ما في سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما في علمـــه من فعلكم الظاهر وهو عدم التقدم، وما في قلوبكم من الضمائر وهو التقوى. وفي الآية وعيد لمن حكم بخاطر بغير علم بالفرق بين الإلهام والوسواس ويقول: إنه الحق فالزموه، ومقصوده الريـــاء والسمعة.

ومن شرط المؤمن أن لا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأي الكتاب والسنة. ويدخل في النهي { لاَ تُقَدِّمُواْ } المشي بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء دليله ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: رآني رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمشي أمام أبي بكر رضي الله عنه فقال: « تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة ».

أقـــول:

مراقبة الله تعالى لعباده قديمة { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [النساء: ١]. فكن حارساً على باب قلبك حتى تستوي سريرتك مع علانيتك، وعليك بالصدق لأنّ الصدق يستلزم الرضـــى، أمـــا الرضى من المخلوق فلا يستلزم صدقك فإذا كان ما في قلبك موافقاً لما يجري على لسانك تستفيد في دينك ودنياك، أما إذا كان غير ذلك لا قدر الله، فإن الحجة قائمة عليك ولا تنتظر حكم الغير على صدقك لأنه ليس واقفاً على ما في قلبك يكفيك علم الله فيك { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }.

اللهم وفقنا للاتباع وجنبنا الابتداع، وارزقنا الصدق والإخلاص برحمتك يا أرحم الـــراحمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَــهُ بِـــالْقَوْلِ كَجَهْـــرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَـــئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الحجرات: ٢ـــ ٥].

النداء الثاني من سورة الحجرات: وفيه أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السامي، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التـــوقير والتعظيم والإجلال.

فقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } أي لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي صلى الله عليه وسلّم في الخطاب، وذلك لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام والاحترام.

ففي قوله: { لاَ تُقَدِّمُواْ } نهيٌ عن فعل ينبيء عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله وعند رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالنسبة إليهما وزناً ومقداراً ومدخلاً في أمر من أوامرهما ونواهيهمـــا، وقوله: { لاَ تَرْفَعُواْ } نَهيٌ عن قول ينبيء عن ذلك الأمر لأن من يرفع صوته عند غـــيره يجعـــل لنفسه اعتباراً وعظمة. ما الفائدة في إعادة النداء؟ وما هو النمط من الكلامين على قول القائل؟ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ } و{ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ } نقول: في إعادة النداء فوائد: منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه : { يَا بُنَىَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ }، { يا بُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ }، { يا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ }.

وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار، والمبالغة في الإيقاظ، والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به ، وإشعاراً بأن كل واحد من الكلامين مقصود على حدة لقصد إقبال المخاطب على استماعه، فإنه إذا كان مؤداهما واحداً كما في قولك يا زيد لا تنطق بالباطل، ولا تتكلم إلا بالحق لا يحسن تخلل النداء بينهما، كما يحسن عند اختلاف المطلوب منهما.

أي إذا كلمتم رسول الله صلى الله عليه وسلّم فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها علـــى صـــوت النبي صلى الله عليه وسلّم ولا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍ يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنـــده الكـــلام. وسبب نزول الآية الكريمة: عن ابن أبي مليكة رضي الله عنهما: كاد الخَيِّرانِ أَنْ يَهْلِكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا صوهما عند النبي صلى الله عليه وسلّم حين قدم ركب بني تمـــيم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر، فقال نافع: لا أحفظ اسمه فقال أبـــو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردتَ إلا خلافي، فقال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواهما في ذلك، فأنزل الله عز وجل: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } الآيـــة فقال ابن الزبير: فما كان عمر رضي الله عنه يُسْمِعُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية حتى يَستَفْهِمَهُ رواه البخاري. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أَعْلَمُ لك عِلْمَهُ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر! كان - هذا التفات من الحاضر إلى الغائب والأصل كنت أرفع صوتي - يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلّم فقد حبط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلّم فأخبره أنه قال كذا وكـــذا. فقـــال موسى: -هو ابن أنس أحد رجال سند الحديث - فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: « اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » لفظ البخاري.

وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي قتل له يوم الحرة ثلاثة من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلّم كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلّم. ولما قدم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جزلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد ثم قام حسان بن ثابت فقال أبياتاً فقالوا: خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا، فارتفعت الأصوات فأنزل الله تعالى: { لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ }.

قوله: { وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ } أي لا تخاطبوه يا محمد ويا أحمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله توقيراً له ، واجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم؛ وحافظوا على مراعاة أُبَّهَةِ النبوة وجلالة مقدارها. ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد نزول الآية: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كَأَخِي السِّرار حتى ألقى الله تعالى.

فنهوا عن جهرٍ مخصوصٍ وهو الجهر المماثل لجهرٍ اعتادوه فيما بينهم، لا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلاّ أن يتكلموا بالهمس والمخافتة. والمفهوم من الكشاف في الفرق بينهما في قوله: { لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ }، { وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ }.

أن معنى النهي الأول: أنه عليه الصلاة والسلام إذا نطق ونطقتم، فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم فوق الحد الذي يبلغ إليه صوته عليه الصلاة والسلام، وأن تغضوا من أصواتكم، بحيث يكون صوته عالياً على أصواتكم.

ومعنى النهي الثاني: أنكم إذا كلمتموه عليه الصلاة والسلام وهو ساكت فلا تبلغوا بـالجهر في القول، كالجهر الدائر بينكم، بل لينوا القول ليناً يقارب الهمس الذي يضاد الجهر.

قوله: { أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ }، { أَن تَحْبَطَ } إشارة إلى أنكـم إن رفعـتم أصواتكم وتقدمتم، تتمكمن منكم هذه الرذائل وتؤدي إلى الاستحقار، وأنه يفضي إلى الانفراد والارتداد المحبط.

{ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ } إشارة إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان فـإن مـن ارتكب ذنباً لم يرتكبه في عمره تراه نادماً غاية الندامة، خائفاً غاية الخوف، فإذا ارتكبه مراراً يقل خوفه وندامته، ويصير عادة من حيث لا يعلم أنه لا يتمكن، فقوله: { وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ } تأكيد للمنع أي لا تقولوا بأن المرة الواحدة تُعفى ولا توجب ردة، لأن الأمر غير معلـوم فاحسـموا الباب.

وظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقاً قد تحبط الأعمال، ومذهب أهل السنة أن المُحبِطَ منـها الكفرُ لا غير.

والقاعدة المختارة أن ايذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق. ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهي بالاتفاق: وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلةِ معاندٍ أو إرهابِ عدوٍ أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذٍ أو استهانة له عليه الصلاة والسلام.

ففي الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى المسلمون يوم حنين: «ناد أصحاب السَّمُرَة» فنادى بأعلى صوته، أين أصحاب السمرة، وكان رجلاً صَيِّتاً. ويروى أن غارة أتتهم يوماً، فصاح العباس: يا صباحاه فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

أقول: هذا الإحباط { وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ }، حقيقة عدم الشعور معناه أيحصل الإحبـــاط أم لا؟ هذا معنى، وأنتم لا تشعرون وهو من جهتين:

إما من جهة الرسول صلى الله عليه وسلّم: فإذا فُهِم من كلام المتكلم الإهانة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم لا شك يحصل الإحباط، وهو كفر.

أو من جهة المتكلم: إذا خرج كلامه عن عنادٍ أو نقد على منصبه العظيم صلى الله عليه وسلّم فكلاهما سبب لإحباط العمل.

وإن كان هذا المتكلم خَلْقِيَّتُه وطبيعته الصوت العالي وكان اعتقاده صحيحاً ليس فيـــه نقـــص لتعظيمه صلى الله عليه وسلّم لا يحصل الإحباط وإنما يتكلف خفضه ليكون مناسباً لتوقير الكبراء وكلا الحالتين مشكوك فيهما عند رفع الصوت لا يميز حالة عن أخرى أي ليس هناك دليـــل أن يُمَيَّز العمل المُحْبَطُ من غيره والله أعلم بالصواب فالمراد بهذا الحكم الأدب العام في الكلام بينهم وبين من هو أعلى مرتبة.

وهذا حال ثابت بن قيس دليل على أن رفع صوته لم يحصل به الإحباط وهو لا يشعر، بل بشره رسول الله صلى الله عليه وسلّم بأنه من أهل الجنة كما ذكرت قصته من خلال الآيـــة. وهـــذا الأدب العام عليه أن يتحلى به المؤمن؛ فإذا خاطب بصوت رفيع وكانت هذه خلقيته فلا يـــؤذي

المخاطب، وإذا كان محمولاً بالعناد والنقد والترفع، وشعر به المخاطب واستدل منه على الإهانة فهذا هو المنهي عنه. اللهم حققناً بالأخلاق الإسلامية. كذلك فالإنسان الذي يخالف سنة النبي صلى الله عليه وسلّم بدون قصد ولا إهانة لا يترتب عليه شيء، وإذا ترك قصداً فالحديث « من رغب عن سنتي حرمت عليه شفاعتي ».

{ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلّم أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى، ومرّنها عليها، وجعلها صفة راسخة فيها. قال ابن كثير: أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً.

إن الله عَلِمَ ما في قلوبهم من تقواه، وامتحن قلوبهم للتقوى التي كانت فيها، ولولا أن قلوبهم مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلّم وتقديم نبيه على أنفسهم، بل كان يقول لهم: آمنوا برسولي ولا تؤذوه ولا تكذبوه، فإن الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبي صلى الله عليه وسلّم صادقاً، وبَيْنَ مَنْ قيل له: لا تستهزىء برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه، وبَيْنَ مَنْ قيل له: لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزناً بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه، بون عظيم.

واعلم أن بقدر تقديمك للنبي صلى الله عليه وسلّم على نفسك في الدنيا، يكون تقديم النبي صلى الله عليه وسلّم إياك في العقبى فإنه لن يدخل أحد الجنة ما لم يدخل الله أمته المتقين الجنة.

قوله: { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } أي لهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم وثواب عظيم في جنات النعيم. والمغفرة إزالة السيئات التي هي في الدنيا لازمة للنفس، والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية. ثم ذم تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول صلى الله عليه وسلّم فقال:

{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ } أي يدعونك من وراء الحجرات منازل أزواجك الطاهرات رضي الله عنهن ، وفيه إشارة إلى أنه تركٌ لأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه.

{ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير.

قيل: إن الذي ناداه (عيينه بن حصن) و(الأقرع بن حابس) وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد، فقالا: يا محمد اخرج إلينا.

قوله: { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } أي ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول صلى الله عليه وسلّم بندائهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم، وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة.

{ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم ينزل العقاب بهم وذلك تحقيقاً لأمرين:

أحدهما: لسوء صنيعهم في التعجل، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال: ما أحلم سيده؟ لا لبيان حلمه، بل لبيان عظيم جناية العبد.

ثانيهما: لحسن الصبر يعني بسبب إتيالهم بما هو خير يغفر الله لهم سيئالهم، ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات، كما يقال للآبق إذا رجع إلى باب سيده: أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم، أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة.

فحيث قال: { غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أي يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عارياً محتاجاً فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغموراً في السيئات فيغفر سيئاته، ثم يرحمه بعد المغفرة، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها.

أقول:

حرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم عظيمة عند الله تعالى، فمن تمسك بجنابه الشريف صلى الله عليه وسلّم واتبع سنته بعد التسليم، فإنه يسري إليه من ذلك النور شيء، فمن قوّى ذاك الخيط النوراني بالاتباع في ظاهره وباطنه، فإنه لا يسقط من عناية الله عز وجل، ومن جملة حفظ حرمة النبي صلى الله عليه وسلّم التأدب مع ورّاثه رضي الله عنهم، لأن الأدب مع الوارث من الأدب مع مورثه.

نسأل الله أن يرزقنا الاستقامة، والأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومع أسيادنا رضي الله عنهم في حال حياهم وبعد انتقالهم، إنه على كل شيء قدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ } [الحجرات: ٦].

تنتقل السورة من الأدب الخاص إلى الأدب العام لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخصٍ غير عدلٍ، أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة من الكوارث [الكارثة: الغم الشديد، المصيبة الكبيرة]، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جرّ وبالاً وأحدث انقساماً.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ } إذا أتاكم رجل فاسق غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار فتثبتوا من صحة الخبر.

هذه السورة فيها إرشاد للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلّم، أو مع غيرهما من أبناء الجنس وهم على صنفين، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجاً عنها وهو الفاسق.

والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام:

أحدها: يتعلق بجانب الله تعالى.

ثانيها: يتعلق بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ثالثها: يتعلق بجانب الفاسق.

رابعها: يتعلق بجانب المؤمن الحاضر.

خامسها: يتعلق بجانب المؤمن الغائب.

فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مراتب { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة فقال:

أولاً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } وذِكْرُ الرسول كان لبيان طاعة الله، لأنها لا تُعْلَمُ إلا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

ثانياً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ } لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلّم.

ثالثاً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ } لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم.

رابعاً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ } لبيان وجوب تــرك إيــذاء المــؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم.

خامساً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ } لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته.

وهذا في غاية الحسن من الترتيب.

فإن قيل: لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن الغائب، ثم الفاسق؟

نقول: قدم الله ما هو الأهم على ما دونه فذكر جانب الله ثم جانب الرسول صــلى الله عليــه وسلّم، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كــلام الفاســق، والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نِفَاراً للصدور.

وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حدٍ يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله تعــالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال، فقال: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ }.

وسبب نزول هذه الآية هو أن النبي صلى الله عليه وسلّم بعث الوليد بن عقبة، وهو أخو عثمان لأمه إلى بني المصطلق ولياً ومصدقاً فالتقوه، فظنهم مقاتلين، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وقال: إنهم امتنعوا ومنعوا، فهمَّ الرسول صلى الله عليه وسلّم بالإيقاع بهم، فترلت هذه الآيــة، وأخبر النبي بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً.

قوله تعالى: { إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ } إشارة إلى لطيفة وهي أن المؤمن كان موصوفاً بأنه شديد على الكافر، غليظ عليه فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ، فإن تمكن منه يكون نادراً.

قال الحسن: فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة عامة، مـــا نسخها شيء والخطاب شامل للنبي صلى الله عليه وسلّم والمؤمن في أمته.

والفاسق: الخارج عن حجر الشرع. وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ بـــه ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق؛ فلأنه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة.

قال قتادة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: التثبت من الله، والعجلة من الشيطان لذا فالحكم في الآية عام جاء لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق، وهو أولى من حكم الآية على رجل بعينه، لأن الفسوق خروج عن الحق ولا يُظَنُّ بالوليد ذلك، إلا أنه ظَنَّ وتَوَهَّم فأخطأ.

قوله: { أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ } فعلى هذا يكون معنى الآية إن جاءكم فاسق بنبأ أي بخـــبر فتبينوا أي فتثبتوا أي فتوقفوا واطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق كراهة أن تصيبوا قوماً جاهلين بحالهم فتصيروا مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع.

وفي هذه دلالة على أن الجاهل لا بد أن يصير نادماً على ما فعله بعد زمان فعله، وهو دائم الندم على ما وقع منه مع تمني أنه لم يقع.

لذا إن جاءكم فاسق بخبر يعظم وقعه في القلوب فتعرفوا وتفحصوا حتى يتبين لكم ما جاء بــه أصدق هو أم كذب، ولا تعتمدوا على قوله المجرد لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر.

قوله: { فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم(١)، وفيه فائدتان:

إحداهما: تقرير التحذير وتأكيده، ووجهه هو أنه تعالى لما قال: { أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ } قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا

يجوز للعاقل أن يقول: هب أني أصبت قوماً فماذا علي؟ بل عليكم الهمُّ الدائم والحــزنُ المقــيم ومثل هذا الشيء واجبٌ الاحترازُ منه.

الثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين.

وفي الآية إشارة إلى تسويلات النفس الفاسقة الأمارة بالسوء، ومجيئها كل ساعة بنبأ شهوة من شهوات الدنيا، فتبينوا ربحها وخسرانها من قبل أن تصيبوا قوماً من القلوب، وصفاتها بجهالة مــا فيها من شفاء النفوس وحياتها، ومرض القلوب ومماتها فتصبحوا صباح القيامة وأنتم على ما فعلتم نادمون.

أقـــول:

إذا خالطت الناس فلا تقل إلا حقاً، ولا يجرِ على لسانك كلامٌ والله تبارك وتعالى يعلم خلافه في قلبك، والناس في أحاديثهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يتكلم مع الخلق ولا يراقب إلا الله تعالى، ولا ينظر إلاَّ للشرع الشريف، فـــلا يقول إلا حقاً، ابتغاء مرضاة الله عز وجل ولا يبالي بأحوال الناس سخطوا أم رضوا.

الصنف الثاني: يتكلم مع الخلق ويَصْدُق معهم، بدون مراقبة لله عز وجل، لأنـــه يســـتحي أن يعرف بين الناس كذاباً، فهو يراقب الخلق ويطلب مترلة عندهم.

الصنف الثالث: لا يعرف الحق ولا قوله، فهو يكذب ويتحرى الكذب، ويشعل نار العداوة بين المسلمين ولا يستحي من الله تعالى ومن لم يستح من الله تعالى فمع الخلق من باب أولى.

أيها المؤمن لا تنس قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [النساء: ١].

نرجو الله استقامة القلب واللسان مع استقامة الجوارح، على النهج الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلّم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الحجرات: ١١].

حذرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفَّرتْ من الغيبة. والتجسس والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الابداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخٍ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ويا له من تنفير عجيب.

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ } وقد بينا أن السورة للإرشاد بعد إرشاد، فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع النبي صلى الله عليه وسلّم، ومع من يخالفهما ويعصيهما، وهو الفاسق، بيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً أو غائباً، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه، ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي:

١ ــ السخرية. ٢ ــ اللمز. ٣ ــ النبز.

أما السخرية: وهي أن يحقر الإنسان أخاه، ويستخفه ويسقطه عن درجته ويعده ممن لا يلتفت إليه.

واللمز: أن يُذْكَر في غيبته بما فيه من العيب، وهــذا دون الأول، لأن الســاخر لا يلتفــت إلى المسخور منه، ولا يعده شيئاً، ولا يرضى أن يجريه على لسانه فضلاً عن أن ينسب إليه شيئاً مــن المعايب، بل ينزله منزلة المسخرة الساقطة عن درجة الاعتبار بالكلية، بخلاف اللامز فإنه يلتفت إلى من يلمزه فيجعل فيه شيئاً فيعيبه به.

والنبز: أن يدعو الإنسان أحداً باللقب السوء، وهو دون الثاني، لأن النبز مجرد التسمية بخلاف اللمز فإن اللامز يضيف إلى من يلمزه وصفاً بائناً فيه، يوجب نقصه وحط منزلته ولــيس نســبة مجردة.

واختلف في أسباب نزول هذه الآية.

قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم لِمَا رأوا من رثاثة حالهم فنزلت في الذين آمنوا منهم.

وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير.

وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة.

وبالجملة فينبغي ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحـال، أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته [غير حسن في محادثته، ورجل لبق ولبيق: حاذق رقيق بكل عمل] فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيرِ من وقره الله تعالى، والاستهزاءِ بمن عظَّمه الله. وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرتُ من كلب لخشيت أن أحول كلباً.

{ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ } أي جماعة من جماعة، اختيار الجمع ليس للاحتراز عن سخرية الواحد، بل لبيان الواقع، لأن السخرية وإن كانت بين اثنين إلا أن الغالب أن تقع بمحضر جماعـة يرضـون بهـا ويضحكون بسببها، بدل ما وجب عليهم من النهي والإنكار، فيكونون شركاء الساخر في تحمل الوزر، ويكونون بمنزلة الساخرين حكماً فنهوا عن ذلك.

نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس، كان في أذنه وقر، فكان إذا أتى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقد سبقوه في المجلس وسَّعوا له، حتى يجلس إلى جنبه صلى الله عليه وسلّم ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يومٍ وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي صـلى الله عليـه وسلّم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، وضنّ - بَخِلَ بمكانه ولم يبرحه - كل رجلٍ بمجلسه، فلا يكاد يوسع أحد لأحد، فكان الرجل إذا جاء لا يجد مجلساً ويقوم على رجليه. فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتخطى رقاب الناس وهـو يقـول تفسـحوا تفسحوا، فجعلوا يتفسحون له حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبينه وبينه رجل، فقال: تفسح فلم يفعل، فقال: من هذا فقال له الرجل: أنا فلان فقال: بل أنت ابن فلانة يريد أماً لـه يُعيّرُ بها في الجاهلية فخجل الرسول صلى الله عليه وسلّم ونكس رأسه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

{ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ } فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، الحديث: « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره » حديث صحيح. ذي طمرين: أي ثــوبين باليين. وقيل: { خَيْراً مِّنْهُمْ } معتَــقَداً وأسلم باطناً.

قوله: { وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ } أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر، وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلّم، عَيَّرن أم سلمة بالقِصَــر، وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة، يا نبي الله إنها لقصيرة. وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن صفية بنت حُيي بن أخْطب أتت الرسول صلى الله عليه وسلّم فقالت يا رسول الله، إن النساء يُعيّرنني، ويقلْنَ لي يا يهودية بنت يهوديين! فقال رسول الله صــلى الله عليه وسلّم: «هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد» صلى الله عليــك يــا سيدي يا رسول الله، فأنزل الله هذه الآية.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وهذا حــديث عظــيم، يترتب عليه ألا يُقطع بعيبِ أحد لما يُرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفاً مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال.

ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها عدم الغلوّ في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة، بل تُحتقر وتذم تلك الحالة السيئة لا تلك الذات المسيئة، فتدبر هذا، فإنه نزر دقيق وبالله التوفيق.

قوله تعالى: { وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ }، واللمز: العيب وقال الطبري: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة. وهذه الآية مثل قوله: { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ } أي: لا يقتل بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه يقتل نفسه، والمعنى في الآية ولا يعب بعضكم بعضاً، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض.

وفي قوله: { أَنفُسَكُمْ } تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي للمؤمن أن يعيب غيره لأنه كنفسه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « المؤمنون كجسدٍ واحدٍ إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى ».

وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمّة فتأمّل عيّاباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « يُبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه » وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره.

قوله تعالى: { وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ } ولا يدعُ بعضكم بعضاً بلقب السوء(١) وإنما نزلت هذه الآية في قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نهوا عن أن يدعوا بها بعضهم بعضاً، بما يكره من أسمائه، التي كان يدعى بها في الجاهلية، وعمّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحدٍ من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها.

قوله: { بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الاْيمَانِ } بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان، واشتهارهم به. والمراد به:

إما هجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين، إذ روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالت: إن النساء يقلن لي: يهودية بنت يهوديين... كما ذكر في الحديث.

أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح.

والمعنى بئس الاسم أن تقولوا له: يا يهودي أو يا نصراني، بعدما أسلم، أو يا فاسق بعدما تاب، وقيل: معناه أن من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق.

قوله تعالى: { وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ومن لم يتب عما نهي عنه فأولئك هم الظالمون بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب، والظالم أعم من الفاسق، والفاسق أعم من الكافر.

وفي التأويلات النجمية ومن لم يتب يعني من مقالة إبليس وفعاله، بأن ينظر إلى نفسه بالعجب وإلى غيره بالحقارة، فأولئك هم الظالمون. فيكونون منخرطين في سلك اللعنة والطرد مع إبليس كما قال تعالى: { أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }.

وفيه دلالة بيّنة على أن الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظَلَمَة، فلا بد من توبة نصوح مــن جميع القبائح والمعاصي نهى الله سبحانه وتعالى عن ازدراء الناس، وعن الغيبة، وعــن الاســتهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام.

{ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ } أي لا يَعيبَنَّ بعضُكم بعضاً، كقوله: { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ }، ويقال: ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّط عليه. ولا ينبغي أن يعتبر بظاهر أحوال الناس فإن في الزوايا خبايا. والحق يستر أولياءه في حجاب الضَّعَة « ورُبَّ أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره ».

أقــول:

إن كنت تحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم، لا بد عليك أولاً أن تحب أمة ســيّدنا محمــد صلى الله عليه وسلّم لأنهم كالأولاد لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإذا أحببت أمته صلى الله عليه وسلّم يفرح بك فبحبك إياهم تحصل على محبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإن محبــةَ المؤمنِ المؤمنَ ليست خالية من الإكرام الإلهي، واحذر أن تهجم على من تهجَّم عليك بالشــدة، عليك بالسكوت، وفوض أمرك إلى الله عز وجل: واحذر أن تؤذي أحداً.

اللهم خَلِّقنا بأخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، آمين. وسلام على المرسلين والحمــد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلــى آلــه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } [الحجرات: ١٢].

يقول سبحانه وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليُجْتَنَب كثير منه احتياطاً فقال تعالى:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } وسبب نزولها: نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان إذا غزا أو سافر، ضمّ الرجلَ المحتاجَ إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل، فيهيء لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضم سلمان إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام، ولم يهيء لهما شيئاً، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً؟ قال: لا، غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فاطلب لنا منه طعاماً، فجاء سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسأله طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :

انطلق إلى أسامة بن زيد، وقل له: إن كان عندك فضل طعامٍ وإدامٍ فليعطك، وكان أسامة خازن طعام رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وعلى رحله فأتاه، فقال: ما عندي شيء، فرجع سـلمان إليهما، فأخبرهما؛ فقالا: كان عند أسامة ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فلما رجع، قالوا: لو بعثناك إلى بئر سمحة - بئر غزيرة الماء في المدينة - لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة، ما أمر لهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فلما جـاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، قال لهما: « مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ » قالا: والله يا رسول الله ماتناولنا يومنا هذا لحماً، قال عليه الصلاة والسلام: ظلمتما بأكل لحـم سـلمان وأسامة فنزلت { اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } ذكره الثعلبي.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا (النجش: هو التزايد في تقدير الأشياء إغراءً وتمويهاً) ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانـاً » لفظ البخاري.

قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمـة لا سـبب لهـا يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى: { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتـداءً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصّر ويستمع لتحقق ما وقع من تلك التهمة، فنهى النبي صلى الله عليه وسلّم عن ذلك. وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك

إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فَظَنُّ الفسادِ به والخيانة محرمٌ، بخلاف من اشتُهِرَهُ الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء». عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لا تظننّ بكلمة خرجت مـــن أخيـــك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً) وقال أبو عبد الله: حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم يطوف بالكعبة ويقول: « ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه، وأن يظن به إلا خيراً ».

إن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشح، والعاقل إذا أوقف أموره على اليقين، فقلما يتيقن في أحد عيباً فيلمزه به، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحاً، وفي نفس الأمر لا يكون كذلك، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائي مخطئاً.

وقوله: { كَثِيراً } إخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال النبي صلى الله عليه وســـلّم: « ظُنّوا بالمؤمن خيراً ».

وقوله تعالى: { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كُلَّ مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلكها لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقةٍ، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ.

والمعنى اجتنبوا كثيراً من الظن أي تباعدوا منه، وتنكير { كَثِيراً } ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي قبيل:

أولاً ــ فإن من الظن ما يباح كالظن في الأمور المعاشية.

ثانياًــ ومنه ما يجب كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات، كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعي؛ وحسن الظن بالله.

ثالثاً ــ ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات، وظن السوء بالمؤمنين وعن عائشة مرفوعاً: « من أساء الظن بأخيه، فقد أساء بربه الظن » إن الله تعالى يقول :{ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ }.

والظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم:

فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون عند بلوغه.

والمذموم ضده، بدلالة قوله سبحانه وتعالى: { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } وقوله سبحانه وتعالى: { لَّوْلآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً }، وقوله سبحانه وتعالى: { وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً قَوْماً بُوراً }، وقول النبي صلى الله عليه وسلّم: « إذا كان أحدكم مادحاً أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكي على الله أحداً ».

قوله تعالى: { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم، وفي الحديث: « يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراقم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته» أخرجه الحافظ أبو يعلى.

فلا تجسسوا على بعضكم والتجسس غالباً يطلق على الشر، وأما التحسس يطلق في الخير. { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } إتماماً لما سبق لأنه تعالى لما قال : { اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ } فهم منه أنه المعتبر اليقين فيقول القائل: أنا أكشف فلاناً يعني أعلمه يقيناً، وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب، فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى: ولا تبتغوا الظن، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس.

أقول: يفهم من ظاهر هذه الآية: { اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ }، المفهوم المخالف ابتغوا اليقين وهذا أيضاً منهي عنه، لأنّ المؤمن لا يجوز له أن يبتغي حتى يكشف له عيب المؤمن ويثبت له اليقين.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعسُّ ذات ليلة فنظر إلى مصباح من خلال باب، فاطلع فإذا قوم على شراب فلم يدر كيف يصنع فدخل المسجد فأخرج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وفي رواية فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شَرْبٌ [الشَرْبُ: القوم يشربون] فما ترى؟ فقال: أرى والله أنَّا قد أَتَيْنا ما نهى الله عنه قال الله تعالى: { وَلاَ تَجَسَّسُواْ } وقد تجسسنا، واطلعنا على عورة قوم ستروا دوننا وما كان لنا أن نكشف ستر الله فقال ما أراك إلا قد صدقت فانصرفا.

وقوله تعالى: { وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً } أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه.

{ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ } تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها، بما لا مزيد عليه من التقبيح، أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟

{ فَكَرِهْتُمُوهُ } أي فكما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا الغيبة شرعاً فإن عقوبتها أشد من هذا.

شبه الله تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد.

وفي الآية إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته. وفيه معان:

أحدها: في قوله: { بَّعْضُكُم بَعْضاً } فإنه للعموم في الحقيقة.

ثانيها: الممنوع هو اغتياب المؤمن فقال: { بَّعْضُكُم بَعْضاً } وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيـــه، وكيف لا؟ والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة.

ثالثها: قوله { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً } دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر، وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ، وقال من قبل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } فلا أُخوَّة إلا بين المؤمنين.

رابعها: الحكمة من هذا التشبيه إشارة إلى أن عِرَض الإنسان كَدَمِه ولحمه وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأن عرض المؤمن أشرف من لحمه، فإذا لم يَحْسُنْ من العاقل أكلُ لحوم النـــاس لم يَحْسُنْ منه قرض عرضهم بالطريق الأوْلى؛ لأن ذلك آلم وقوله: { لَحْمَ أَخِيهِ } آكدُ في المنع لأن

العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو فقال: أصدق الأصدقاء من ولدته أمك، فأكل لحمه أقبح ما يكون.

وقوله تعالى: { مَيْتاً } إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال: القولُ في الوجه يؤلم فيحرم، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم، فقال: أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه، وفيه معنى: وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتاً، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة أو لحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي، فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته معدلاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب.

{ فَكَرِهْتُمُوهُ } واغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته، وقد عُرِضَ عليكم الثاني فكرهتموه فاكرهوا الأول.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لما عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم ولحومهم وفي نسخة وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » أخرجه أبو داود.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }، { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، { إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } أي إنه سبحانه وتعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب في توبته :

أولاً ــ أن يقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. ثانياً: أن يشترط الندم على ما فات، ثالثــاً: أن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذن أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسب طاقته لتكون تلك بتلك. وقيل: عليه أن يستحله إلا من الزنى يقول كل ما كان لك علي أريد أن تستحله لي.

وفي الآية لطائف...

منها: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة مرتبة، بيانها هو أنه سبحانه وتعــالى قــال: { اجْتَنِبُواْ كَثِيراً } أي: لا تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناءً على الظن، ثم إذا سألتم على المظنونات، فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لِنَسْتَيْقِنَها قَبلَ ذكرها، ثم إن علمتم منها شيئاً من غير تجسس، فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا، ففي الأول نهى عما لم يعلم، ثمّ نهى عن طلــب ذلك العلم، ثم نهى عن ذكر ما علم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى لم يقل: اجتنبوا أن تقولوا أمراً على خلاف ما تعلمونه، ولا قــال: اجتنبوا الشك، بل أول ما نهى عنه هو القول بالظن، وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب وافتراء، والقول بالشك، والرجم بالغيب سفه وهزء، وهما في غاية القبح، فلم ينه عنه اكتفــاءً بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذي هو دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين، ولذلك قال في الآية: { لاَ يَسْخَرْ }.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى ختم الآيتين بذكر التوبة، فقال في الأولى: { وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } وقال في الأخرى: { إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } لكن في الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله: { لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ } ذكر النفي الذي هو قريب من النهي، وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر في قوله:{ اجْتَنِبُواْ } ذكر الارتياب الذي هو قريب من الأمر.

فائدة: قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول: فلان ظلمني أو غصبني أو ضربني أو قذفني أو أساء إلي؛ ليس بغيبة، وعلماء الأمة على ذلك مجمعةٌ، وقال النبي صلى الله عليه وسلّم في ذلك: «لصاحب الحق مقال»، ومن ذلك الاستفتاء: كقول هند للنبي صلى الله عليه وسلّم: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «نعم فخذي».

وأخيراً انتبه إلى هذه الدقيقة: النفس لا تصدق، والقلب لا يكذب، والتمييز بين النفس والقلب مشكل ومن بقيت عليه من حظوظه بقية ــ وإن قلَّتْ ــ فليس له أن يدَّعي بيان القلب بل هو بنفسه ما دام عليه شيء من نفسه، ويجب أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره.. هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب: (كل الناس أفقه من عمر... امرأة أفقه من عمر).

{ وَلاَ تَجَسَّسُواْ } والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق... فكيف يتفرغ إلى تجسس أحوالهم! وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره!

{ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً } لا تحصل الغِيبَةُ للخلق إلا من الغَيْبة عن الحق.

{ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً } جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأخس الكفار وأقلهم قدراً من يأكل الميتة.. وعزيز رؤية من لا يغتاب أحداً بين يديك.

أقـــول:

اقرأ كتاب أعمالك في الدنيا قبل أن تقرأه في الآخرة، لأن قراءة هذا الكتاب، أمر لا بد منه في الآخرة، قال تعالى: { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَـــمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: ١٤]، هذه القراءة يوم القيامة لا تزيدك إلا حســـرة وندامـــة. ولا ينفعك الندم، أما إذا قرأت الكتاب في الدنيا، وتبت إلى الله من كل المخالفات الشرعية، نقلـــت من حياة الضنك إلى الحياة الطيبة في الدنيا.

فما لك ولعيوب الناس؟! مالك وللسخرية واللمز والنبز؟! مالك وللظن السيء والتجســـس والغيبة؟! وخصوصاً مما يقع به المؤمن من حصائد لسانه، لأنك ستسأل عنه يوم القيامة خصوصاً إذا تعلق بأخيك المؤمن، إذ لا يعفو الله عن ذلك إلا بعد عفو أخيك عنك لأن ذلك حقه عندك، وعفوه هذا مشكوك، لذا عليك أن تستنكف فلا تتكلم على أخيك المسلم بالشك والظن والأخذ بكلام الغير، فيحصل لك من ذلك الشك والظن والسماع غَمٌّ أو ضيقُ صدر، عند ذلك تغلب عليك نفسك، فتهجم عليه فتتجاوز أدبك الشرعي؛ وتَمَسُّكَكَ بالكتاب والسنة وبالتالي تقع في الورطة. فما دامت هذه الورطة أمامك عليك أن تحفظ لسانك، ولا تظنن بالمؤمنين إلا خيراً، وإن سمعت منهم شيئاً قل: الله يسمع قولهم فإن كنتَ مستحقاً ذاك الذي يقولونه فافرح واقبل بهـــذه

النصيحة واعمل بها، وإن كان هذا الوصف ليس فيك فاعف عنهم واصفح والله يعفو عن عباده.

علينا أن نشتغل بربنا لا بأنفسنا فضلاً عن غيرنا.

نسأل الله أن يبصرنا بعيوب أنفسنا، ويوفقنا لمجاهدتها، لنحملها على النهج القويم بحرمة النبي المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الحديد: ٢٨ ــ ٢٩].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ } أي: يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان.

{ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ } أي يعطكم ضعفين من رحمته، { وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ } أي ويجعل لكم في الآخرة نوراً تمشون به على الصراط قال ابن عباس رضي الله عنهما: النـــور هـــو القرآن وقيل: هو الهدى والبيان، أي يجعل لكم ســـبيلاً واضـــحاً في الـــدين تهتـــدون بـــه ، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أي عظيم المغفـــرة واسع الرحمة.

وسبب نزول هذه الآية: عن سعيد بن جبير قال: بعث النبي صلى الله عليه وســـلّم جعفـــراً في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه، فدعاه فاستجاب له وآمن به فلمـــا كـــان عنـــد انصرافه، قال ناس ممن قد آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا، فنأتي هذا الـــنبي فنسلم به (اي نؤمن به ونراه ونتشرف برؤيته)، ونساعد هؤلاء في البحر، فإنّا أعلم بالبحر منهم، فقدموا مع جعفر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلّم، وقد تهيأ النبي صـــلى الله عليـــه وسلّم لوقعة أحد، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، وشدة الحال، استأذنوا النبي صـــلى الله عليه وسلّم قالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة - الفقر -، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا وواسينا المسلمين بها، فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم: { الَّذِينَ ءَاتَيْنَـــهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِـــهِ يُؤْمِنُـــونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَـــئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَـــدْرَؤُنَ بِالْحَسَـــنَةِ السَّـــيِّئَةَ وَمِمَّـــا رَزَقْنَـــاهُمْ يُنفِقُـــونَ } [القصص: ٥٤]، فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين، فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن بقوله تعالى: { يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ } فَخَرُوا على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين أما من

آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا؟ فأنزل الله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ} فجعل لهم أجرهم وزادهم النور والمغفرة ، ثم قال تعالى:

{ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم. و«لا» في قوله: { لِّئَلاَّ } زائدة والمعنى ليعلم. قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة { وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ } أي وإن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه، { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } أي والله واسع الفضل والإحسان.

فالمعنى اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلّم يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله تعالى: { أُوْلَـئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ } ولا يُنْقِصُكُم مِنْ مِثْلِ أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمان لا تُفَرِّقونَ بين أحد من رسله.

وعن ابن زيد { كِفْلَيْنِ } أجر الدنيا والآخرة. والكفلان هما النصيبان المرغوب فيهما بقوله: { رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الأْخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }.

روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه أنه أخبره: أنـــه سمـــع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراةِ التوراةَ، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجـــزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عَجَزوا، فـــأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس فأُعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهـــل الكتاب: أي ربنا، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً؟ قال: قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء ».

وروى البخاري رحمه الله تعالى كذلك عن أبي بردة، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « ثلاثة لهم أجران، رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلّم، والعبد المملوك إذا أدَّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤهـــا فأدبهـــا فأحســـن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » أخرجاه في الصحيحين.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } بعيسى تخصيص الخطاب بهم أحد وجهين للمفسرين، والآخر أنه عـــام لكل من آمن بالرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلّم وعبارة البيضاوي يا أيها الذين آمنوا بالرسل المتقدمة اتقوا الله فيما نهاكم عنه وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلّم { يُؤْتِكُمْ كِفْلَـــيْنِ } نصيبين من رحمته لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلّم وإيمانكم بمن قبله، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام، وقيل: الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وسلّم ا.هـــ، وقوله: (ولا يبعد أن يثابوا..إلخ) من عبارة البيضاوي. لمـــا ورد أن

يقال: إعطاء الكفلين ظاهر في حق من آمن بعيسى عليه السلام، وراعى دينه، إلى أن بُعث نبينـــا محمد صلى الله عليه وسلّم لأنه قد استمر على الدين الحق، إلى أن نسخ، وتبين عنده حقّية الدين الناسخ، وحين تبين له ذلك اتبع الحق الثاني فاستحق بذلك أن يعطى كفلين، بخلاف اليهود فـــإن اليهودية قد انتسخت ببعثة عيسى عليه السلام، فليس اليهود على الدين الحق حين آمنوا بنبينـــا عليه السلام، فكيف يثابون على دينهم السابق، أجاب عنه:

أولاً: بقوله ولا يبعد أن يثابوا.

وثانياً: بأن الخطاب للنصارى وملتهم غير منسوخة قبل ظهور الملّة المحمدية ومعرفتهم بها. وإنما ضعفه قيل: لأنها نزلت فيمن أسلم من اليهود كما ورد في الأحاديث الصحيحة كعبـــد الله بـــن سلام وأضرابه، ولذا بنى تفسيره أولاً عليه ولأنه لا دليل على التخصـــيص هنـــا ا.هــــ زادة وشهاب.

قوله: { يُؤْتِكُمْ } أي يثبكم على اتباعه كفلين نصيبين ضخمين من رحمته يحصناكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فَيُلْقى مَقَدَّمُـــهُ علـــى الكاهل ومُؤَخَّرُه على العُجُزِ، وهذا التحصين لأجل إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلّم، وإيمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الآصار ا.هـــ.

أقـــول:

من عرف فضل الإيمان وقيمته ثبت عليه، وحاول جاهداً أن ينتقل إلى أعلى قمة في هذا الإيمان، ألا وهو إيمان الصديقين، الذين دخلوا دائرة الإيمان الشهودي بعد الإيمان الاعتقادي، فأنت أيها

المؤمن: مؤمن بالله ورسوله إيماناً اعتقادياً، ولكن الغفلة قد تعتريـــك، فتوقعـــك في المخالفـــات الشرعية، عليك أن تقوي هذا الإيمان الاعتقادي لتدخل في الإيمان الشهودي «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا لا يكون إلا بكثرة ذكرك لله تعالى بالحضور التام الدائم. ثم لا بد على المؤمن ألا يبقى ولا يتعلق بالشهود فقط. والمحبون إنما تلـــذذهم بـــذوق الشـــهود، والالتذاذ بالعبدية والأنس به، لأن التلذذ بالعبدية فوق التلذذ بالشهود؛ لأنهم خرجوا من أنفسهم ودنياهم وكذلك من مطلوباتهم الأخروية، إلا أنهم يطلبون الجنة لأن هناك رضى الله عز وجل.

اللهم حققنا بالإيمان اليقيني. لأن مقام العبودية فوق كل المقامات، ألا وهو مقام الصـــديقين: وفوق مقامهم مقام النبوة. لذا خصَّ حضرة الله جل وعلا. نبيه عليه السلام بقوله: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَـــبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف: ١].

نسأل الله تعالى أن يقوي إيماننا، وينقلنا إلى إيمان الصديقين، إكراماً لحضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم وآله وصحبه، وببركة أسيادنا رضي الله عنهم أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلـــى آلـــه وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا۟ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا۟ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [المجادلة: ٩ــ ١٠].

اعلم أن المخاطبين بقوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ } قولين:

أولاً: وذلك لأنا إن حملنا قوله فيما تقدم { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ النَّجْوَى } على اليهود، حملنا في هذه الآية قوله: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ } على المنافقين، أي يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم.

ثانياً: وإن حملنا ذلك على جميع الكفار من اليهود والمنافقين، حملنا هذا على المؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلّم، أتبعه بأن نهى أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقتهم، فقال: { فَلاَ تَتَنَاجَوْا۟ بِالإِثْمِ } وهو ما يقبح مما يخصهم { وَالْعُدْوَانِ } وهو يؤدي إلى ظلم الغير { وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ } وهو ما يكون خلافاً عليه وأمرهم أن، { وَتَنَاجَوْا۟ بِالْبِرِّ } الذي يضاد العدوان { وَالتَّقْوَى } وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ } أي إذا تحدثتم فيما بينكم سراً فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول صلى الله عليه وسلّم. نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل اليهود.

ففي تفسير قوله عن تناجي اليهود { وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ } أي يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلّم، لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين. قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلامات العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول صلى الله عليه وسلّم، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك.

{ وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى } أي وتحدثوا بما فيه خير وطاعة وإحسان نهى الله المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه.

واعلم أن القوم متى تناجوا بما هذه صفته قلّتْ مناجاهم، لأن ما يدعو إلى هذا الكلام يدعو إظهاره، وذلك يقرب من قوله: { لاَّ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } [النساء: ١١٤] وأيضاً فمتى عرفت طريقة الرجل من هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته أحد.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } أي وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كلاً بعمله.

دلت الآية على أن التناجي ليس بمنهي عنه مطلقاً، بل مأمور بـــه في بعــض الوجـــوه إيجابـــاً واستحباباً، على حسب المقام.

إن قيل: كيف يأمر الله بالاتقاء عنه، وهو المولى الرحيم والقرب منه ألذّ المطالب، والأنس بــه أقصى المآرب، فالتقوى توجب الاجتناب، والحشر إليه يستدعي الإقبال إليه؟

يجاب: بأن في الكلام مضافاً إذ التقدير: واتقوا عذاب الله أو قهر الله أو غيرهما.

فإن قيل: إن العبد لو قدر على الخلاص من العذاب والقهر لأسرع إليه، لكنه ليس بقادر عليه، كما قال سبحانه وتعالى: { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }، والأمر إنما يكون بالمقدور لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

أجيب: بأن المراد الاتقاء عن السبب من الذنوب والمعاصي الصادرة عن العبد العاصي، فالمراد: واتقوا ما يفضي إلى عذاب الله ويقتضي قهره في الدارين من الإثم والعدوان ومعصية الرســول صلى الله عليه وسلّم التي هي السبب الموجب لذلك فالمراد النهي عن مباشرة الأسباب والأمــر بالاجتناب عنها.

إن قيل: إن ذلك الاتقاء إنما يكون بتوفيق الله له، فإن وفق العبد له، فلا حاجة إلى الأمر به، وإن لم يُوفقه فلا قدرة له عليه، والأمر إنما يحسن في المقدور.

أجيب: بأنه تعالى علَّمه الحقَ أولاً، ووهب له إرادة جزئية يقدر بها على اختيار شـــيء ثانيـــاً، ووجود الاختيار في الفاعل المختار أمر يطلع عليه كل أحد حتى الصبيان ثالثاً، (وهذه مسألة مهمة متعلقة بالعقيدة).

ثم قال تعالى: { إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }.

أما قوله: { إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ } أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان ليدخل بها الحزن على المؤمنين وإنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله. فالألف واللام في لفظ النجوى لا يمكن أن يكون للاستغراق، لأن في النجوى ما يكون من الله ولله، بل المراد منه المعهود السابق، وهو النجوى بالإثم والعدوان، والمعنى إن الشيطان يحملهم على أن يُقْدِمُوا على تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين، قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا وهزموا، ويقع ذلك في قلوبهم ويحزنون له.

وقوله: { وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } وليس هذا التناجي بضار المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته.

وفيه وجهان: الأول: ليس يضر التناجي بالمؤمنين شيئاً.

الثاني: الشيطان ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله.

وقوله: { بِإِذْنِ اللَّهِ } فقيل: بعلمه وقيل: بِخَلْقه وتقديره للأمراض وأحوال القلب من الحزن والفرح. وقيل: بأن يبين كيفية مناجاة الكفار حتى يزول الغم.

{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } فإن من توكل عليه لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه. فعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون، ولا يبالوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه »(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ومثل التناجي في ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزنه ذلك.

أقــول:

من ذلك كله نعلم أن كل مخالفة هي من النفس لأنها ظلمانية، ومن الشيطان لأنه عدو، فعلى العاقل أن لا يكون ممن باع حظه في الآخرة بشهوة ساعة في الدنيا، وليحارب نفسه بقلة الطعام والكلام والنوم، ولا يعطها شيئاً إلا بأمر الشرع الشريف، وليحارب شيطانه بعدم الإصغاء إليه، وأن يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى، وأن يكون مصدر أمن وأمان للخلق جميعاً، فالمؤمن في مناجاته مع خواص المقربين إليه بالبر والتقوى.

والمؤمن في خلوته يقول: { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيْمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [الحشر: ١٠].

والمؤمن في جلوته مع الناس يَسلَمُ المسلمون من لسانه ويده، فأمر المؤمن كله خير في خلوته وجلوته ومناجاته.

نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة، وأن يهدينا ويسددنا إنه نعم المسؤول وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَـلِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ }، اعلم أن الله تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر، أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة، وقوله تعالى: { تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ } توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض.

{ فِي الْمَجَالِسِ } قال الواحدي: والوجه التوحيد لأن المراد مجلس النبي صلى الله عليه وسلّم وهو واحد، ووجه الجمع أن يجعل لكل جالسٍ مجلسٌ على حدة، أي موضع جلوس، وذكروا في الآية أقوالاً:

القول الأول: أن المراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم كانوا يتضامُّون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه، وعلى هذا القول ذكروا في سبب النزول وجوهاً.

الوجه الأول: قال مقاتل بن حيان: كان صلى الله عليه وسلّم يوم الجمعة في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلّم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلّم، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان، ثُمَّ يا فلان، فلم يزل يقيم بِعِدَّةِ النَّفَرِ الذين هم قيام بين يديه، وشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعُرِفَتْ الكراهيةُ في وجوههم، وطعن المنافقون في ذلك، وقالوا والله ما عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فنزلت هذه الآية يوم الجمعة.

الوجه الثاني: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن الشماس، وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يريد القرب من الرسول صلى الله عليه وسلّم للوَقْرِ الذي كان في أذنيه، فوسعوا له حتى قرب، ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينه كلام، ووصف للرسول صلى الله عليه وسلّم محبة القرب منه ليسمع كلامه، وأن فلاناً لم يفسح له، فنزلت هذه الآية، وأمر القوم بأن يوسعوا ولا يقوم أحد لأحدٍ.

الوجه الثالث: أنهم كانوا يحبون القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكان الرجل منهم يكره أن يُضَيَّقَ عليه فربما سأله أخوه أن يفسح له فيأبى فأمرهم الله تعالى بأن يتعاطفوا ويتحملوا المكروه. وكان فيهم من يكره أن يمسه الفقراء، وكان أهل الصفة يلبسون الصوف ولهم روائح.

القول الثاني: أن المراد تفسحوا في مجالس القتال، وهو كقوله: { مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [آل عمران: ١٢١] وكان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة.

القول الثالث: أن المراد جميع المجالس والمجامع. قال القاضي: والأقرب أن المراد منه مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم. لأنه سبحانه وتعالى ذكر المجلس على وجهٍ يقتضي كونه معهوداً، والمعهود في زمان نزول الآية ليس إلا مجلس الرسول صلى الله عليه وسلّم الذي يعظم التنافس عليه، ومعلوم أن للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من سماع حديثه، ولما فيه من المترلة ولذلك قال صلى الله عليه وسلّم: « لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى ». ولذلك كان يقدم الأفاضل من أصحابه، وكانوا لكثرتهم يتضايقون، فأمروا بالتفسح إذا أمكن، لأن ذلك أدخل في التحبب، وفي الاشتراك في سماع ما لا بد منه في الدين، وإذا صح ذلك في مجلسه، فحال الجهاد ينبغي أن يكون مثله، بل ربما كان أولى لأن الشديد البأس قد يكون متأخراً عن الصف الأول، والحاجة إلى تقدمه ماسة فلا بد من التفسح، ثم يقاس على هذا سائر مجالس العلم والذكر.

قوله تعالى: { يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ } فهو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة، واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية

بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور في قلبه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلّم: « لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه المسلم ».

أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي صلى الله عليه وسلّم ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: والصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه قال صلى الله عليه وسلّم: « من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به » ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه. روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه »، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه، لفظ البخاري، وعلى هذا فالقاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظر فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك، لأن فيه تفويت حظه.

المسألة الثانية: إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع، لما روى: أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلسٍ له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه. وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادة فتبسط له في موضع من المسجد.

المسألة الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إذا قام أحدكم وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ـ ثم رجع إليه فهو أحق به ».

قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ } أي وإذا قيل لكم أيها المؤمنون انهضوا من المجلس وقوموا لتوسعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا. قال في البحر: أمروا أولاً بالتفسح في المجلس، ثم ثانياً بامتثال الأمر فيه إذا أمروا، وألا يجدوا في ذلك غضاضة (مكروهاً) واللفظ يحتمل وجوهاً.

أحدها: إذا قيل لكم قوموا للتوسعة على الداخل فقوموا.

ثانيها: إذا قيل قوموا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولا تطولوا في الكلام فقوموا، ولا تركزوا معه، كما قال { وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىِّ } [الأحزاب: ٥٣].

ثالثها: إذا قيل لكم قوموا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير وتأهبوا له، فاشتغلوا به وتأهبوا له، ولا تتثاقلوا فيه، قال الضحاك وابن زيد: إن قوماً تثاقلوا عن الصلاة فأمروا بالقيام لها إذا نودي،

واعلم أنه تعالى لما نهاهم أولاً عن بعض الأشياء ثم أمرهم ثانياً ببعض الأشياء وعدهم على الطاعات.

فقال تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلّم، والعالمين منهم خاصة درجات، ثم في المراد من هذه الرفعة قولان:

الأول: وهو القول النادر أن المراد به الرفعة في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلّم.

الثاني: وهو القول المشهور أن المراد منه الرفعة في درجات الثواب ومراتب الرضوان.

واعلم أنا أطنبنا في تفسير قوله سبحانه وتعالى: { وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا } [البقرة: ٣١] في فضيلة العلم وقال القاضي: لا شبهة أنّ عِلْمَ العالم يقتضي لطاعته من المترلة ما لا يحصل للمؤمن، ولذلك فإنه يقتدى بالعالم في كل أفعاله، ولا يقتدي بغير العالم، لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات ومحاسبة النفس ما لا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة ما لا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها ما لا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق ما لا يتحفظ منه غيره، وفي الوجوه كثرة، لكنه كما تعظم مترلة أفعاله من الطاعات في درجة الثواب، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيراً منه.

وبيّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان، لا بالسبق إلى صدور المجالس، وفي الحديث: « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه وسلّم: « يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء » فأعظمْ بمترلة هي واسطة بين النبوة والشهادة، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه.

أقــول:

العالم هو الذي يُعَرِّفك أحكام دينك عقيدة وتشريعاً، من أحكام الحلال والحرام، وحقائق الأحكام ويعرفك على الله سبحانه وتعالى، ويوجهك إلى الله سبحانه وتعالى لا إلى نفسه وكلما ازداد العالم علماً ازداد خشية من الله. قال سبحانه وتعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } وقال: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الاْخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الاْلْبَابِ } [الزمر: ٩].

ونُسْأَلُ عن العمل لذا لا بُدَّ علينا أن نتخلق بأخلاق الدين والقرآن، لأن القرآن يأمرنا بدين الحنيفية السمحاء، وأن نسعى أن نخلّص أنفسنا من الأنانية فنؤثر أخانا المؤمن على أنفسنا، ليس في المجلس والتفسح فقط، بل في إيصال الخير إلى كل واحد منهم بقدر الاستطاعة حتى ننال الثناء والمدحة في قوله تعالى: { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }. من ادّعى أنه موافق للشريعة والسنة المطهرة، عليه أن يتمسك بغصنٍ نوراني من أغصان القرآن، حتى يكون من الذين وصفهم الله في كتابه بهذه الأوصاف الحميدة. وكل من ادعى بدون طاعة وتطبيق فدعواه تبقى في

قوله فعليه أن يطبق ما أمر به؛ إن السفينة لا تجري على اليبس. اللهم وفقنا لأن نتمسك بـــالعلم الذي يزيدنا تطبيقاً، وخشية، ومعرفة بالله، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قـــوة إلا بـــالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حكم شرعي: قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ } فقد أورد العلامة ابن كثير عند هـــذه الآية الكريمة (حكم القيام للقادم) فقال رحمه الله: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال:

فمنهم من رخص ذلك محتجاً بحديث: « قوموا إلى سيدكم ».

أقول: هذا مخصص بالجائي لا لمن يقوم له؛ الذي في قلبه محبة قيام الناس له فليتبوأ مقعده مـــن النار، وأما الذين يقومون حرمة إما لعلمه وإما لصلاحه وإما لسنِّه، هذا ليس مذموماً بحق القائم.

ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: « من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار ».

ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لمـــا استقدمه النبي صلى الله عليه وسلّم ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال :« قوموا إلى ســـيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه.

ثم قال: وأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم، وفي السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر المجلس صلى الله عليه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَءَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المجادلة: ١٢ ــ ١٣].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ } أي إذا أردتم محادثته صلى الله عليه وسلّم سراً { فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً } أي فقدموا قبلها صدقة تصدقوا بها على الفقراء. هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد:

أولها: إعظام الرسول صلى الله عليه وسلّم وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره.

ثانيها: نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة قبل المناجاة.

ثالثها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفف عن عن نبيه صلى الله عليه وسلّم، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة.

رابعها: قال مقاتل بن حيان: إن الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي صلى الله عليه وسلّم وأكثروا من مناجاته، حتى كره النبي صلى الله عليه وسلّم طول جلوسهم، فأمر الله سبحانه وتعالى بالصدقة عند المناجاة، فأما الأغنياء فامتنعوا وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً، واشتاقوا إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلّم فعند هذا التكليف ازدادت درجة الفقراء عند الله، وانحطت درجة الأغنياء.

خامسها: يحتمل أن يكون المراد منه التخفيف عليه، لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول صلى الله عليه وسلّم ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة.

سادسها: أنه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا، فإن المال محك الدواعي.

وظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجباً لأن الأمر للوجوب، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية: { فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه.

ومنهم من قال: إن ذلك ما كان واجباً بل مندوباً واحتج بوجهين:

الأول: قوله سبحانه وتعالى: { ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ } وهذا إنما يستعمل للتطوع لا للفرض.

الثاني: أنه لو كان واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به وهو قوله: { أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ }.

والجواب:

الأول: أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر، فالواجب أيضاً يوصف بذلك.

الثاني: أنه لا يلزم في كون الآيتين متصلتين بالتلاوة، كونهما متصلتين بالنزول.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لّما نزلت الآية دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: «ما تقول في دينار» فقلت: لا يطيقونه قال: «كم»؟ قلت: حبة أو شعيرة قال: «إنك لزهيد»، والمعنى إنك قليل المال فقدرت على حسب مالك.

{ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ } اي ذلك التقديم خير لكم في دينكم، وأطهر لأن الصدقة طهرة. أي ذلك التصدق خير لكم أيها المؤمنون من إمساكه وأطهر لأنفسكم من دنس الريبة، ودرن البخل الناشىء من حب المال الذي هو من أعظم حب الدنيا، وهو رأس كل خطيئة.

{ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } فالمراد منه الفقراء، وهذا يدل على أن من لم يجد ما يتصدق به كان معفواً عنه. لأنه لم يكلف إلا القادر منكم.

{ أَءَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ } عتاب للمؤمنين رقيق رفيق. أي أَخِفْتُم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول صلى الله عليه وسلّم؟ والغرض: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بينا، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيراً على المؤمنين ، ومعنى الاستفهام التقرير؛ كان بعضهم ترك المناجـــاة للإشـــفاق لا مخالفة للأمر.

{ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } أي فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به وشق ذلك عليكم، وعفـــا الله عنكم بأن رخص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة. إذ لا وجه لحملها على قبول التوبة حقيقة، إذ لم يقع منهم التقصير في حق هذا الحكم بأن وقعت المناجاة بلا تصدق.

وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم. فقد علم الله ضيق صدر كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل لو دام الوجوب.

وأما قوله تعالى: { وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } يحتمل أنكم إذا كنتم تائبين راجعـــين إلى الله، وأقمـــتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فقد كفاكم هذا التكليف.

{ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ } أي فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكـــاة المفروضـــة، { فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ } ثم إن الصلاة نسبة عالية ومناسبة غالية وخدمة نزيهة، بين العبد وســـلطان الأزل، ومن شأن تلك النسبة أن يعشقها كل روح، وأذكارها متضمنة للأسرار التي شرحها أمثال الفتوحات المكية، فمن شأن تلك الأسرار أن يحبها كل وجدان، وأنها دعـــوة صـــانع الأزل إلى سرادق حضوره خمس دعوات في اليوم والليلة لمناجاته التي هي بحكم المعراج؛ فمـــن شـــأنها أن

يشتاقها كل قلب وفيها إدامة تصور عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها لتأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية وامتثال النظام الرباني والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنه مدني بالطبع فياويل من تركها؛ ويا خسارة من تكاسل فيها؛ ويا جهالة من لم يعرف قيمتها؛ فسحقاً وبعداً وأفاً وتفاً لنفس مِنْ لم يستحسنها.

قوله: { وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ } وَجْهُ النظمِ أنه كما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه كذلك الزكـــاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله ثم إن من الشروط أن تقع الصدقة موقعها اللائـــق، وأن لا يسرف المتصدق فيقعد ملوماً، وأن لا يأخذ من هذا يعطي لذاك بل من مال نفسه، وأنْ لا يمـــن فيستكثر، وأن لا يخاف من الفقر، وأن لا يقتصر على المال بل بالعلم والفكر والعقل أيضاً، وأن لا يصرف الآخذ في السفاهة بل في النفقة والحاجة الضرورية، فلإحسان هذه النكت وإحســـاس هذه الشروط تصدق القرآن على الأفهام بإيثار.

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلّم في جميع أحوالكم. قال المفسرون: نسخ الله ذلك تخفيفاً على العباد حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كـــان ذلك إلا ساعة من نهار والظاهر أنه عشرة أيام ثم نسخ. وقد نَسَخَتْ فَرْضِيَّةُ الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول صـــلى الله عليه وسلّم).

ولا يظن ظان أن عدم عمل غيره من الصحابة رضي الله عنهم بهذا لعدم الإقدام على التصدق كلا. كيف ومن المشهور صدقة أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما بألوف من الدراهم والدنانير مرة واحدة، فهلا يُقْدِمُ مَنْ هذا شأنه على تصدق دينار أو دينارين وكذا غيرهما؟! فلعله لم يقع حال اقتضت النجوى حينئذٍ وهذا لا ينافي الجلوس في مجلسه المبارك والتكلم معه لمصلحة دينية أو دنيوية بدون النجوى إذ المناجاة تكلم خاص، وعدم الخاص لا يقتضي عدم العام.

{ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي محيط بأعمالكم ونيّاتكم. أي عالم بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة، لا يخفى عليه خافية فيجازيكم عليه، فاعملوا ما أمركم به ابتغاء لمرضاته، لا لرياء وسمعة، وتضرعوا إليه خوفاً من عقوباته، خصوصاً بالجماعة يوم الجمعة، ومن الأدعية النبوية: « اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، إنك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور ».

وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالإطاعة العامة، إشارة إلى علو شأنهما فإن الصلاة رئيس الأعمال البدنية، جامعة لجميع أنواع العبادات من القيام والركوع والسجود والقعود، من التعوذ والبسملة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، ومن ذلك سميت صلاة؛ وهي الدعاء لغة.

فهي عِبَادَةُ مَنْ عَبَدَ الله تعالى بها؛ فهو محفوظ بعبادة العابدين من أهل السماوات والأراضين، ومن تركها فهو محروم، فطوبى لأهل الصلاة وويل لتاركها. وإن الزكاة هي أم الأعمال المالية، بها يطهر القلب من دنس البخل، والمال من خبث الحرمة؛ فعلى هذا هي بمعنى الطهارة، وبها ينمو

المال في الدنيا بنفسه، لأنه تعالى { يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَواْ وَيُرْبِى الصَّدَقَــتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ }. وفي الآخرة بأجره لأنه تعالى يضاعف لمن يشاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من تصدق بِعَدْلِ تمرة من كَسْبٍ طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه-كناية عــن حســن القبــول وسرعته - ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل » رواه البخــاري، فَلُوَّه: أي مهره، وهو الصغير من الخيل.

أقــول:

تعظيم حضرة النبي صلى الله عليه وسلّم، هو تعظيم لشعائر الله تعالى، وتعظيم شعائر الله تعالى، من تقوى القلوب، ومن تعظيم حضرة النبي صلى الله عليه وسلّم، اتباع ســنته المطهــرة، لأن التعظيم والاحترام بدون متابعة لا يكفي، ولكن نرجو الله تعالى لمن عظم شعائر الله ـــ وأعظمها رسول الله صلى الله عليه وسلّم ـــ أن يكرم بالاتباع لحضرته صلى الله عليه وســلّم في القــول والعمل والحال، وما ذلك على الله بعزيز.

اللهم أكرمنا بذلك برحمتك يا أرحم الراحمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ } [الحشر: ١٨ ــ ٢٠].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } لما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المنافقين واليهود وما آل إليه أمرهم وذلك في قوله تعالى: { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وعظ المؤمنين بموعظة حسنة تحذيراً من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم وذلك أوقع في النفس.

{ اتَّقُواْ اللَّهَ } يا أيها الذين آمنوا إيماناً خالصاً اتقوا الله في كل ما تأتون وما تذرون، فَتَحَرَّزوا ــ أي توقوا ــ عن العصيان بالطاعة، وتجنبوا عن الكفران بالشكر، وتَوَقَّوا عن النسيان بالذكر، واحذروا عن الاحتجاب عنه بأفعالكم وصفاتكم، بشهود أفعاله وصفاته.

{ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } أي ولتنظر كل نفس ما قدمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة. فاللام لام الأمر، والحكمة في تنكير { نَفْسٌ } الإشارة إلى أن الأنفس الناظرة لمعادها المعتبرة بغيرها قليلة جداً عديمة المثل.

قوله: { مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } المعنى ولتبحث وتحصل نفسٌ العمل الذي قدمته لغدٍ وذلك لأن جميع ما تعمله في الدنيا ترى جزاءه في القيامة فليختر العاقل أي الجزائين، لما ورد في الحديث: « الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ».

{ لِغَدٍ } الغد يوم القيامة سمي غداً لقرب مجيئه قال تعالى: { وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ } فكأنه لقربه شبيه بما ليس بينه وبينه إلا ليلة واحدة. إذ كل آت قريب. والتنكير في غد للتعظيم والإبهام كأنه قيل: لغدٍ لا تعرف النفس كُنْهَ عظمته وهَوْلَه. عن الحسن رحمه الله: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: { كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ }. يريد تقريب الزمان الماضي، أو عبر عنه به لأن الدنيا أي زمانها كيومٍ والآخرة كغده، لاختصاص كُلٍّ منهما بأحوال وأحكام متشابهة.

وإنما كانت الآخرة كالغد لأن الناس في الدنيا نيام ولا انتباه إلا عند الموت الذي هو مقدمة القيامة، كما ورد في الخبر، فكل من الموت والقيامة كالصباح بالنسبة إلى الغافل، كما أن الغد صباحٌ بالنسبة إلى النائم في الليل، ودلّ هذا على أن الدنيا ظلمانية، والآخرة نورانية. فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.

قال الإمام أحمد: عن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار [اجتاب القميص لبسه. والنمار: جمع نَمِرة وهي البردة من صوف تلبسها الأعراب] عليهم بردة أو شملة أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم لِمَا رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن، وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال :

{ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } وقرأ الآية التي في الحشر { وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } « تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، - حتى قال - ولو بشق تمرة »، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ».

وفي الآية أَمرٌ بتقواه.، وهو يَشملُ فِعلَ ما به أَمَر وتركَ ما عنه زجر.

{ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }، {وَاتَّقُواْ اللَّهَ } كرر الأمر بالتقوى تأكيداً. أو يحمل الأول على أداء الواجبات، والثاني على ترك المعاصي. وإشارة إلى أن اللائق بالعبد أن يكون كل أمره مسبوقاً بالتقوى ومختوماً بها. ولبيان مترلة التقوى التي هي وصية الله سبحانه وتعالى للأولين والآخرين: { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ }.

{ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } الخبير المطلع على خفيات الأشياء، القادر على الإخبار بما عجزت عنه المخلوقات بما تعملون من خير وشر ، فيجزيكم يوم الجزاء عليها.

والتقوى: هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وقال بعض الكبار: التقوى وقاية النفس في الدنيا عن ترتب الضرر في الآخرة. فتقوى العامة عن ضرر الأفعال، وتقوى الخاصة عن ضرر الصفات، وتقوى أخص الخواص عن جميع ما سوى الله تعالى. وفي الآية ترغيب في الأعمال الصالحة. وفي الأثر أن ابن آدم إذا مات، قالت الناس: ما خلف؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: دخلت جبانة البصرة، فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت له: كيف حالك؟ وكيف أنت؟ فقال يا مالك: كيف حال من أصبح وأمسى يريد سفراً بعيداً، بلا أهبة ولا استعداد ولا زاد ويقدم على رَبٍّ عَدْلٍ حاكم بين العباد، ثم بكى بكاءً شديداً، فقلت: ما يبكيك؟ قال: والله ما بكيت حرصاً على الدنيا، ولا جزعاً من الموت والبلى، لكن بكيت ليوم مضى من عمري، ولم يحسن فيه عملي، أبكاني والله قلة الزاد وبعد المسافة والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار؟ فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت اغتررت بما اغتر به بنو الدنيا؟ زعم الناس أني مجنون وما بي من جنة، لكن حب مولاي قد خالط قلبي، وجرى بين لحمي ودمي، فأنا من حبه هائم مشغوف، فقلت: يا سعدون فلم لا تجالس الناس ولا تخالطهم؟ فقال: كن من الناس جانباً، وارض بالله صاحباً، قَلِّب الناس كيف شئت تجدهم عقارباً.

{ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }، { وَلاَ تَكُونُواْ } أيها المؤمنون { كَالَّذِينَ } كاليهود والمنافقين { نَسُواْ اللَّهَ } نسوا حقوقه وما قدروه حق قدره، ولم يراعوا مواجب أموره ونواهيه، حق رعايتها { فَأَنسَاهُمْ } بسبب ذلك { أَنفُسَهُمْ } أي جعلهم ناسين لها فلم يسمعوا ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلصها. فيكون المعنى لا تكونوا معشر المؤمنين كالذين تركوا

ذكر الله ومراقبته وطاعته، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان: وهـــذا من المجازاة على الذنب بالذنب، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظ أنفسهم، حتى لم يقدموا له خيراً ينفعها. { فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ } الفاء للسببية، وذَكَرَ للإنساء وجهين:

فالمعنى على الأول: بسبب أنهم نسوا حق الله، خذلهم في الدنيا، وجعلهم ناسين أنفسهم، بحيث لم يسعوا في عمل صالح ينجيها، ولم يجتنبوا عن عمل سيء يرديها، ولم يخلق فيها داعيـــة الاهتمـــام لاستكمالها.

وعلى الثاني: بسبب أنهم نسوا حق الله، أراهم يوم القيامة من الأهوال مانسوا فيه أنفسهم، كما قال تعالى: { لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ }، { وَتَرَى النَّـــاسَ سُكَـــــرَى وَمَـــا هُـــم بِسُكَـــرَى وَلَـــكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }.

{ أُولَـــئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } قال ابن جرير: العاصون. وقال ابن زيد الكاذبون وأصل الفســـق الخروج، أي الذين خرجوا عن طاعة الله. الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم كما قـــال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَـــلْ ذَلِـــكَ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون: ٩].

وقال الحافظ: حدثنا جرير عن عثمان عن نعيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصـــديق رضي الله عنه أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم؟ فمن استطاع أن يقضي الأجـــل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إن قوماً جعلـــوا آجـــالهم

لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَـــهُمْ أَنفُسَهُمْ} أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والســـعادة، وأين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبـــار، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمةٍ، استضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله تعـــالى أثنى على سيدنا زكريا عليه السلام وأهل بيته فقال: { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـــارِعُونَ فِـــى الْخَيْـــرَتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشعِينَ } لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم، هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات، وشيخ جرير بن عثمان وهو نعيم بن نمحة لا أعرفـــه بنفـــي أو إثبات، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ جرير كلهم ثقات. ثم إنه تعالى لما حرض المؤمنين على تقديم ما ينفعهم في الآخرة، وشنع على الذين نسوا حق الله وطاعته بيّن تباعد ما بين الفريقين.

فقال: { لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَـــآئِزُونَ } وأشـــار المصنف (بيضاوي) إلى أن المراد بأصحاب الجنة من استأهل للجنة بملازمـــة طاعـــة الله تعـــالى، والاجتناب عن معصيته. والمراد بأصحاب النار من استحق النار بأن نسي تقوى الله تعالى وطاعته فأنساهم أنفسهم، بأن خذلهم ومنع عنهم توفيقه وعونه.

وعبّر عن الفريقين بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادة في تصوير عدم اســـتوائهما بحســـب الفضائل الأخروية. فإن تباعد ما بين الجنة والنار وعدم استوائهما مما لا يخفى على أحد. فالتعبير عن الفريقين بأصحاب الجنة وأصحاب النار يكون زيادة توضيح لعدم استوائهما يـــوم الـــدين؛

وعَدَمُ استوائهما وإن كان أمراً معلوماً بالضرورة إلا أنه تعالى تعرّض لبيان التفاوت بينهما: تنبيهاً على عظم ذلك الفرق، وترغيباً للمؤمنين في استكمال نفوسهم بملازمة التقوى والطاعة بتنزيلهم منزلة من لا يعرف الفرق بين الجنة والنار والبَوْنَ البعيد بين أصحابهما لعدم جريهم على ما يوجب العلم بإيثار العاجلة واتباع الشهوات. فإن العَالِمَ بالشيء إذا لم يعمل على مقتضى علمه يــنزل منزلة الجاهل فيلقى إليه الكلام الخبري كما تقول لمن يعق أباه هذا أبوك تنزيلاً له منزلة مــن لا يعرف أنه أبوه وترغيباً في رعاية حقه.

{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ } أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبديــة في دار النعــيم وذلك هو الفوز العظيم.

فوائد:

التقوى الأولى: على ذكر العقوبة في الحال، والفكر في العمل خيره وشره.

والتقوى الثانية: تقوى المراقبة والمحاسبة ومن لا محاسبة له في أعماله، ولا مراقبة له في أحواله.. فعن قريب سيُفتَضح.

وعلامة من نظر لغده أن يحسن مراعاة يومه ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله في أمسه. والناس في هذا على أقسام:

القسم الأول: مفكر في أمسه ما الذي قُسم له في الأزل؟

القسم الثاني: مفكر في غده ما الذي يلقاه؟

القسم الثالث: مستقل بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مصطلم [المصطلم: المنقطع] عن شاهده موصولٌ بربه مندرج في مذكوره لأنه أقصى درجات الذكر أن يفنى الذاكر في المذكور لا يتطلع لماضيه ولا لمستقبله فتوقيت الوقت يشغله عن وقته.

ولهذا يقولون: الصوفي ابن وقته. ومعناه أنه مُشتغلٌ بما هو أولى به في الحال، قائمٌ بما هو مطالب به في الحين، مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة.

وأصل كل آفة نسيان الرب، ولولا النسيان لما حصل العصيان، الذي نسي أمر نفسه فهو لا يجتهد في تحصيل توبته، ويسوِّف فيما يُلزِمه به الوقت من طاعته.

أقــول:

اقرأ القرآن الكريم بقوة الإيمان، على أن هذا الكلام كلام ربك جل شأنه، وأنه فوق كلّ كلام حتى فوق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم، واقرأ بتدبر لأنّ التلاوة شيء، والتدبر شيء آخر، وحضور القلب شيء ثالث، وهو مراقبتك لله عز وجل أنك تقرأ كتابه العظيم، وإذا أردت أن تنتفع من هذه القراءة حق الانتفاع، فأكثر من ذكر الله لأنه بكثرة الذكر لله تعالى يكون ذكرك ذكراً، وتلاوتك للقرآن الكريم تلاوة، واستماعك له استماعاً، وصلاتك صلاة.

لا تضيع أوقاتك عبثاً، فأنفاس عمرك جوهرة لا عوض عنها، كن حريصاً على الوقت، ولا تسوف فإن التسويف من الشيطان.

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالذكر وكثرته مع الحضور التام الدائم، بحرمة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلّم، وبحرمة أسيادنا الكرام رضي الله عنهم. إنه على ما يشاء قدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ } [الممتحنة: ١].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ } اعلم أن جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو أنهما يشتركان في بيان حال الرسول صلى الله عليه وسلّم مع الحاضر في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن بعضهم أقدموا على الصلح واعترفوا بصدقه، ومن جملتهم بنو النضير، فإنهم قالوا: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته وصفته في التوراة،

وبعضهم أنكروا ذلك وأقدموا على القتال، إما على التصريح وإما على الإخفاء، فإنهم مع أهـــل الإسلام في الظاهر ومع أهل الكفر في الباطن.

وأما تعلق الأول بالآخر فظاهر، لِمَا أَنَّ آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى (أسماء الله الحسنى) من الوحدانية وغيرها، وأول هذه السورة مشـــتمل علـــى حرمـــة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات.

وسبب نزول هذه الآية: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة العبسي، قال في كشف الأسرار: ولد في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصله من الأزد، وهو حي باليمن، وأعتقه عبيد الله بن حميد بن زهير، الذي قتله عليٌّ رضي الله عنه، يوم بدركافراً، وكان حاطب يبيع الطعام، ومات بالمدينة، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان من المهاجرين، وشهد بدراً وبيعة الرضـــوان، (والمراد بالعدو: كفار قريش) وذلك أنه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلّم لغزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة كتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وســـلّم يريـــدكم فخذوا حذركم، فإنه قد توجه إليكم في جيش كالليل، وأرسل الكتاب مع سارة مولاة بني عبد المطلب، وأعطاها عشرة دنانير وبردة ، وفي رواية جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلّم من مكة إلى المدينة، فقال صلى الله عليه وسلّم: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا، قال: «أمهاجرة جئـــت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: قد ذهب الموالي يوم بدر- أي قد قتلوا في ذلك اليوم - فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فرجعت إلى مكـــة ومعها كتاب حاطب، فترل جبرائيل عليه السلام بالخبر، فبعث رسول الله صلى الله عليه وســـلّم علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال: « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ موضع بين

الحرمين فإن بها ظعينة (وهي المرأة ما دامت في الهودج، وإذا لم تكن فيه، فهي المرأة) معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها، فخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها »، فجحدت فسلَّ عليٌّ رضي الله عنه سيفه فأخرجته من عقاصها (أي من ضفائرها).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمّن جميع الناس يوم فتح مكة إلا أربعة هي أحدهم فأمر بقتلها، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلّم حاطباً فقال: «ما حملك على هذا؟» فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك- والغش ترك النصح والنصح عبارة عن التصديق بنبوته ورسالته والانقياد لأوامره ونواهيه - ولكنني كنت امرأ ملصقاً في قريش (أي حليفاً)، ولم أكن من أنفسهم، ومَنْ معك من المهاجرين كان له فيهم قرابات يحمون أهاليهم وأموالهم وليس فيهم من يحمي أهلي فأردت أن آخذ عندهم يداً، أي أجعل عندهم نعمة، ولم أفعله كفراً وارتداداً عن ديني، وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقبل عذره فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال: « يا عمر إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ففاضت عينا عمر رضي الله عنه.

وفي القصة إشارة إلى جواز هتك ستر الجواسيس، وهتك أستار المفسدين إذا كان فيه مصلحة، أو في ستره مفسدة.

وإنَّ من تعاطى أمراً محظوراً ثم ادعى تأويلاً محتملاً قُبِلَ مِنْهُ، وإن العذر مقبول عند كرام الناس.

وروي أن حاطباً رضي الله عنه لما سمع { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ } غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان، لما علم أن الكتاب المذكور ما أخرجه عن الإيمان لسلامة عقيدته.

ودلَّ قوله { وَعَدُوَّكُمْ } على إخلاصه فإن الكافر ليس بعدوٍ للمنافق بل للمخلص والمعنى يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله ورسوله، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فإن من علامة الإيمان بُغضَ أعداء الله لا مودهم وصداقتهم.

{ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } أي تحبوهم وتودوهم وتصادقوهم، مع أهم أعداء ألداء لكم. أي تخبروهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم.

فإن قلتَ: كيف قال { لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ }، والعداوة والمحبة لكونهما متناقضتين لا تجتمعان في محل واحد.

قلت: إنما كان الكفار أعداءً للمؤمنين بالنسبة إلى معاداهم لله ورسوله، ومع ذلك يجوز أن يتحقق بينهم الموالاة والصداقة بالنسبة إلى الأمور الدنيوية، والأعراض النفسانية فنهى الله عن ذلك.

فإن قلت: قال الله تعالى: { عَدُوِّى } فلِمَ لْم يكتف به حتى قال: { وَعَدُوَّكُمْ } لأن عدو الله إنما هو عدو للمؤمنين؟

فنقول: الأمر لازم من هذا التلازم، وإنما لا يلزم مِن كَونه عدواً للمؤمنين أن يكون عدواً لله، كما قال تعالى: { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ } والعداوة ضد الصداقة، وهما لا يجتمعان في محل واحد، في زمان واحد.

{ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ } أي والحال أنهم كافرون بدينكم وقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح.

{ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ } أي يخرجون محمداً صلى الله عليه وسلّم من مكة ظلماً وعــدواناً كما يخرجون أيضاً منها المؤمنين. قال في البحر: وقدم الرسول صلى الله عليه وسلّم تشريفاً لــه، ولأنه الأصل للمؤمنين، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهــاجرين إلى المدينة.

{ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ } أي من أجل أنكم آمنتم بــالله الواحــد الأحــد كقولــه تعــالى: { وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج: ٨].

{ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى } شرط حذف جوابه، أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. قال الألوسي: وجــواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كأنه قيل: لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي. والجهــاد هــو القتال مع العدو، كالمجاهدة، وفي التعريفات: هو الدعاء إلى الدين الحق، وفي المفردات: الجهــاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو وهو جهاد العدو الظاهر وجهاد الشيطان والــنفس. وفي عطف { وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى } على { جِهَاداً فِى سَبِيلِى } تصريح بما علم التزاماً، فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء دين الله لا لغرض آخر.

{ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ } أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم لا يخفى عليَّ شيء من أحوالكم، والغرض منه التوبيخ والعتاب. كأنه قيل: أي نفع لكم في الإسرار؟، والحال أنه لا فرق بين الإسرار والإعلان بالنسبة إلي وهما سيان في علمي، وأنا مُطْلِعٌ رسولي على ما تسرون.

{ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ } أي ومن يصادق أعداء الله، ويفش أسرار الرسول صلى الله عليه وسلّم، فقد حاد عن طريق الحق والصواب.

قيل: وهذا كله معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله، ونصاحته للرسول صلى الله عليه وسلّم وصدقه في إيمانه، لأن المعاتبة لا تكون إلا من المحب لحبيبه كما قيل: إذا ذهب العتاب فليس بود، ويبقى الود ما بقي العتاب.

وفي الآية إشارة إلى عداوة النفس والهوى والشيطان، فإنها تبغض عبادة الله، وتبغض عباد الله أيضاً إذا لم يكونوا مطيعين لها في إنفاذ شهواتها، وتحصيل مراداتها. وأصل عداوة النفس أن تفطمها عن مألوفاتها، وتحبسها في محبس المجاهدة.

وعلامة حب الله بغض عدو الله قال صلى الله عليه وسلّم: « أفضل الإيمان الحب في الله والبغض في الله » ، قال أبو حفص رحمه الله: من أحب نفسه فقد اتخذ عدو الله وعدوه ولياً، وإن النفس تخالف ما أمرت به، وتعرض عن سبيل الرشد، وتُهلك محبها ومتبعها.

قال صلى الله عليه وسلّم: « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » ، وأوحـــى الله إلى داود عليه السلام (عادِ نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها). فمن عادى نفسه فقد قام بحق الله، ومن لم يعادِ نفسه لحقته هذه الوصمة. وأصل الإيمان الموالاة والمعاداة في الله ومن جنح إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

أقـــول:

لقد علمنا أن هذه الآية نزلت في حاطب بن بلتعة رضي الله عنه فقوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّـــذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ } يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الـــذين شـــرع الله عـــداوقم ومصارمتهم، ونهى أن يُتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء.

كما قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [المائدة: ٥١] وهذا تهديد ووعيد أكيد.

وقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيـــدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } [النساء:١٤٤] .

وقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } المائدة:٥٧].

وقال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ } [التوبة:٢٣] فاحذر يا أخي أن تتخذ صديقاً ومُحِّباً من غير المؤمنين، من الكافرين، تحبه وتوده من أجل مصلحتك الدنيوية. وإن كان ليس بينك وبينه علاقة إيمانية، هذه الصداقة والمحبة والموالاة ضد الإيمان فهي مثل السم للجسد يقتله دون أن يشعر، نرجو الله تعالى جل جلالـــه أن يكون المؤمنون بعيدين عن هذا الوصف؛ إلا أن تكون المعاملة ليست على حساب الدين، والإيمان والمحبة الدينية التي موضعها القلب، فهذا جائز، وكذلك إذا عاملتهم خوفاً من شرهم، ومكيدهم قال تعالى: { إِلاَ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً } [آل عمران:٢٨] وقلبك مطمئنٌ بالإيمان، لهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عذر حاطب لأنه فعلها مصانعة، دون أن تمس إيمانه واعتقاده، وكذلك على المؤمن العاقل المحب لله ولرسوله أن لا يحب من خالف أوامر الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلّم، إلا أن يظن أنه يريد إصلاح ذلك المخالف بالنصيحة ويوجهه إلى الله ورسوله؛ ولكن إذا تيقن له عدم قبوله عليه أن يتركه حباً في الله وبغضاً في الله.

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بنصرة الدين وبالتوفيق آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الممتحنة: ١٠].

في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة: إما أن يستمر في عناده.

أو يرجى منه أن يترك عناده.

أو يترك العناد ويستسلم.

وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال.

الحالة الأولى: أشار إليها بقوله تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ } [الممتحنة: ٤].

الحالة الثانية: أشار إليها بقوله تعالى: { عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً } [الممتحنة: ٧].

الحالة الثالثة: أشار إليها بقوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ } ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الأخلاق، لأنه تعالى ما أمر المؤمنين في مقابلة تلك الأحوال الثلاثة بالجزاء إلا بالتي هي أحسن، وبالكلام إلا بالذي هو أليق.

واعلم أنه تعالى سماهن مؤمنات لصدور ما يقتضي الإيمان وهو كلمة الشهادة منهن، ولم يظهر منهن ما هو المنافي له، أو لأهن مشارفات لثبات إيماهن بالامتحان، وهو الابتلاء بالحلف، والحلف لأجل غلبة الظن بإيماهن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول للممتحنة [بالله الذي لا إله الاّ هو ما خرجت من بغض زوج؟ بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض؟ بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت التماس دنيا؟ بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله؟).

قوله تعالى: { فَامْتَحِنُوهُنَّ } فاختبروهن بما يغلب على ظنكم. قيل: إنه كان من أرادت منهن إضرار زوجها قالت: سأهاجر إلى محمد صلى الله عليه وسلّم، فلذلك أمر صلى الله عليه وسلّم بامتحان من هاجرت إليه مظهرة للإيمان، واختلفوا في أنه صلى الله عليه وسلّم بأي شيء يمتحنهن، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يمتحنهن بأن يُسْتَحْلَفنَ بالله. أي بقبول هذه الشروط سماهن المؤمنات قبل الامتحان، لمشارفتهن الإيمان بالامتحان، وكانت المهاجرات إذا قَدِمْنَ، قعدن عنده صلى الله عليه وسلّم، فيقول صلى الله عليه وسلّم لهن أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ويتلو عليهن الآية فإذا قررن بذلك، قال قد بايعتكن فارتفعن، قالت عائشة رضي الله عنها: والله ما مست يده صلى الله عليه وسلّم يد امرأة في المبايعة إلا بقوله.

وقد ذُكِرَ في هذه الآيات الإيمان على ثلاثة أوجه:

الأول: الإيمان المدلول عليه بمجرد الإقرار باللسان والهجرة إلينا وهو قوله { إِذَا جَـآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ } وصفهن بالإيمان على أهن أظهرن ذلك.

الثاني: الإيمان المدلول عليه بالأمارات التي تفيد غلبة الظن بموافقة قلوبهن ألسنتهن وهو قوله تعالى: { فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ } أي فإن غلب على ظنكم إخلاصهن في الإيمان، فإن غلبة الظن، حجة في الشرع قائمة مقام العلم.

الثالث: الإيمان الحقيقي الذي هو طمأنينة القلب على الاعتقاد الحق، وهو قوله تعالى: { اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ } وفائدة إيراد هذه الجملة، مع أن مضموها معلوم لا شبهة فيه، بيان أنه لا سبيل لنا إلى الإحاطة بحقيقة الحال، وليس في وسعنا إلا الاكتفاء بالظن الغالب الذي يحصل بالامتحان.

{ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ } أي والله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان، لأنه تعالى المطلع على قلوبهن والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين وإلا فالله عالم بالسرائر لا تخفى عليه خافية.

{ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ } العلم الذي هو عبارة عن الظن الغالب بالحلف وغيره. أي إن تحققتم إيماهن بعد امتحاهن فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار.

{ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ } أي أعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك أن الصلح عام الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة يرد إليهم، ومن أتى مكة منكم لم يرد إليكم، وكتبوا لذلك العهد كتاباً وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحارث

الأسلمية مسلمة والنبي صلى الله عليه وسلّم بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر المخزومي، وقيـــل: صيفي بن الراهب، فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا شرطاً أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طية الكتاب لم تجف، فنزلت بياناً، لأن الشرط إنما كان للرجال دون النساء.

وعن الزهري أنه قال: إنها جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي عاتق، فجـــاء أهلـــها يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يرجعها إليهم، وكانت هربت من زوجها عمـــرو بن العاص ومعها أخوها عمارة والوليد، فرد الرسول صلى الله عليه وسلّم أخويهـــا وحبســـها فقالوا: ارددها علينا فقال صلى الله عليه وسلّم: « كان الشـــرط في الرجـــال دون النســـاء » واستحلفها الرسول صلى الله عليه وسلّم فحلفت، وأعطى زوجها ما أنفق، ثم تزوجها عمر رضي الله عنه.

{ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ } أي لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمـــؤمن نكـــاح المشركة، قال الألوسي والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة، وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك.

{ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ } أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور، قال في البحـــر: أمر أن يعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت، فلا يجمع عليه خســـران الزوجـــة والمالية.

{ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } أي ولا حرج ولا إثم علـــيكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهن ، أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار

الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهنَّ أزواج كفار - لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار - وتقع الفرقة بانقضاء عدها. ومهورهن أجر البضع.

{ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } والعصمة ما يعتصم به من عهدٍ وغيره، ولا عصمة بينكم وبينهن ولا علقة النكاح كذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اختلاف الدارين يقطع العصمة، وقيل: لا تَعْقُدُوا للكوافر والمعنى لا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية، والمراد بالعصمة هنا النكاح، يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين.

{ وَاسْـَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ } أي اطلبوا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقت أزواجكم بالكفار ولْيَطْلُبوا هم ـ أي المشركون ـ ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات. قال ابن العربي: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمة مهاجرة: ردوا إلى الكفار مهرها وكان ذلك نصفاً وعدلاً بين الحالتين.

{ ذاَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ } أي ذلكم هو شرع الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم. أي بين المسلمين والكفار. { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

قال ابن العربي: كان حكم الله هذا مخصوصاً بذلك الزمان بتلك النازلة خاصة. وقال الزهري: ولولا هذه الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبين قريش يوم الحديبية

لأمسك النساء، ولم يرد الصداق، وكذا كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبـــل العهـــد. وفي الجملة: الامتحان طريق إلى المعرفة، وجواهر الناس تتبين بالتجربة، لا توافقوا من خالف الحق في قليل أو كثيرٍ.

أقـــول:

نسبتك للإيمان ولأهل الإيمان شرف عظيم، وهذا من أعظم نعم الله عليك، ولكن توج هـــذا الشرف العظيم باتباعك للنبي صلى الله عليه وسلّم، لأن الاتباع برهان صـــادق علـــى صـــدق الإيمان، وبالاتباع يكون التمحيص بين الصادق والكاذب، وفي الحديث الشريف الذي أخرجـــه الإمام مسلم في صحيحه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وهذا يدل على أن النسب وحده لا يكفي، بل لا بد مـــن العمل، فإذا جمعت بين النسب والعمل بالاتباع حزت الخير من كل أطرافه.

نرجو الله تعالى أن يسعدنا بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلّم في كل أحوالنا إنه على كل شـــيء قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الحادي والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قوْماً غضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الاْخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة: ١٣].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قوْماً غضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } يا معشر المؤمنين لا تصادقوا الكفـــرة أعداء الدين، ولا تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالوهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضـــب الله عليهم ولعنهم.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: هم اليهود لقوله تعالى: { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم كفار قريش لأن كل كافر عليه غضب الله. والظاهر أن الآية عامـــة تعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم ولعنه واستحق الطرد والإبعاد.

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } صفة لـــ { قوْماً } وكذا { قَدْ يَئِسُواْ } وهم جنس الكفـــار لأن كلـــهم مغضوب عليهم لا رحمة لهم من الرحمة الأخروية.

وإن سبب نزول هذه الآية أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود بأخبار المســـلمين ليصيبوا من ثمارهم.

{ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخِرَةِ } اليأس انقطاع الطمع، انقطع أملهم من الآخرة لكفرهم بها وعدم إيقانهم.

إن أهل الكتاب يؤمنون بالقيامة لكنهم أصروا على الكفر حسداً وعناداً لعلمهم بأنه لا خلاق لهم فيها، لعنادهم بالرسول صلى الله عليه وسلّم المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات. قال صلى الله عليه وسلّم: « يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق فأسلموا ».

والمعنى قد يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة وكرامته لكفرهم وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلّم، على علمٍ منهم بأنه لله نبي(١) فهم يعرفون أنه رسول الله وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه.

{ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } فيه قولان:

أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه بأن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبداً. وأيد هذا المعنى ابن عباس والحسن البصري رضي الله عنهم.

ثانيهما: معناه كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد الكلبي ومنصور وهو اختيار ابن جرير رحمهم الله.

والمعنى كما يئس الذين ماتوا منهم لأنهم وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الأليم والمراد وصفهم بكمال اليأس. قال مقاتل إن الكافر إذا وضـــع في قبره أتاه ملك شديد الانتهار (الزجر) ثم يسأله من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري فيقول المَلَكُ: أبعدك الله انظر إلى منزلتك من النار فيدعو بالويل والثبور، ويقول: هذا لك. فيفتح باب الجنة فيقول: هذا لمن آمن بالله، فلو كنت آمنت بربك نزلت الجنة فيكون حســـرة عليـــه وينقطع رجاؤه ويعلم أنه لا حظ له فيها وييأس من خير الجنة. وفي الآية إشارة إلى الأبدان المريضة المعتلة المظلمة فإن الكفار آيسوا من خروج ضيق قبور أخلاقهم السيئة إلى سعة فضاء صـــفاتهم الحسنة، وكذا سائرهم من أهل الحجب الكثيفة. ومِنْ أصحاب القبور مَنْ حَالُه على عكس.

هذا كما أشار النبي صلى الله عليه وسلّم بقوله: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر ســـبيل، وعدّ نفسك من أصحاب القبور »، وهم من ماتوا بالاختيار قبل الموت بالاضطرار وذلك بالنفاء التام (هذا في المصدر، والصواب الفناء التام والله أعلم) فكانت أجسادهم لأرواحهم كـــالقبور للموتى نسأل الله الختم بالسعادة بحرمة من له كمال السيادة وصلى الله على سيدنا محمد وعلـــى آله وصحبه وسلم.

أقـــول:

هذه النداءات التسعة جاءت لنهي المؤمن عن الموالاة:

١ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْـدَ إِيمَـانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ } [آل عمران: ١٠١].

٢ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَـآءُ مِـنْ أَفْـوَاهِهِمْ وَمَـا تُخْفِـى صُـدُورُهُمْ أَكْبَـرُ قَـدْ بَيَّنَّـا لَكُـمُ الآيَـاتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران: ١١٨].

٣ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِـرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } [آل عمران: ١٥٠].

٤ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } [النساء: ١٤٤].

٥ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة: ٥١].

٦ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [المائدة: ٥٧].

٧ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة: ٢٣].

٨ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ } [الممتحنة: ١].

٩ ــ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الاٌّخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة: ١٣].

هذا النهي القاطع مع الكافرين والمنافقين، وأما مع الذين نفاقهم عمليٌ مع وجود الإيمان، كذلك هم يخالفون أمر الله وأمر رسوله، علينا أن نترك مصاحبتهم حتى لا نكون عوناً لهم وتقوية لإيحاء الشيطان إليهم، فيكونوا سبباً بانحراف المؤمنين عن الاستقامة.

روي متصلاً كما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلّم وهو في المسجد فجلست فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصلِ» قال: فقمت فصليت ثم جلس فقال: « يا أبا ذر تعوذْ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال: قلت يا رسول الله وللإنس شياطين قال: «نعم»، لذا علينا أن نختار صحبة الصالح ، لأن الإنسان يطلب ما كان فيه صلاحه، كما أن الإنسان الذي يريد أن يتجر يتبع صاحب الخبرة حتى يستفيد من خبرته في

التجارة، وكذلك خبرة أهل الدين صحبتهم كبائع المسك- أياً من كان منهم من أهل الصلاح- إما أن تشتري منه وإما أن يعطيك وإما أن تجد منه ريحاً طيبة.

نسأل الله التوفيق للاتباع لِسَيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسلام المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصـــحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثاني والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف: ٢].

في سبب نزولها ما روي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فتذاكرنا فقلنا: لـــو نعلـــم أي الأعمـــال أحـــب إلى الله لعملنـــا.

فأنزل الله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـــاوَاتِ وَمَا فِى الاْرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله صـــلى الله عليه وسلّم. أخرجه الترمذي.

وقال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبذلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله جل جلاله { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً } وأنزل الله تعالى : { هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } الآية فابتلوا بذلك يوم أحد، فولوا مـــدبرين وكرهوا الموت وأحبوا الحياة. فأنزل الله سبحانه وتعالى: { لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }.

وقيل: لما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلّم بثواب أهل بدر قالت الصحابة: لئن لقينا قتالا لَنُفْرِغَنَّ فيه وسعنا، ففروا يوم أحد، فعيرهم الله بهذه الآية. وقيل: نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب.

قال قتادة والضحاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا، وقال صهيب: كان رجل آخر قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم (قتل وجرح) فقتلته، فقال رجل: يا نـــبي الله إني قتلت فلاناً، ففرح النبي صلى الله عليه وسلّم بذلك، فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف: يا صهيب أما أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنك قتلت فلاناً؟! فإن فلاناً انتحل - أي ادعاه لنفسه - قتله فأَخْبره، فقال أكذلك يا أبا يحيى؟ قال: نعم والله يا رسول الله فترلـــت الآية في المنتحل.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لم تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه؟ ولأي شيء تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعـــروف؟ وهـــو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ. والاستفهام من الله محال وهو عالم بجميع الأشياء. فنقـــول: هذا إذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم، أما إذا كان المراد إلزام من أعرض عن الوفاء بمـــا وعد أو أنكر الحق وأصر على الباطل فلا.

على أن مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجهه إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس بترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً، وقد كانوا يحســـبونه معروفاً. ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود بل المراد الإنكـــار على أن يقول الإنسان من نفسه ما لا يفعله من الخير، لأنه إن أخبر أنه فعل في الماضي والحال ولم يفعله كان كاذباً، وإن وعد أن يفعله في المستقبل ولا يفعله كان خلفاً، وكلاهما مذموم قـــال في الكشاف: هذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد، وهذا بخلاف ما إذا وعد فلم يفِ بميعاده لعذرٍ من الأعذار فإنه لا إثم عليه.

وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها. وإن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذرٍ وثبت في الصحيحين: « آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف، وإذا حـــدث كذب، وإذا ائتمن خان » الحديث. وقال مالك فأما العِدَةُ [العـــدة: الوعـــد، وهـــي مصـــدر وعد -يعد -عدة] مثل أن يسأل الرجُلُ الرجلَ، أن يهب له الهبة، فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل، فما أرى ذلك يلزمه. قلت (المفسر) فأما في مكارم الأخلاق وحسن المـــروءة فـــنعم. وفي الجملة: خلف الوعد مع كل أحدٍ قبيح. ومع الله أقبح.

وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ } وقال تعالى: { وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً } [مريم: ٥٤].

قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ } [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: { وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام، وقال أيضاً: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف: ٢].

وخَرّج أبو نعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثمامة أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وفت، أي نمت، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون ».

وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا، فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: أترونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله.

{ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } والمقت هو البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، قال صاحب الكشاف: المقت أشد البغض وأبلغه وأفحشه، والمعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله، وهذا كقوله تعالى: { كَبُرَتْ كَلِمَةً } [الكهف: ٥] ، أي عظم فعلكم هذا بغضاً عند ربكم قد قصد في { كَبُرَ } كَثُرَ التَّعَجُّبُ ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب

السامعين. وأسند إلى { أَن تَقُولُواْ } ونَصَبَ { مَقْتاً } على تفسيره دلالة على أن قولهم: {مَــا لاَ تَفْعَلُونَ } مقتٌ خالصٌ لا شوب فيه لفرط تمكن المقت فيه، واختير لفظ المقت لأنه أشد الــبغض وأبلغه، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه، {عِندَ اللَّهِ } لم يقتصر على أن جعل الــبغض كبيراً حتى جعل أشده وأفحشه، وعند الله أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كِبَرُ مقته عند الله الــذي يحقر دونه سبحانه كل عظيم، فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك، وقال ابــن عطيــة: المقت البغض من أجل ذنب، أو ريبة، أو دناءة يصنعها الممقوت، وقال المبرد: رجل ممقــوت إذا كان يبغضه كل واحد.

وفي الآية إشارات:

منها: حذر الله المؤمنين أن يظهروا بدعوى المقامات، التي لم يبلغوا إليها، لئلا يقعوا في مقت الله وينقطعوا عن طريق الحق بالدعوى الباطلة.

ومنها: أنه من لم يوف بالعهود ولم يأت بالحقوق لم يصل إلى الحق والحقيقة.

ومنها: ليس للعبد فعل ولا تدبير لأنه أسير في قبضة العزة، يجري عليه أحكام القدرة وتصاريف المشيئة، فمن قال فعلت أو أتيت أو شهدت، فقد نسي مولاه وادعى ما ليس له، ومن شهد مــن نفسه طاعة كان إلى العصيان أقرب لأن النسيان من العمى.

وفي التأويلات النجمية:

يا أيها المؤمنون المقلدون لم تذمون الدنيا بلسان الظاهر وتمدحونها بلسان الباطن، شهادة ارتكابكم أنواع الشهوات الحيوانية، وأصناف اللذات الجسمانية، أو تمدحون الجهاد بلسانكم وتذمونه بقلوبكم، وذلك يدل على إعراضكم عن الحق وإقبالكم على النفس والدنيا وهذا كبر مقتاً عند الله كما قال تعالى: { كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }.

لذا يقال: إظهار التجلد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق في كل نَفَس يؤذِنُ بالبقاء عما حصل بالدعوى ــ أي بدعوى النفس ــ تسوّل له نفسه أن له في الأمر شيئاً، وأن تدبيره هو الذي مكّن له والله يحب التبري من الحول والقوة.

ويقال: لم يتوعد الله سبحانه زلةً بمثل ما على هذا حين قال: { كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }.

أقــول:

الذين يقولون مالا يفعلون كلهم اتبعوا الهوى، وباتباعهم الهوى وقعوا في الغفلة، فدنسوا أرواحهم بفعل المعاصي، والمنكرات والمخالفات الشرعية، وكان ضلالهم على علم، والعياذ بالله تعالى من الضلال بعد الهدى. أخي المؤمن: الأرواح دخلت الأجساد طاهرة وهي عارفة بالله، فإما أن تقوي هذه الروح بالتمسك بالكتاب والسنة، وكثرة الذكر لله تعالى، مع تلاوة القرآن، والإعراض عن زخارف الحياة الدنيا، حتى يبيت الواحد كأنه ينظر إلى عرش ربه، وإما أن نسترسل مع الهوى الذي يدفعنا إلى المعاصي والآثام الظاهرة والباطنة، واتباع خطوات الشيطان،

حتى ينسلخ الواحد لا قدر الله تعالى من شرع الله فيكون مثله مثل البهائم، نسأل الله تعالى الحفظ والثبات والتمسك بأحكام الشرع الشريف ظاهراً وباطناً.

اللهم أعنا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، ولا تجعلنا عن ذكرك من الغافلين، برحمتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثالث والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [الصف:١٠ ــ ١٣] .

لما بيّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة: قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: لو أذنت لي فطلقت خولة وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ولا أنام بليل أبداً، ولا أفطر بنهار أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إن من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام، وإنما رهبانية أمتي في الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني » قال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها ، فنزل قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } يا من صدقتم الله ورسوله، وآمنتم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟. واعلم أن قوله: {هَلْ أَدُلُّكمْ } في معنى الأمر، يقال: هل أنت ساكت؟ أي اسكت. وبيانه أن { هَلْ } بمعنى الاستفهام؛ ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر ، ولذلك جاء { يَغْفِرْ لَكُمْ } مجزوماً على أنه جواب الأمر.

{ عَلَى تِجَارَةٍ } هي التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تعالى كما قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الّجَنَّةَ } [التوبة: ١١١] دلّ عليه : { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } والتجارة: عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء، وكما أن التجارة تنجي

التاجر من محنة الفقر ورحمة الصبر على ما هو من لوازمه، فكذلك هذه التجارة وهي التصديق بالجَنَانْ والإقرار باللسان كما قيل في تعريف الإيمان فلهذا قال بلفظ التجارة.

وكما أن التجارة في الربح والخسران، فكذلك في هذا، فإن من آمن وعمل صالحاً فله الأجر والربح الوافر، واليسار المبين، ومن أعرض عن العمل الصالح فله التحسر والخسران المبين.

{ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم } أي تكون سبباً لإنجاء الله إياكم وتخليصه، وأفادت الصفة المقيدة أن من التجارة ما يكون على عكسها كما أشار إليها قوله تعالى: { يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } فإن بوار التجارة وكسادها يكون لصاحبها عذاباً أليماً كجمع المال وحفظه، ومنع حقوقه، فإنه وبال في الآخرة فهي تجارة خاسرة، وكذا الأعمال التي لم تكن على وجه الشرع والسنة، وأريد بها غير الله.

{ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } أي عذاب مؤلم جسماني وهو ظاهر، وروحاني وهو التحسر والتضجر.

{ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } فكأنهم قالوا: يا ربنا دلنا عليها - التجارة الرابحة - حتى نفعلها وننجو بسببها من العذاب الأليم فأجيبوا بأن قيل: { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }.

وفي التيسير لما نزل قوله تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } لم ينزل معه ما بعده، وكانوا في شوق إلى معرفته ليعلموا به، فبقوا على ذلك ستة عشر شهراً، ثم نزل قوله تعالى: { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } فهو تفسير للتجارة.

{ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله، قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله {تِجَارَةٍ }.

والجهاد بعد هذين الوجهين (أي يعني الإيمان والجهاد في سبيل الله) ثلاثة:

١ ــ جهاد فيما بينه وبين نفسه: وهو قهر النفس، ومنعها عن اللذات والشهوات.

٢ ــ جهاد فيما بينه وبين الخلق: وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم ويرحمهم.

٣ ــ جهاد فيما بينه وبين الدنيا: وهو أن يتخذها زاداً لمادةٍ أي تقيته في حياته.

فتكون على خمسة أوجه.

{ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ } ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه.

{ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله خير لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهم وعلم. أي إن كنتم من أهل العلم فإن الجَهَلَةَ لا يُعتد بأفعالهم، أو إن كنتم تعلمون أنه خير لكم أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون. فعلى العاقل تبديل الفاني بالباقي فإنه خير له.

{ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }، { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } جواب قوله: { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } لما أنه في معنى الأمر كما مر فكأنه قال: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله يغفر لكم. فالمعنى فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أي يسترها عليكم، ويمحها بفضله عنكم.

{ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ويدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها أنهار الجنة { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ } أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة، { ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها.

{ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }، { وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا } أي تجارة أخرى في العاجل مع ثواب الآجل، قال الفراء: وخصلة أخرى تحبونها في الدنيا مع ثواب الآخرة، { تُحِبُّونَهَا } شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

{ نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } أي ينصركم على أعدائكم، ويفتح لكم مكة؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد فتح فارس والروم.

{ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين وبشر يا محمد بهذا الفضل المبين قال في البحر: لما ذكر الله تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة ذكر لهم ما يسرهم في العاجلة وهي ما يفتح الله عليهم في البلاد، فهذه هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة. فلهم من الله فضل وإحسان في الدارين، وكان في هذا دلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلّم لأنه أخبر عما يحصل ويقع في المستقبل من الأيام على ما أخبره.

لطيفة: بيّن الربحَ على تلك التجارة ما هو فقال: { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ } قدّم ذكرَ أهم الأشياء - وهو المغفرة - ثم إذا فرغت القلوب عن العقوبة قال : { وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ } فبعد ما ذكر الجنة ونعيمها قال: { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلا برؤية الحق سبحانه.

{ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا } أي ولكم نعمة أخرى تحبونها { نَصْرٌ مِّن اللَّهِ } اليوم حفظ الإيمان وتثبيت الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة، { وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } الرؤية والزلفة، ويقال: الشهود. ويقال الوجود أبدَ الأبدِ (الخلود) إشارة إلى قوله {خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }.

أقـــول:

اصدق مع الله تعالى، واجعل سريرتك خيراً من علانيتك، ولا تلتفت إلى أحد من المخلوقـات، ولا إلى حظ من حظوظك الدنيوية والأخروية، ولا تبال بحديث الناس مهما قالوا عنك، إن كنت صادقاً مستقيماً على شرع الله تعالى في ظاهرك وباطنك، فلو قال الجميع عنك - لا قدر الله - : أنت كاذب في عبادتك، فإن قولهم لا ينقص من صدقك ذرة، كما لو قالوا عن واحد أنه صادق، وكان عند الله كاذباً فإنهم لا يجعلون فيه ذرة واحدة من الصدق، فالصادق من كـان عنـد الله صادقاً، والكاذب من كان عند الله كاذباً.

نسأل الله أن يحشرنا بزمرة الصادقين الصديقين، إنه على ما يشاء قدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سـيدنا محمـد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الرابع والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنَّصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَـَامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّـدْنَا الَّـذِينَ ءَامَنُواْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ } [الصف: ١٤].

يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بـأقوالهم وأفعـالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام حين قال: { مَنْ أَنَّصَارِى إِلَى اللَّهِ } فقال:

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ أَنصَارَ اللَّهِ } أي انصروا دين الله وأعلو مناره ودوموا على ما أنتم عليه من النصرة.

{ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ } أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى عليه السلام: { مَنْ أَنَّصَارِى إِلَى اللَّهِ } أي من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله ونصرة دينه.

قال مقاتل: يعني من يمنعني من الله، وقال عطاء: من ينصر دين الله. ومنهم من قال: أمر الله المؤمنين أن ينصروا سيّدنا محمداً صلى الله عليه وسلّم كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام وفيه إشارة إلى أن النصر بالجهاد لا يكون مخصوصاً لهذه الأمة.

{ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ } أي قال أتباع عيسى عليه السلام- وهم المؤمنون الخلّص من خاصته المستجيبون لدعوته - نحن أنصار دين الله.

والحواريون: أصفياؤه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، وحَوَارِيُّ الرجل: صَفِيُّه وخلصاؤه من الحَوَرْ وهو البياض الخالص، وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب، أي يبيضونها.

وأما الأنصار: كلهم من قريش سيدنا أبو بكر، عمر، عثمان، علي، حمزة، جعفر، أبو عبيدة بن الجراح، عثمان بن مظعون، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، عثمان بن عوف، طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنه أجمعين.

والتشبيه محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول في أيام الحج (من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي) فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وَوازَرُوه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما

هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفّوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله صـــلى الله عليه وسلّم الأنصار وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

{ فَـَـامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الذين آمنوا في زمن عيسى عليه السلام والذين كفروا كذلك، وذلك لأن عيسى عليه السلام لما رفـــع إلى السماء تفرقوا ثلاث فرق، فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتبع كل فرقة منهم طائفة مـــن الناس، واجتمعت الطائفتان الكافرتان، على الطائفة المسلمة فقتلـــوهم وطـــردوهم في الأرض، فكانت الحالة هذه حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلّم فظهرت المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى :{ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَى عَدُوِّهِمْ } أي فقوينا المؤمنين على الكافرين. وقيل: أيـــدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين لأن عيسى عليه السلام لم يقاتل أحداً، ولم يكـــن في ديـــن أصحابه بعده قتال.

{ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ } قال مجاهد: يعني من اتبع عيسى، وعلى هذا القول يكون معنى الآية: أن من آمن بعيسى عليه السلام ظهروا على من كفروا به، فأصبحوا غالبين على أهل الأديان.

وقال إبراهيم: أصبحت حجة من آمن بعيسى عليه السلام ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلّم وأن عيسى كلمة الله وروحه، قال الكلبي: ظاهرين بالحجة؛ والظهور بالحجة هو قول زيد بن علي رضي الله عنه. وكذلك قتادة لأنهم قالوا: فيما روي ألستم تعلمون أن عيســـى عليـــه السلام كان ينام والله لا ينام، وأن عيسى عليه السلام كان يأكل والله تعالى لا يأكل.

وفي تفسير الآية { فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ } بإظهار سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم دينهم على دين الكفار. وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية؛ فأمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

أقـــول:

كل عباد الله جل وعلا محتاج إلى الإعانة، وحثنا عليها ربنا فقال: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى} وعلى هذا فالله جل وعلا غني عن العالمين لأنه رب العالمين، ونبيه صلى الله عليه وسلّم مؤيدٌ به. فقد أمره ربنا عز وجل أنّ من تولى عنك فحسبك الله { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لآ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [التوبة: ١٢٩]، ومع هذا فإن حضـــرة الله تعـــالى خاطب المؤمنين وطلب منهم أن ينصروا دين الله، ويكونوا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ أَنصَارَ اللَّهِ } وما هذه النصرة، والتأييد إلا لفائـــدتنا، إن الله يحب الذين يوجهون عباد الله إلى الله، وإذا توجه عباد الله وأمة المصطفى صلى الله عليه وسلّم إلى الله ورسوله نكون أدينا وظيفتنا، وحققنا عبوديتنا، والفائدة تعود إلينا فلا بد أن نكون مُعيـــنينَ مُتَعاونين على ذلك، وليس على المؤمنين الذين يوجهون عباد الله إلى الله أن يمنوا على غيرهـــم، فمن بركة الجماعة يجعل الضعيف قوياً والقوي يترقى ولولاهم لم يبلغوا { وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ } ولا على الذين يتعاونون على الدين أن يمنوا على من يوجههم وفي الحديث: «يد الله مع الجماعـــة» فبهذا نكون من الذين وصفهم الله جل وعلا: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ثوابه لنا، ونصرة دين الله جل وعلا ليس منحصر فينا كما قـــال ربنـــا:

{ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } وفي الحديث: « من سنّ في الإسلام سنة حسنة فلـــه أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ».

نسأل الله التوفيق، والاستقامة على أوامر الله والاجتناب عن نواهيه ما دامت الروح في الجسد، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الخامس والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُواْ فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّـــهِ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمـــاً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَازِقِينَ } [الجمعة: ٩ ــ ١١].

وجه التعلق بما قبلها هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباها، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباها كذلك، فنبههم الله تعالى بقوله : { فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } أي إلى ما ينفعكم في الآخرة وهو حضور الجمعة لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية قال تعالى: { وَالآْخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [الأعلى: ٧].

ووجه آخر في التعلق، قال بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث:

١ ــ افتخروا بأهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم بقوله: { فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

٢ ــ وبأهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً.

٣ ــ وبالسبت وليس للمسلمين مثله. فشرع الله تعالى الجمعة.

وقوله: { إِذَا نُودِىَ } يعني النداء (ونداء الصلاة مخصوص بالشرع بالألفاظ المعروفة) وذلك إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، وهو قول مقاتل، وأنه كما قال لأنه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم نداء سواء كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلالٌ على باب المسجد، وكذا على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. حتى إذا كان عهد سيدنا عثمان وكثرت الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذناً آخر فأمر بالتأذين الأول.

{ لِلصَّلاةِ } أي لوقت الصلاة يدل عليه قوله تعالى: { مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ } ولا تكون الصلاة من اليوم، وإنما يكون وقتها من اليوم.

قال الليث: الجمعة يوم خصّ به لاجتماع الناس في ذلك، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « سميت الجمعة لأن آدم جمع فيها خلقه »، وقيل لِمَا أنه تعالى فرغ من خلق الأشياء، فاجتمعت فيها المخلوقات.

{ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } أي فامضوا. وقيل: فامشوا وعلى هذا معنى السعي: المشي لا العدو، والسعي: التصرف في كل عملٍ، ومنه قوله تعالى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ } [الصافات: ١٠٢].

قال الحسن: والله ما هو سعي على الأقدام، ولكنه سعي بالقلوب، وسعي بالنية، وسعي بالرغبة ونحو هذا. والسعي هاهنا: هو العمل عند قومٍ، وهو مذهب مالك والشافعي، إذ السعي في كتاب الله العمل، قال تعالى: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ } [البقرة:٢٠٥] وقال تعالى: { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى } [الليل:٤] وروي عنه صلى الله عليه وسلّم: « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة ».

واتفق الفقهاء على أن النبي صلى الله عليه وسلّم [كان] متى أتى الجمعة أتى على هينة.

{ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } الذكر: هو الخطبة عن الأكثر من أهل التفسير، وقيل: هو الصلاة، وأما الأحكام المتعلقة بهذه الآية فإنها تعرف من الكتب الفقهية.

{ وَذَرُواْ الْبَيْعَ } قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، وقال عطاء: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء، وقال الفراء: إنما حرم البيع والشراء إذا نودي للصلاة لمكان الاجتماع.

قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح، { ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ } اي في الآخرة {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } ما هو خير لكم وأصلح.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال: « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الـــذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا، واعلموا أن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، من عامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياتي، أو بعدي وله إمام عادل أو جائر، استخفافاً بها، وجحـــوداً بها، فلا جمع الله شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا بر له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه » رواه ابن ماجه والطبراني.

وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فهي أنه لما قدم المدينة مهاجراً، نزل قباء على بني عمرو بن عوف، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حـــين امتـــد الضحى.

ومن تلك السنة يعد التاريخ الإسلامي، فأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وقد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فخطب وصلى الجمعة، وهي أول خطبة خطبها بالمدينة المنورة وقال فيها :

« الحمد لله، وأستعينه وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفر به، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنـــور والموعظة والحكمة، على فترة من انقطاع من الرسل، وقلة من العلم، وضـــلالة مـــن النـــاس، وانقطاع من الزمن، ودنوٍ من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومـــن يعصِ الله ورسوله فقد غوى وفرط، وضل ضلالاً بعيداً.

أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخـــرة، وأن يـــأمره بتقوى الله، واحذروا ما حذركم الله من نفسه، فإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة مـــن ربه عونُ صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين ربه من أمره في السر والعلانية لا ينوي بها إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفُ بِالْعِبَادِ } [آل عمران: ٣٠] هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لـــذلك، فإنه يقول تعالى: { مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [ق: ٢٩]. فاتقوا الله في عاجـــل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَـــتِهِ وَيُعْظِمْ لَـــهُ أَجْـــراً } [الطلاق: ٥]، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيماً؛ وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هـــو اجتبـــاكم وسمـــاكم المسلمين، { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال: ٤٢] ولا حـــول ولا

قوة إلا بالله فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » أخرجه ابن جرير عن سعيد بـــن عبـــد الرحمن الجمحي رضي الله عنهم.

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ } أي إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة.

{ فَانتَشِرُواْ فِى الأَرْضِ } هذا صيغة الأمر بمعنى الإباحة لما أن إباحة الانتشار زائلة بفريضة أداء الصلاة، فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض ويبتغوا من فضل الله، وهو الرزق ونظيره { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ } [البقرة: ١٩٨].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا فرغت من الصلاة فإن شئت فاخرج، وإن شئت فصل إلى العصر، وإن شئت فاقعد.

كذلك قوله: { وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ } فإنه صيغة أمر بمعنى الإباحة أيضاً لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع بقوله تعالى: { وَذَرُواْ الْبَيْعَ } وقال مقاتل: أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة، فمن شاء خرج ومن شاء لم يخرج، وقال مجاهد: إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وقال الضحاك: هو إذن من الله تعالى إذا فرغ، والأفضل في الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق، أو الولد الصالح، أو العلم النافع، وغير ذلك من الأمور الحسنة، والظاهر هو الأول، وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال: اللهم أجبت دعوتـــك وصـــليت فريضـــتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

{ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً } قال مقاتل: باللسان، وقال سعيد بن جبير بالطاعة، وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين كثيراً حتى يذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً، والمعنى إذا رجعتم إلى التجارة وانصرفتم إلى البيع والشراء مرة أخرى فاذكروا الله كثيراً، قال تعالى: { رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ } [النور: ٣٧].

عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إذا أتيتم السوق فقولوا: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، فإن من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة، وحط عنه ألف ألف خطيئة، ورفع له ألف ألف درجة ».

{ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي كي تفوزوا بخير الدارين ، وفي الآية مباحث:

البحث الأول: ما الحكمة في أَنْ شَرَعَ الله تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف؟

فنقول: قال القفال: هي أن الله عز وجل خلق الخلق، فأخرجهم من العدم إلى الوجود، وجعل منهم جماداً، ونامياً، وحيواناً، فكان ما سوى الجماد أصنافاً، منها بهائم، وملائكة، وجن، وإنس، ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل، فكان أشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم، ولما كرمهم الله تعالى به من النطق، وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع، ولم يُخْفِ موضع عِظَمِ المِنَّةِ، وجَلالةَ قَدْرِ الموهبةِ لهم، فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة، التي فيها أُنشئت الخلائق، وتم وجودها، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم، وإذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدأوا من نعمة تتخللهم، وإن منّة الله مثبته عليهم قبل استحقاقهم لها، ولكلِّ أهلِ ملّةٍ من الملل المعروفة يوم منها معظم،

فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « يوم الجمعة هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له؛ فلليهـــود غـــداً، وللنصارى بعد غد » ولما جُعِلَ يومُ الجمعةِ يوم شكرٍ وإظهار سرور وتعظيم نعمة، احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسُّنَّةِ في الأعياد، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة، وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة، جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار، ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصــلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع والله أعلم.

البحث الثاني: قوله: { وَذَرُواْ الْبَيْعَ } لِمَ خصّ البيع من جميع الأفعال؟

نقول: لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش، وفيه إشارة إلى ترك التجارة، ولأن البيع والشراء في الأسواق غالباً، والغفلة على أهل السوق أغلب، فبقوله: { وَذَرُواْ الْبَيْعَ } تنبيه للغافلين. فالبيع أولى بالذكر ولم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجــب فهـــو كالصلاة في الأرض المغصوبة.

البحث الثالث: ما الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانياً؟

فنقول: الأول من جملة ما لا يجتمع مع التجارة أصلاً، إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مـــر. والثاني: من جملة ما يجتمع كما في قوله: { رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ }.

{ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَازِقِينَ } قال مقاتل: إن دحية الكلبي أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم وكان معه من أنواع التجارة، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والصفق، وكان ذلك في يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلّم قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس وتركوا النبي صلى الله عليه وسلّم ولم يبق إلا اثنا عشر رجلاً، أو أقل كثمانية، أو أقل أو أكثر كأربعين فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: لولا هؤلاء لَسُوِّمَتْ لهم الحجارةُ، ونزلت الآية، وكان من الذين معه أبو بكر الصديق وعمر، رضي الله عنهم.

وقال الحسن: أصاب أهلَ المدينة جوعٌ، وغلاء سعر فقدمت عير والنبي صلى الله عليه وسلّم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: « لو اتبع آخرُهم أوَّ لَهم لالتهب الوادي عليهم ناراً ». قال قتادة: فعلوا ذلك ثلاث مرات.

قوله: { أَوْ لَهْواً } وهو الطبل، وكانوا إذا أنكحوا الجواري يضربون المزامير، فمروا يضربون فتركوا النبي صلى الله عليه وسلّم.

{ انفَضُّواْ إِلَيْهَا } أي تفرقوا، وقال المبرد: مالوا إليها، وعدلوا نحوها، والضمير في إليها للتجارة، وقال الزجّاج: انفضوا إليه وإليها، ومعناهما واحد واعتبر هنا الرجوع إلى التجارة لِمَا أنَّها أَهَمُّ إليهم.

{ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً } اتفقوا على أن هذا القيام كان في الخطبة للجمعة. قال جابر رضي الله عنه: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الخطبة إلا وهو قائم.

وسئل عبد الله: أكان النبي صلى الله عليه وسلّم يخطب قائماً أو قاعداً؟ فقرأ: {وَتَرَكُوكَ قَآئِماً}.

{ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ } أي ثواب الصلاة والثبات مع النبي صلى الله عليه وسلّم خير من اللهو ومن التجارة. أي إن نفع ذلك محقق مخلد بخلاف ما فيهما من النفع المُتوهَّم، فنفع اللهو ليس بمحقق، ونفع التجارة ليس بمخلد.

{ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَازِقِينَ } هو من قبيل أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، والمعنى إن أمكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين. وقيل لفظ الرازق لا يطلق على غيره إلا بطريق المجاز.

مَنْ أَسَرَتْهُ أخطار الأشياء استجاب لكل داعٍ جَرّهُ إليه لهو أو حمله عليه سهو. ومن ملكه سلطان الحقيقة لم ينحرف عن الحضور ولم يلتفت في حال الشهود { قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ }.

أقـــول:

علينا أن نتمسك بالأوامر الإلهية، ونتجنب عن النواهي، لأن أوامره ونواهيه متعلقة برضاه جل وعلا، فهي امتحان منه لعبده، وإذا وُفِّقَ العبدُ لهذا الامتحان، بتوفيقه، وفضله، ينال الرضى من ربه، إن الله وهب له العقل، ووهب له العلم، وعلّمه الحق حتى يعرف هذا الأمر الإلهي، ثم أعطاه الجزء الاختياري ليُمَيِّز به بين الحق والباطل، ومدار هذا الامتحان فائدة للعبد، والله جل وعلا ما خلق الخلق ليربح منهم، بل خلقهم ليربحوا منه سبحانه وتعالى. وحق على العبد أن يطيع سيده سواء وافقت الطاعة لطبيعته ونفسه أو لا. فذاك خير له من أن يتبع طلب نفسه، ويترك

رضى ربه، ولذا قال ربنا جل وعلا: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } لأن العبد مخير بين الفعل المأمور به وتركه، إذ كل التكاليف الشرعية متعلقة بهذا الجزء الاختياري.

علينا معاشر المؤمنين أن نوجه استعدادنا وهمتنا إلى الآخرة ونذكر حسابنا وسؤالنا كما قال تعالى: { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } عن الشريعة المحمدية من الصلاة، والجمعة، والسعي إليها والحج، والزكاة، والصوم، والذكر، وغير ذلك من العبادات.

نرجو الله أن يوفقنا والمسلمين لما يحب ويرضى من فضله وكرمه. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السادس والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُواْ من مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلآ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المنافقون: ٩ ــ ١١].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ } لَمَّا ذكر قبائح المنافقين نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد، والمعنى: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضته عليكم من الصلاة، والحج، كما شغلت المنافقين.

قال أبو حيان: اي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بالسرور بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات فلا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها والتمتع بها، عن الاشتغال بذكره تعالى، من الصلاة وسائر العبادات المذكرة بالمعبود.

وقال بعضهم: الذكر بالقلب خوف الله تبارك وتعالى.

والذكر باللسان: قراءة القرآن وغيرها..

والذكر بالأبدان: الصوم والصلاة...

والمراد به نَهْيُهُم عن التَلَهِّي بها، أي عن ترك ذكر الله بسبب الاشتغال بها، وقد كان المنافقون بخلاء بأموالهم، ولذا قالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ومتعززين بأولادهم وعشائرهم، مشغولين بهم، وبأموالهم عن الله وطاعته، وتعاون رسوله فنهى المؤمنين (وفي المصدر فنُهي المؤمنين) أن يكونوا مثلهم في ذلك.

{ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، والاشتغال بما سواه عنه ولو في أقل من حين فأولئك هم الكاملون في الخسران حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي وفضلوا العاجل على الآجل.

وفي الحديث: « ما طلعت الشمس إلا بجنبيها ملكان يناديان ويُسْمِعانِ الخلائقَ غير الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ».

وقال سهل: لا يشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها، فإن من شغله عن ذكر الله وخدمته عَرَضٌ من عروض الدنيا فهو من الخاسرين والعياذ بالله.

وقيل: من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده، فأولئك هم الخاسرون في تجارتهم.

{ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } وأنفقوا في مرضاة الله من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال من قبل أن يحل الموت بالإنسان ويصبح في حالة الاحتضار.

{ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد زكاة المال ومن للتبعيض، وقيل: المراد هو الإنفاق الواجب.

{ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } أي دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة إلى الدنيا وهو قوله: { فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ }.

وقيل: حضهم على إدامة الذكر، وأن لا يضنُّوا بالأموال، أي هَلاَّ أمهلتني وأخرت أجلـــي إلى زمان قليل. وهو الزيادة في أجله حتى يتصدق ويتزكى وهو قوله:{فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا دليل على أن القوم لم يكونوا مؤمنين إذ المؤمن لا يســـأل الرجعة.

وقال الضحاك: لا يترل الموت بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة إلا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية.

وقال صاحب الكشاف: مِن قَــبْلِ أَنْ يُعاين ما يَــيْــأَسُ معــهُ مِنَ الإمهال، ويضيق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق، ويفوت وقت القبول، فيتحسر على المنع، ويعض أنامله على فقد ما كـــان متمكناً منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: تصدقوا قبل أن يترل عليكم سلطان الموت فلا تُقْبَلُ توبةٌ ولا يَنفعُ عمل. وقال ابن عباس رحمه الله: هذه الآية أشد على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا، أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة، قلت: إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع حتى يقاتل لما يرى من الكرامة. إذ كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك مـــا فات، ولكن هيهات.

روى الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من كان له مـــال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، إنما سأل الرجعةَ الكفارُ فقال سأتلو عليك بذلك قرآناً { يا أَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُـــواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ } وفي الآية دلالة على وجوب تعجيل أداء الزكـــاة،

ولا يجوز تأخيرها أصلاً. وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها. وكذلك أن التصدق من أسباب الفلاح والطاعة كما أن تَرْكَهُ من أسباب الفساد والفسق لذا قال: { وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ }، وهناك فرق بين الهدية والصدقة، فالصدقة للمحتاج بطريق الترحم، والهدية للحبيب لأجل المودة، ولذا كان صلى الله عليه وسلّم يقبل الهدية، ولا يقبل الصدقة فرضاً كانت أو نفلاً.

{ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ } أي ولن يمهلها مطيعة وعاصية، كبيرة وصغيرة آخر عمرها فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يؤخر من انقضت مدته، وحضر أجله قال في الكشاف: هذا نفي للتأخير على وجه التأكيد.

وبالجملة فقوله: { لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ } تنبيه على الذكر قبل الموت، وقوله: { وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ } تنبيه على الشكر لذلك.

{ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي لو رُدَّ إلى الدنيا ما زَكَّى ولا حج، ويكون هذا كقوله: { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ } [الأنعام: ٢٨]، والمفسرون على أن هذا الخطاب جامع لكل عمل خيراً أو شراً.

تنبيه: قال بعضهم: الموت على قسمين:

الأول اضطراري: وهو المشهور في العموم والعرف وهو الأجل المسمى الذي قيل فيه: { فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ }.

الثاني اختياري: وهو المـــوت في الحيـــاة الـــدنيا، وهـــو الأجـــل المقضـــي { ثُـــمَّ قَضَـــى أَجَلاً } ولا يصح للإنسان هذا الموت إلا إذا وحد الله تعالى توحيد الموتى الذين انكشفت لهـــم الأغطية.

لطائف: لا تغتروا بسلامة أوقاتكم، وترقبوا بغتات آجالكم، وتأهبوا لما بين أيديكم من الرحيل، ولا تعرجوا في أوطان التسويف.

يقال: حق الله مما أَلزَمَكَ القيامَ به، وحقك ضمن لك القيامَ به، فاشتغل بما كُلِّفْتَ لا بما كُفيتَ.

لا تضيعوا أمور دينكم بسبب أموالكم وأولادكم بل آثروا حق الله، واشتغلوا به يكفكم أمور دنياكم وأولادكم، فإذا كنت لله كان الله لك.

أقـــول:

العمل في الدنيا ليس فيه ضرر، ولكن تعلق القلب بالدنيا هو الضرر، ولا تـــبرر انغماســـك في الدنيا من أجل أولادك، لأن أولادك إن كانوا صلحاء فالله تعالى يتولاهم: { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } [الأعراف: ١٩٦] وأين ولايتك من ولايته؟ وإن كانوا قُصَّراً، فعليك التقوى { وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواّ اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } [النساء: ٩] - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- وإن كانوا أشقياء لا قدر الله تعالى، فلا تكن سبباً في عونهم على الشقاء، فهم يعذبون بسبب عصيانهم، وأنت تتعذب بسبب التهائك عن ذكـــر الله بجمع المال؛ فرزقك ورزقهم على الله تعالى، فخذ بالسبب، ولا يكن ذلك على حساب دينـــك، واعلم أن الرزاق هو الله لا السبب. وخير المال ما استعملته في الحلال.

وأنت للمال إذا أمسكته، فإذا أنفقته فهو لك. فطوبى لعبد كان لله تعالى. نرجو الله تعـــالى أن يحفظنا وإياكم من شر أنفسنا، ومن زخرفة الحياة الدنيا، فإن سمها قاتل، وسلام على المرســـلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على ســـيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء السابع والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْـــفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِـــيمٌ (١٥) فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنْفِقُواْ خَيْراً لاَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَـــعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِـــيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [التغابن: ١٤ ــ ١٨].

سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكن جوها جو السور المكية التي تعـالج أصول العقيدة الإسلامية وأَمَرَتْ بطاعة الله وطاعة رسوله، وحَذَّرَتْ من الإعراض عن دعوة الله، كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد؛ فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عـن الجهـاد والهجرة، وخُتِمَتْ السورةُ بالأمر بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ } قال الكلبي: كـان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته فقالوا: أنت تذهب وتذرنا ضائعين، فمنهم من يطيع أهله ويقيم؛ فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم، ومنهم من لا يطيع ويقول: أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفعكم شيئاً، فلما جمع الله بينهم؛ أمـرهم أن ينفقـوا ويحسنوا ويتفضلوا.

وقال أبو مسلم الخراساني: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عـن الهجرة والجهاد.

فخاطبهم: يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم، يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم.

قال المفسرون: إن قوماً أسلموا، وأرادوا الهجرة فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلـــم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أَتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلّم رأوا الناس قد فقهوا في الـــدين فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية؛ والآية تعمّ كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد.

{ عَدُوّاً لَّكُمْ } يشغلونكم عن طاعة الله، وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة فإن العدو لا يكون عدواً بذاته وإنما يكون عدواً بفعله، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وربه.

وقدم الأزواج لأنها مصادر الأولاد، ولأنها لكونها محل الشهوات ألصق بقلوب الناس، وأشـــد إشغالاً لهم عن العبودية ولذا قدمهـــا فـــي قوله تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ }.

وفي اللباب في قوله: { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ } يدخل فيه الذَكَرُ فكما أن الرجل تكـــون زوجتـــه وولده عدواً له، كذلك المرأة يكون زوجها عدواً لها.

{ فَاحْذَرُوهُمْ } أي احفظوا أنفسكم من محبتهم، وشدة التعلق بهم، والاحتجاب بهم، ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق الله تعالى.

وروى الترمذي رحمه الله تعالى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « إذا كانت أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم سمحاءَكم، وأُموركم شورى بينكم، فظهـــر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كانت أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءَكم، وأمـــوركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها ».

وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلّم أم سلمة رضي الله عنها كما في قصة الحديبية، فصار دليلاً لاستشارة المرأة الفاضلة؛ ولفضل أم سلمة وَوُفور عقلها. حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأي فأصابت إلا أم سلمة.

{ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد فقهوا في الدين همّ أن يعاقب زوجته وولده، وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم، ولم يصبهم بخير فنزل {وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ } فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان، ولا تكون بين المؤمنين؛ فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدواً لهم.

{ وَإِن تَعْفُواْ } عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة.

{ وَتَصْفَحُواْ } بترك التثريب والتعيير يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه.

{ وَتَغْفِرُواْ } بإخفائها وتمهيد عذرها، { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } يعاملكم بمثل ما عملتم، ويتفضل عليكم وهذا كقوله تعالى: { وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً }.

قال القاشاني: وإن تعفوا بالمداراة، وتصفحوا عن ذنوبهم بالحلم، وتغفروا جناياتهم بالرحمة، فلا ذنب ولا حرج، إنما الذنب في الاحتجاب بهم، وإفراط المحبة وشدة التعلق لا في مراعاة العدالة والفضيلة.

ومعاشرتهن بحسن الخلق مندوب، بل اتصاف بصفات الله فإن الله غفور رحيم فعليكم بالتخلق بأخلاقه.

{ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تطيعوهم في معصية الله تعالى. و{ فِتْنَةٌ } أي بلاء وشغل عن الآخرة وقيل: أَعْلَمَ اللهُ تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده، لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وباشر الفعل الحرام لأجله، كغصب مال الغير وغيره.

{ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } أي جزيل، وهو الجنة، أخبر أن عنده أجراً عظيماً ليتحملوا المؤونة العظيمة، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم. وفي الآية ترغيب في الآخرة وتزهيد في الدنيا وفي الأموال والأولاد التي فتن الناس بها.

كان ابن مسعود يقول: لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى أهل ومال وولد إلا يشتمل على فتنة، ولكن ليقل اللهم إني أعوذ بك من مُضِلاَّتِ الفتن.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يخطبنا فجاء الحسن والحسين، وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: « صدق الله { إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ } نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» أخرجه الترمذي.

{ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون، قال المفسرون: هذا في المأمورات وفضائل الأعمال، يأتي الإنسان منها بقدر طاقته، وأما في المحظورات فلا بد من اجتنابها بالكلية، ويدل عليها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: « إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » أخرجه الشيخان.

{ وَاسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ } أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه.

{ وَأَنْفِقُواْ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ } أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكن خيراً لأنفسكم.

{ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس فقد فاز بكل مطلوب. والشح: هو البخل، وإنه يعم المال وغيره يقال: فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف وقيل: يوق شح (ظلم) نفسه فالشح: هو الظلم، ومن كان في معزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح ، ومَنْ يَقِهِ اللهُ ويعصمه من بخل نفسه الذي هو الرذيلة المعجونة في طينة النَّفس، فأولئك هم الفائزون بكل مرام وفي الحديث: « كفى بالمرء من الشح أن يقول: آخذ حقي لا أترك منه شيئاً ».

ومن يوق شح نفسه أي يكفه الله شح نفسه فيفعل في ماله جميع ما أمر الله به، موقناً به مطمئناً إليه حتى ترتفع عن قلبه الأخطار.

والشح خلق باطني هو الداء العضال، والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح، والنفس تارة تشح بترك المعاصي بأن تفعلها، وتارة تشح بالطاعات فتتركها، وتارة تشح بإعطاء المال، ومن فعل ما فرض الله عليه خرج من الشح.

{ إِن تُقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } سماه قرضاً من حيث إلزام الله المجازاة عليه (من فضله)، وفي تسميته قرضاً أيضاً مزيد ترغيب في الصدقة حيث جعلها قرضاً لله، مع أن العبد إنما يقرض نفسه لأن النفع عائد عليه.

ويتوجه الخطاب بهذا إلى الأغنياء، لبذل أموالهم للفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم، وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم. فإذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس، فإن الله يضاعف الأجر والثواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تَلَطُّفٌ بليغ في الإحسان إلى الفقراء.

{ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } أي يجعل لكم أجره مضاعفاً، ويكتب بالواحد عشرة وسبعين وسبعمائة وأكثر بمقتضى مشيئته على حسب النيات والأوقات والحال { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ، { وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ } يعطي الجزيل بالقليل { حَلِيمٌ } لا يعاجل بالعقوبة بل يمهل طويلاً ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان؛ فيتوب ولا يهمل، ولا يغتر بحلمه فإن غضب الحليم لا يطاق.

{ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } عالم السر شامل لما في القلوب، مما تؤثره الجِبِلَّةُ، ولا علم لصاحب القلب به فضلاً عن غيره أي هو تعالى العالم بما غاب أو حضر لا تخفى عليه خافية، الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه. والشكور يجازي العبد على الشكر وهو الاعتراف بالنعمة

على سبيل الخضوع فسمى جزاء الشكر شكراً فهو كثير الثناء على عبده بذكر أفعاله الحسنة وطاعته، فالشكر: الثناء على المحسن بذكر إحسانه قال الإمام القشيري رحمه الله: والشكور مبالغة الشاكر، والشاكر من له الشكر.

وسُئِلَ بعضهم من أشكر الشاكرين؟ فقال: الطاهر من الذنوب يعد نفسه من المذنبين، والمجتهد بالنوافل بعد أداء الفرائض يعد نفسه من المقصرين، والراضي بالقليل من الدنيا يعد نفسه من الراغبين، والقاطع بذكر الله دهره يعد نفسه من الغافلين، والراغب في العمل يعد نفسه من المفلسين، فهذا أشكر الشاكرين.

أقول:

أما فتنة الأزواج فقد عرفنا ذلك، وهي إذا أطاع الرجل زوجته في مخالفة أمور الدين. ولكن عليكم أن تحفظوا حقوق الشريعة باتجاههن، ولا تسترسلوا معهن اتباعاً لهواهن، وشهواتهن، من حب الدنيا، والزينة، واللباس، والتبرج للأجانب، لأن عقلهن مغلوب تحت شهواتهن، وحظوظهن، خصوصاً إذا كانت حالتهن اليسر، لأن اليسر يُخْرِجُ النساء عن الاستقامة لَغَلَبِة شهوتهن على عقولهن.

وأما من ناحية الأخلاق، على المؤمن العاقل أن يتحمل ويصبر على أخلاقهن. والصبر على أخلاق النساء من شؤون الإنسان الكامل؛ فلا بد أن يداريهن بالحكمة والموعظة، مع حفظ المودة والرحمة {وَمِنْ ءايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} على أن لا يسترسل معهن بكل الجهات.

والمشورة معهن من الأخلاق المحمودة، إذا لم تكن هذه الأمـــور مخالفـــة للشـــريعة، كمـــا أن الاستشارة في أمور البيت، وما أشبه ذلك فهذه من لوازم الحياة، لأهن صاحبات لكم في الآخرة كما في الدنيا ما دُمن موافقات للشريعة والسنة، والظلم لهن لا يليـــق للإيمـــان وفي الحـــديث : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ».

وأما الأولاد: عليكم أن لا يكونوا حجاباً بينكم وبين الله تعالى بكثرة تعلق القلب هم، ولَهُـــمْ على الوالد حقوق كما قال صلى الله عليه وسلّم: « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ » ولكن عليه أن ينتبه من حيث الاهتمام بالرزق لئلا يقع في الحرام مـــن أجل أولاده قال تعالى: { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ }.

فإذا كان الأولاد من أهل الصلاح، وهو يسعى في تحصيل رزقه موافقة للشريعة، مع توكله على الله ويرضى بالمقسوم فهو الموفق وأما إذا كان هذا الولد مخالفاً لرضى الله لِمَ يجمع الوالد المال حتى يسرف الولد ويبذر ويكون الوزر على الوالد.

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، ويصلح أولادنا، وذرياتنا، وسلام على المرســـلين والحمـــد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء الثامن والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم: ٦].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } أي: يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نار حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم.

قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال الخازن: أي مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلموهم، وأدبوهم، حتى تقوهم بذلك من النار، والمراد بالأهل النساء والأولاد وما ألحق بهما.

قال مقاتل: أن يؤدب المسلم نفسه وأهله.

فاجعلوا لها وقاية بالتأسي به صلى الله عليه وسلّم في ترك المعاصي وفعل الطاعات، وأهليكم أي: من النساء والولدان وكل من يدخل في هذا الاسم بالنصح والتأديب.

قال الضحاك ومقاتل: حق المسلم أن يُعلّم أهله مِنْ قرابته وإمائه ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه وفي الحديث: « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » لفظ أبي داود وقال الترمذي هذا حديث حسن. وقال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعاصي وترك المنكر والله الموفق.

وقال علي رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم.

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية. ففي صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم » فيعلمهم الحلال والحرام ويجنبهم المعاصي والآثام وإلى غير ذلك من الأحكام، وقال صلى الله عليه وسلّم : « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ » وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب، مستنداً إلى رؤية الهلال. وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان إذا أوتر يقول: « قومي فأوتري يا عائشة » ، وفي الحديث: « رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه صَلاتَكُم وصِيَامَكُم وزَكَاتَكُم، مسكينَكُم ويتيمَكُم جيرانَكُم، لعل الله يجمعهم معه في الجنة ».

{ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }، { نَاراً } نوعاً من النار لا يعقد (عقد السائل عقداً أي غلظ بالتسخين) إلا بالناس والحجارة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها. وأسرع اتقاداً، وعَنى بذلك أنها مفرطة الحرارة، تتقد بما ذكر،

لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه، قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقى فيها بنو آدم، وحجــارة من كبريت وأنتن من الجيفة.

{ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ } أي على هذه النار زبانية غلاظ القلوب لا يرحمون أبداً، مكلفون بتعذيب الكفار. والمراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا لأنهم خلقوا من الغضب، وحبب إليهم عذاب الخلق، كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب، وقيل: أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم، بالشدة والقوة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع، فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم. وذكر ابن وهــب قــال رسول الله صلى الله عليه وسلّم في خزنة جهنم: ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب.

{ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } أي لا يعصون أمر الله بحالٍ مــن الأحــوال، وينفذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير ثم يقال للكفّار عند دخولهم النار { يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ الْيَوْمَ } أي: لا تعتذورا عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، لأنه قد قُدِّمَ إليكم الإنذار والإعذار. { إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } أي: إنما تنالون جزاء أعمــالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئاً كقوله تعالى : { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَــسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }.

{ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ } إنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها.

{ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } إنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه. وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي. وفيه دليل على عصمة جميع الملائكة وذلك لأنهم عقول مجردة بلا مَنَازِع [المنازع: الرغبات والشهوات] ولا شهوة فيهم، مطيعون بالذات بخلاف البشر.

أقـــول:

من اللائق للمؤمن الذي يوجه الناس إلى الله تعالى أن يتفكر أولاً أن يوجه المؤمنين إلى الله جـــل جلاله، ويكون من الذين يفدون بأنفسهم، ويؤثرون المؤمنين على أنفسهم بـــأن ينســـى نفســـه ويفوض أمره إلى ربه بعد إتيان الفرائض الإلهية، ويحب أن تدخل أمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم في رضا الله، واتباع رسوله، فهذا أحب إليه من وقاية نفسه بالعبادة الخصوصية لنفسه، لأن خدمة المؤمنين أحب إليه من نجاته من العذاب فضلاً عن أن يترك نفسه وأهله، إذ كل واحد يعمل وظيفته.

هذا هو مطلب العارفين بالله كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أحب أن يكبر جســـمي ويملأ جهنم حتى لا يُبقي مكاناً لأمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم هذا محبة لله ولرسوله لا طلباً للثواب ولا لأي شيء.

نعم النفس مقدمة على كل شيء، ولكن ليس لكل أحد، { قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } [التحريم: ٦] ليس لكل أحد. نرجو الله تعالى أن يعطينا والمؤمنين جميعاً رضاه ومحبته. إذ إن دأب القرآن الكريم أحياناً يخوف عباده بمثل هذه الآية { قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ } [التحريم: ٦] وأحياناً يشوقهم ويحرضهم إلى رضاه، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلّم بالجنة، والحور، والقصور ولذائذ جنات النعيم، حتى يدخل المؤمن في رضاه، لأن هذا يدل على ضعفنا إما رغبة وإما رهبة. هذا من فضله وكرمه جلّ وعلا لأنه يعرف حقيقة أصلنا (العدم).

نسأل الله أن يوفقنا لخدمة المؤمنين، وأن يغفر لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

النداء التاسع والثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [التحريم:٨].

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً }، { تَوْبَةً نَّصُوحاً } توبة بالغة في النصح، والمعنى: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم، وقال في الكشاف: وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، وهو أن يتوبوا عن القبائح نادمين عليها غاية الندامة لا يعودون، وقيل: من نصاحة الثوب أي خياطته.

قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ومعاذ رضي الله عنهم: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن. وقال محمد بن القرطبي: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء:

١ــ الاستغفار باللسان. ٢ ــ والإقلاع بالأبدان.

٣ ــ وإضمار ترك العود بالجنان. ٤ ــ ومهاجرة سيّء الإخوان.

وقال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

ثانيها: أن يندم على فعلها.

ثالثها: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً.

فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحاً وإن فقد شرط منها لا تصح توبته، فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع: أن يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صاحبها فإن كانت المعصية مالاً ونحوه رده إلى صاحبه، وإن كان حد قذف أو نحوه مكّنه من نفسه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها.

ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه ما لم يتب منه، هذا مذهب أهل السنة.

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

روى مسلم عن الأغر بن يسار المزني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مئة مرة ».

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة » **، متفق عليه.**

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها » **رواه مسلم. (يبسط يده: أي قدرته ورحمته لأنه منزه عن الجوارح).**

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذي.

هذا والكلام في التوبة كثير، وحيث كانت أهم الأوامر الإسلامية، وأول المقامات الإيمانية، ومبدأ طريق السالكين، ومفتاح باب الواصلين، لا بأس في ذكر شيء مما يتعلق بها.

فالتوبة لغة: الرجوع، وشرعاً: الندم على المعصية لكونها معصية، لأن الندم عليها بإضرارها بالبدن أو إخلالها بالعرض أو بالمال مثلاً لا يكون توبة.

وأما الندم لخوف النار، أو للطمع في الجنة، ففي كونه توبةً تردد، ومبناه على أن ذلك هل يكون ندماً عليها لقبحها ولكونها معصية أم لا؟ وكذا الندم عليها لقبحها مع غرض آخر.

والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردتْ لتحققَ الندمُ فتوبة وإلا فلا، كما إذا كان الغرض مجموع الأمرين لا كل واحد منهما وكذا في التوبة عند مرض مَخوفٍ بناء على أن ذلك الندم هل يكون لقبح المعصية بل للخوف؟.

وظاهر الأخبار قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت ويتحقق أمره عادة. ومعنى الندم: تَحَزُّنٌ وتوجعٌ على أن فعلَ، وتمنى كونه لم يفعل ولا بد من هذا للقطع بأن مجرد الترك كالماجن - العاصي الذي يلهو كشارب الخمر - إذا ملّ ونه فاستروح إلى بعض المباحات ليس بتوبة، ولقوله صلى الله عليه وسلّم: «الندم توبة»، وقد يزاد قيد العزم على ترك المعاودة.

واعتُرض: بأن فعل المعصية في المستقبل، قد لا يخطر بالبال لذهولٍ أو جنون أو نحوه، وقد لا يقدر عليه لعارضِ آفةٍ كخرسٍ في القذف مثلاً أو جبٍّ في الزنا، فلا يتصور العزم على الترك لما فيه من الإشعار بالقدرة والاختيار.

وأجيب: بأن المراد: العزم على الترك على تقدير الخطور والاقتدار، حتى لو سلب القدرة لم يشترط العزم على الترك، وبذلك يشعر كلام إمام الحرمين حيث قال: إن العزم على ترك المعاودة إنما يقارن التوبة في بعض الأحوال ولا يَطَّرِدُ في كل حال إذ العزم إنما يصح ممن يتمكن من مثل ما قَدَّمَهُ، ولا يصح من المجبوب العزم على ترك الزنا، ومن الأخرس العزم على ترك القذف.

وقال بعض الأجلّة: التحقيق أن ذكر العزم إنما هو للبيان والتقرير لا للتقييد والاحتراز إذ النادم على المعصية لقبحها لا يخلو عن ذلك العزم البتة على تقدير الخطور والاقتدار، وعلامة الندم طولُ الحسرةِ والخوف وانسكابُ الدمعِ ومن الغريب ما قيل: إن علامة صدق الندم عن ذنب كالزنى أن لا يرى في المنام أنه يفعله اختياراً إذ يشعر ذلك ببقاء حبه إياه وعدم انقلاع أصوله من قلبه بالكلية، وهو ينافي صدق الندم.

وفي شرح المقاصد قالوا: إن كانت المعصية في خالص حق الله تعالى فقد يكفي الندم، كما في ارتكاب الفرار من الزحف، وترك الأمر بالمعروف، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد في الشرب، وتسليم ما وجب في ترك الزكاة، ومثله في ترك الصلاة، وإن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم والعزم إيصال حق العبد أو بدله إليه، إن كان الذنب ظلماً كما في الغصب، والقتل العمد، ولزم إرشاده إن كان الذنب إضلالاً له، والاعتذار إليه إن كان إيذاءً كما في الغيبة إذا بلغته ولا يلزم تفصيل ما اغتاب به إلا إذا بلغه على وجهٍ أفحش.

والتحقيق أن هذا الزائد واجب آخر خارج عن التوبة ــ على ما قاله إمام الحرمين ــ مــن أن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته في حق الله تعالى، وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجددة تستدعي توبة، ولا يقدح في التوبة عن القتل، ثم قال وربما لا تصح التوبة بدون الخروج من حق العبد كما في الغصب ففرق بين الغصب والقتل، ووجهه لا يخفــى على المتأمل.

ولم يختلف أهل السنة وغيرهم في وجوب التوبة على أرباب الكبائر.

وفي شرح الجوهرة: أن التمادي على الذنب بتأخير التوبة منه معصية واحــدة، مــا لم يعتقــد معاودته.

اختلف العلماء فيمن تَذَكَّرَ المعصية بعد التوبة منها، هل يجب عليه أن يجدد الندم؟

قال القاضي: إنه إذا لم يجدد ندماً كان ذلك معصية جديدة يجب الندم عليها، والتوبــة الأولى مضت على صحتها، إذ العبادة الماضية لا ينقضها شيء بعد ثبوتها.

وصرح إمام الحرمين قال: إذا لم يبتهج - عند ذكر الذنب - به ويفرح ويتلذذ بذكره أو سماعه، وإلا وجب التجديد اتفاقاً.

ثم إن للتوبة مراتب من أعلاها ما روي عن يعسوب المؤمنين كرم الله وجهه أنه سمــع أعرابيــاً يقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك فقال: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكــذابين. فقال الأعرابي: وما التوبة؟ قال كرم الله وجهه يجمعها ستة أشياء:

١ ـــ على الماضي من الذنوب الندامة.

٢ ـــ وللفرائض إعادة.

٣ ـــ رد المظالم.

٤ ـــ استحلال الخصوم.

٥ ـــ أن تعزم على ألا تعود.

٦ ـــ أن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي، حتى تتلذذ بحلاوة الطاعة وأذواقها.

ثم إنه تعالى بين فائدة التوبة بقوله سبحانه وتعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } قيل: المراد إنه عز وجل يفعل ذلك لكن جيء بصيغة الإطماع للجري على عادة الملوك فإنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا:

عسى أن نفعل كذا، والإشعار بأن ذلك تفضل منه سبحانه وتعالى، والتوبة غيرُ مُوجِبَةٍ لَهُ، وإن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة. واستدل بالآية على عدم وجوب قبول التوبة، لأن التكفير أثر القبول.

وقال الإمام النووي: لا يجب على الله سبحانه وتعالى قبول التوبة إذا وجدت بشروطها عند أهل السنة، لكنه سبحانه يقبلها كرماً منه وتفضلاً وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع فلا تغفل كما نص عليه الكتاب في قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }.

عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار.

{ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ } أي لا يخزيه في رد الشفاعة، والإخزاء: الفضيحة، أي لا يفضحهم بين يدي الكفار، ويجوز أن يعذبهم على وجهٍ لا يقف عليه الكفرة، قوله: { لاَ يُخْزِى } تعريض لمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسق واستحماد للمؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم. { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ } أي صاحبوه في وصف الإيمان { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } يسعى بين أيديهم على الصراط. والمعنى يسعى بين أيديهم، ويسعى بأيمانهم والمراد بأيمانهم: جهاتهم كلها. وفي الخطيب: والتقييد بالأَمَامِ والأَيْمان، لا ينفي أن لهم نوراً على شمائلهم، بل لهم نور، لكن لا يلتفتون إليه لأنهم، إما من السابقين فيمشون فيما هو أمام، وإما من أهل اليمين فيمشون فيما هو عن أيمانهم.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ } على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم مَنْ نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم مَنْ نوره في إبهامه ا.هـ من البدور للسيوطي.

حدثنا ابن المبارك عن أبي ذر وأبي الدرداء قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « أنا أول من يُؤْذَنُ له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم »، فقال رجل: يا رسول الله؟ وكيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: « غُرٌّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم ».

{ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون ذلك عند إطفاء نور المنافقين إشفاقاً، وعن الحسن: أنه تعالى متممٌ لهم نورَهم ولكن يدعون تقرباً إلى حضرة الله تعالى وقيل: أدناهم منزلة مَنْ نوره بقدر ما يبصر مواطىء قدمه؛ لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه، وقيل السابقون في الجنة يمرون مثل البرق على الصراط، وبعضهم كالريح، وبعضهم حبواً وزحفاً فهم الذين يقولون: {رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا } قاله في الكشاف. وقيل: يستديمون التضرع والابتهال في السؤال.

أقول:

لو لم يقع العبد في الخطأ لاغترّ وظن نفسه كاملاً، ومن طبيعة العبد النقص، والذلة، والتقصير.

ولو يعذبنا الله بالمخالفات من يمنعه؟! فهو بفضله وكرمه وضع لنا مجالاً لأن يتوب العبد، فالتوبة والاستغفار سنة الله في خلقه وقد فتح لنا هذا المجال إلى أخر عمرنا (ما لم يغرغر)؛ لذا لا بد علينا أن لا نتركها، ونثبت على التوبة النصوح. وإننا نرى أنفسنا أنه إذا حصلت لنا حاجة دنيوية

ندور ونسعى من شخص إلى شخص حتى يفتح لنا باب الاستعانة؛ وربنا قد فتحه لنا؛ علينـــا ألا نهمل هذا الباب، فنحن في كل الأوقات نحتاج إلى ربنا لسدّ ما صدر منّا من المخالفات والعثرات والزلات. لا بد لنا أن لا نُسَكِّر هذا الباب علينا؛ لأن باب رحمة الله على عباده في كل وقت وآن مفتوح، ما دام العبد لم يسدّه على نفسه بترك التوبة والاعتذار منه. نسألك التوبـــة الكاملـــة، والمغفرة الشاملة، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

~ * ~ * ~ * ~ * ~ * ~

المصادر التي اعتمد عليها في التفسير

١ - تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الـــرازي فخـــر الدين.

٢ - روح البيان لإسماعيل حقي البُروسَوي.

٣ - روح المعاني للألوسي العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي.

٤ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

٥ - جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

٦ - تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي.

٧- مدارك النسفي للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.

٨- مواهب الجليل من تفسير البيضاوي أنوار التتريل وأسرار التأويل للقاضي الشيخ محمد أحمد كنعان.

٩- لطائف الإشارات للقشيري.

١٠- حاشية الجمل على الجلالين للشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل.

١١- حاشية الصاوي على الجلالين للعالم العلامة العارف بالله الشيخ أحمد الصاوي المالكي.

١٢- حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي.

١٣- صفوة التفاسير للصابوني.

١٤- إشارات الإعجاز في بيان الإيجاز للإمام المجدد بديع الزمان سعيد النورسي.

١٥- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري.

١٦- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التتريل للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن.

١٧- حاشية العلاّمة أبي الفضل القرشي الصّديقيّ الخطيب المشهور بالكازروني على البيضاوي.

تم بحمد الله